منشورات مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية
سلسلة نصوص ووثائق (26)

طرابلس

مطلع القرن العشرين

في وصف الجغرافي الألماني إفالد بانزه

دراسة وترجمة
د. عماد الدين غانم
كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية - جامعة الفاتح

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
1997

منشورات مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية
سلسلة نصوص ووثائق (26)

طرابلس

مطلع القرن العشرين

في وصف الجغرافي الألماني إفالد بانزه

دراسة وترجمة
د. عماد الدين غانم
كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية ـ جامعة الفاتح

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى
1997

العنوان الاصلي بالألمانية

Tripolis

Von Ewald Banse

Mit 45 Bildern auf Tafeln nach photographischen Aufnahmen, 57 Textbildern nach Handzeichnungen des Verfassers und 3 Original-Karten

Erstes bis drittes Tausend

Alexander Duncker Verlag / Weimar 1912

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إليك طرابلس، ومايزيد عن عقد ونصف من السنين في رحابك الجميلة.

هذه قطعة من تاريخك العتيد كددت نفسي في إخراجها. يسرني أن تقبليها تعبيراً عما أكنه وأسرتي لك من تعلق ومحبة.

د. عماد الدين غانم

فهرس المحتويات

آ ـ الدراسة

الصفحة

ب ـ النص المترجم:

ـ مقدمة المؤلف

ـ قاعة الدخول إلى الشرق:

طرابلس ـ أشراف الإسلام ـ المرابط ذو اللوثة ـ مُزارع من الواحة وبندقيته ـ العرق الليبي ـ العجوز والورود ـ الشحاذ التعيس ـ الحولي لباس عموم أهالي منطقة طرابلس ـ نساء طرابلس السمينات ـ العربي والطارقي ـ السود المساكين ـ التركي.

في سوق الأساطير: الأسواق القديمة ـ الأقواس ـ التجار النوَّم ـ تقاطع الممرات ـ السلع الشرقية ـ المعروضات المغرية.

حول سوق الترك: المطابخ الشهية والمنشفة الجماعية ـ حوانيت الحلاقين على الطراز القديم ـ طبيب الأسنان الذي أجاز نفسه ـ زيارة الحلواني اليوناني ـ الدكاكين ـ اليهودي المفلس ـ السمكريون اليهود ـ الطرابيشي ـ عسل تركي ـ النحّاس الأرمني النشيط ـ الفحام ذو الرحلات البعيدة ـ دكاكين الخردوات ـ القواد الثرثار.

حي المرفأ (المارينا): فوضوية صيادي الاسفنج ـ الأرغن المتنقل والفونوغراف ـ الحمالون ورئيسهم ـ باب البحر ـ دكاكين الطيبات ـ الجزارون ـ قوس النصر ـ مالطية.

الحارة: بعد ظهر يوم الجمعة ـ قذارة ورائحة وقمل ـ الجزار المنفوش الشعر والعجوز ـ اليهودي العصري ـ لباس اليهودي القديم ـ الحياة اليومية لليهودي التقي ـ السبت الذي يغير كل شيء ـ حياة شاب يهودي فقير وتدرجه في التجارة ـ التعصب اليهودي ـ الأهمية الثقافية لليهودية في طرابلس.

الدراسة

إفالد بانزه

EWALD BANSE 1953 - 1883

حياته وآثاره

الدراسة: إفالد بانزه 1883 - 1953 Ewald Banse

حياته وأثاره

تمهيد:

في عام 1980 صدرت بيبلوغرافيا الكتابات الألمانية حول ليبيا إعداد كاميلا دڤلتشين[(١)] حصرت فيها 1374 عنواناً بين كتاب ومقال وتقرير تتناول ليبيا من مختلف الجوانب، وتشكل الأعمال التاريخية والجغرافية جزءاً كبيراً منها. وعلى الرغم من الثغرات التي وقعنا عليها في هذا العمل الجاد، إلا أنه يوقفنا على حقيقة أهمية المادة الألمانية في دراستنا التاريخ الليبي الحديث. وإذا تأملنا ماترجم من المصادر الألمانية إلى العربية فإننا نقف أمام حقيقة أخرى وهي قلة استفادتنا من هذه المادة، إذ أنه لم يقيض إلا لعدد قليل من باحثينا تقييم هذه الكتابات في دراساتهم.

يعود تاريخ أول كتاب ألماني يتناول ليبيا في جزء منه إلى العام 1694 [(٢)]، وظلت هذه الكتابات تتطور ببطء حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما أخذت تتزايد بسرعة كبيرة وتبرز في القرن الثامن عشر تقارير هيبنشترايت الذي قدم إلى مدن الشمال الأفريقي بتكليف من ملك سكسونيا وبولونيا فريدريك أوغوست الأول في 1732 وقد رافقه في رحلته مجموعة من العلماء

---

(١) Camilla Dawletschin, Bibliographie deutsch sprachiger Literatur über Libyen. Hamburg: Deutsches Orient Institut 1980

(٢) Schauplatz barbarischer Sklaverei oder Algier Tripoli and Tunis. Hamburg' 1694.

والفنانين[1].

منذ أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ازداد عدد الرحالة والتجار الألمان الذين أخذوا يفدون إلى ليبيا كي يقوموا برحلاتهم في الأراضي الليبية ساحلاً ودواخل أو يتجاوزوها إلى البلدان المجاورة، خاصة وأن المرافىء الليبية، وبالدرجة الأولى طرابلس وبنغازي، كانتا المركزين الرئيسيين للتجارة مع بلاد السودان الأوسط والغربي ثم إن نزول الشاطىء الليبي باتجاه الجنوب يجعل المراكز الساحلية الليبية أقرب إلى وسط أفريقيا.

ومن الأسماء الشهيرة بين هؤلاء الرحالين نذكر بارت وفوغل وأوفرفيغ وبويرمان ورولفس وفون مالتسان وناختيغال وفون باري وكراوزه وغروته وشونفلد وبانزه وغيرهم كثير، ومن هؤلاء الرحالين من أولى مدينة طرابلس اهتماماً خاصاً فوصفها تحصينات وشوارع وأسواقاً وسكاناً وعادات وتقاليد ومؤسسات سياسية واجتماعية واقتصادية، وهكذا فإننا نتوفر على وصف لمدينة طرابلس في مؤلفات بارت ورولفس وناختيغال وفون مالتسان وكراوزه وبانزه أي إننا في وضع يسمح لنا بتتبع تطور المدينة خلال ستة عقود من منتصف القرن التاسع عشر حتى العقد الأول من القرن العشرين. إن العملين الأكثر تفصيلاً بينها هما وصف فون مالتسان في العام 1869 الذي خص مدينة طرابلس بما يزيد عن مائتي صفحة من عمله الذي يتضمن رحلته في إيالتي تونس وطرابلس[2]. وكذلك وصف إڤالد بانزه لطرابلس في العقد الأول من القرن العشرين. وقد آثرنا أن

---

(١) Johannes Ernestus Hebenstreit. Vier Berichfe auf Befehl Friedrich Augusts II in jahre 1732 in Begleitunz einger anderer Gelehrten and Künstler auf den afrikanischen Küsten

نشرت هذه التقارير ضمن مجموعة برنيوليس العام 1781.

(٢) Heinrich von Maltzan. Reise in die Regeschaften Tunis and Tripolzs, Leipzig 1870. 2 vola.

قمنا بترجمة النص المتعلق بطرابلس من هذا الكتاب ونقوم بإعداده للنشر مع دراسة عن فون مالتسان بعد أن جمعنا الوثائق حول هذه الشخصية الجديرة بالاهتمام.

نوجه اهتمامنا إلى عمل بانزه مع أنه الأخير في هذه السلسلة لأنه وضع كتاباً مستقلاً خصصه لدراسة هذه المدينة وزوده بالصور والمخططات والرسومات الفائقة الأهمية.

وقبل أن نقدم نص كتاب بانزه فإنه يجدر بنا أن ندرس حياته وآثاره بحيث يمكننا فهم كتابه على وجه أفضل.

مصادر ترجمة بانزه:

يمكن تصنيف إفالد بانزه في عداد الرحالين والجغرافيين في آن واحد. فقد قام في ريعان شبابه برحلات قادته إلى ليبيا ومصر والشام والعراق وآسيا الصغرى، كما عمل أستاذاً جامعياً في أقسام الجغرافية في هانوفر وبراونشفايغ، وترأس تحرير مجلتين جغرافيتين هما: الأرض Die Erde والجغرافية الجديدة: Neue Geographie وإن هذه الشخصية المتنوعة النشاطات والتي صنفت مايربو عن اثنتي عشر كتاباً يقع بعضها في عدة مجلدات ناهيك عن مقالات كثيرة لم تلق أي اهتمام من الدارسين وقلما تتوفر حولها معلومات كافية لتقديم وصف متوازن لحياته الشخصية والعلمية.

على الرغم مما بذلناه من جهد في تقصي المراجع البيبليوغرافية وكتب الأعلام الألمانية ودور الأرشيف الألمانية، فإن ماوقعنا عليه لايتناسب مطلقاً والمكانة التي يبدو أن بانزه كان يتمتع بها. ومما يثير الاستغراب أن «موسوعة مكتشفي الأرض وباحثيها[١]» التي صدر المجلد الأول منها في غراتس بالنمسا في العام 1978 ومازالت لم تكتمل بعد وتترجم للرحالين والجغرافيين في مقالات كثيفة بمعلوماتها حول كل منهم وتورد قائمة بمؤلفاتهم وأهم الدراسات التي وضعت حولهم، فإن هذه الموسوعة المتخصصة لم تدرج اسم إفالد بانزه ضمن موادها. كما أننا لم نعثر على ترجمة له في كتب تراجم الكتاب الألمان.

إن معجم الأدب الألماني هو الوحيد بين المراجع العامة والمتخصصة الذي

(١) Enzyklopadie der Entdecker und Erforscher der Erde. Graz 1978-

كرّس بضعة أسطر ترجم بها لبانزه[1]، كما أننا لم نقع على أية دراسة تتناول مؤلفات بانزه فيما خلا مراجعة سريعة لكتابه عن طرابلس ـ الذي نحن بصدده ـ إثر صدوره في العام 1912 [2] وتقييم لأعماله على ضوء الجغرافية العلمية[3] ويبرز مبرر هذا التقييم لكل من قرأ مؤلفات بانزه، فهو غالباً مايكتب بأسلوب أدبي[4].

لكننا لانعتقد أن قلة الاكتراث ببانزه ومؤلفاته، يرجع إلى قلة عطاء هذه الشخصية، فكما أشرت أعلاه فإنه عمل أستاذاً في جامعتي هانوفر وبراونشفايغ وشغل منصب رئيس تحرير مجلتين جغرافيتين مهمتين، عدا عن أنه صاحب مجموعة لايستهان بها من المؤلفات.

إن سبب إهماله سياسي ولاشك وقد اتضح لي ذلك خلال انشغالي الدائب في جمع مادتي حوله واتصالي مع من اطلعوا على مجموعة أوراقه، لقد عُرف بانزه بنشاطه الموالي للحزب النازي أثناء عهد الرايخ الثالث وتوفي بعد استسلام ألمانيا ببضع سنوات ولذلك أهمل سياسياً وتحفظ ورثته على أوراقه، ولم يطلع عليها سوى القليلين دون أن ينشروا عنه شيئاً، وربما يختلف الوضع الآن بعد توحيد ألمانيا. أمام هذه الندرة في المعلومات كان لابد من اللجوء إلى دور الأرشيف الألمانية أملاً بالعثور على ماهو مفيد لغرضنا ضمن وثائق القنصلية الألمانية بطرابلس حيث أقام بانزه حوالي عامين، إلا أنه تبين أن وثائق القنصلية بطرابلس قد أتلفت عام 1943 [5] إثر دخول القوات البريطانية إلى المدينة، كما أننا لم نعثر في الأرشيف الاتحادي فرع بوتسدام أو في ميرزبورغ في مجموعات

---

(١) Deutsches Literatur Lexikon, München 1968 I, 260.

(٢) Orientalische Literatur Zeitung (1913), P. 157- 158.

(٣) J. Schmid. Ewald Banse und die Wissensch alfliche Geographie. Literatur handweiser, 60 (1924).

(٤) Deutsches Literatur Lexikon. I, 260.

(٥) رسالة الخارجية الألمانية ـ الأرشيف السياسي بون تاريخ 29-8-1990 رداً على استفسارنا بخصوص مكان وثائق القنصلية الألمانية بطرابلس.

الوثائق الخاصة بالعلوم والفنون على أية مكاتبات تتعلق ببانزه.

وأثناء عملنا في فهرس مظان المخلفات والأصول المخطوطة الخاصة بالمؤلفين الألمان بمكتبة الدولة ببرلين للحفاظ على التراث البروسي وقعنا على ثلاث رسائل بخط يد بانزه تتعلق الأولى بمشروع رحلة كان ينوي القيام بها إلى الكفرة[١] وأما الرسالتان الباقيتان فلاعلاقة لهما بنشاطه في ليبيا ولاتتضمنان ماهو مفيد لغرضنا[٢].

ولما كان بانزه قد توفي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد توقعنا أن نعثر على معلومات حوله في أرشيف الجامعة حيث كان يعمل وقد شاطرنا الرأي بعض أقاربه ممن اتصلنا بهم في براونشفايغ بألمانيا. كما أن زيارتنا قسم الجغرافية في جامعة براونشفايغ كانت مفيدة إذ أنهم أكدوا لنا هناك وجود الأرشيف الشخصي لبانزه لدى أحد أقاربه. كما أعلمونا أن أحد أساتذة العلوم السياسية في الجامعة قد اطلع على الأرشيف المذكور. ولدى اتصالنا بهذا الأستاذ استطعنا الحصول على عنوان الشخص الذي يحتفظ بالمخلفات الكتابية والمادية لإڤالد بانزه، فزرناه وطلبنا منه الإذن بالاطلاع على مجموعة المراسلات والصور وغير ذلك مما يساعدنا في دراسة هذه الشخصية، إلا أن الموقف كان متشنجاً ولم نلقَ أية استجابة. لكننا شاهدنا بعض الأشياء التي اشتراها أو حصل عليها بانزه في طرابلس وهي مصورة في كتابه مثل: البندقية الطويلة والطربوش وبعض الملاعق الخشبية المزوقة والأدوات الجلدية. وهكذا حرمنا من فرصة الاطلاع على هذه المجموعة التي عقدنا آمالاً عريضة عليها نظراً لأننا كنا نتوقع أن تثري دراستنا حول المؤلف وأعماله وأن تمدنا بمادة غزيرة من الصور التاريخية خاصة وأنه كان مصوراً ماهراً.

ونتيجة لما تقدم فإننا سنستمد معلوماتنا من النبذة التي أوردها عنه معجم الأدب الألماني، ومن رسالته التي ننشرها في الملحق، ومن مقالات نشرها بعد

---

(١) انظر الملحق السابق.

(٢) Staatsbibliothek zu Berlin, Preubischer Kultubesitz. Nachlab Von F. V. Luschan.

زيارته ليبيا للمرة الثالثة في 1914 على أن جل اعتمادنا سيكون ولاشك على الإشارات التي يوردها عن نفسه في كتاب طرابلس الذي ننشره هنا.

ترجمة بانزه:

ولد إڤالد بانزه في 23-5-1883 في مدينة براونشفايغ التي تقع حالياً بولاية سكسونيا السفلى الألمانية. ولانعلم شيئاً عن بيئته العائلية وتنشئته سوى أن والده كان رسّاماً[١]، أي أن إڤالد عاش في أحضان أسرة ذات مواهب يبدو أنها غرست فيه حب المعرفة، ووفرت له سبل الاطلاع، فقد قرأ في سن الشباب كتب الرحلات حول أفريقيا التي اشترى منها الكثير[٢]. وهكذا تسنى له أن يطلع وهو بعد تلميذ مدرسة على أدبيات مايعرف بالكشف الجغرافي عن أفريقيا، ويتعرف على سير مشاهير الرحالين وتقاريرهم. وكان لهذه القراءات أثرها الكبير على بانزه الشاب، فقد تطلع إلى الرحلة وأصبحت شغله الشاغل.

إن الاهتمام المبكر بالوطن العربي وأفريقيا، والتفكير بالقيام برحلات في مناطق مختلفة ترسخ لدى بانزه وهو في العقد الثاني من عمره ونتيجة لذلك وجه دراسته كي تخدم أحلامه في التعرف على الشرق، فاختار الجغرافية والجيولوجيا اختصاصاً رئيسياً، ودرس إلى جانب ذلك علم الحيوان والنبات، وأمضى فترة دراسته الجامعية 1902-1906 في جامعتي برلين وهاله[٣].

رحلة بانزه الأولى إلى ليبيا 1906-1907:

ما إن أنهى دراسته الجامعية حتى يمم وجهه رفقة زوجته نحو الشرق وكانت أول محطة له في عالم الرحلة مدينة طرابلس التي قصدها على ظهر السفينة المتوجهة إليها من مالطا في 29-2-1906 أي أن بانزه بدأ حياة الرحلة

(١) Deutsches Literatur Lexikon. München 1968. I, 260

(٢) انظر النص أعلاه ص 48 .

(٣) Deutshes Literatur Lexikon, I,260.

وهو مايزال في الثالثة والعشرين من عمره. وهو بذلك يعتبر من الرحالين الذين بدأوا عهدهم بالرحلة في سن مبكرة لم يبزَّه في ذلك سوى عالم الأفريقيات الألماني غوتلوب آدولف كراوزه الذي قام برحلته الأولى إلى طرابلس ثم مرزق وهو في الثامنة عشرة من عمره ثم أقنعه الرحالة الألماني غوستاف ناختيغال بالعودة إلى ألمانيا وإتمام دراسته الجامعية فامتثل، إلا أنه لم يلبث أن عاد بعد عشر سنوات.[١]

في بداية وصول بانزه إلى طرابلس نزل فندقاً ثم استأجر بيتاً في المدينة القديمة قرب جامع صغير لايحدد موقعه[٢]. وبعد مضي ستة شهور انتقل إلى المنشية ونزل في نفس البيت الذي سكنه قبلاً الرحالون رولفس ومالتسان وغروته واستمر في هذا البيت إلى أن غادر طرابلس في 31-3-1907.

وكما أشرنا أعلاه فقد اختار بانزه طرابلس بحيث يكوِّن فيها معرفته عن الشرق فهو يقول: «في طرابلس حاولت أن أدخل عالم الشرق الغريب عنا [يقصد الأوربيين]»[٣].

وقد تجسد ذلك في سعيه إلى تعلم اللغة العربية أولاً، واستفاد لهذا الغرض من خادمه صالح بن عبد الله الفزاني الذي كان يتكلم اللغة الايطالية بطلاقة ويعرف شيئاً من الفرنسية فقد كان يعمل في مزارع العنب الفرنسية بتونس. ثم تعلم بانزه الكتابة وبعد أن كوَّن قاعدة بسيطة للتفاهم بالعربية كان يحمل كراسة خلال جولاته ويسجل مايسمعه من كلمات وجمل عربية بالحروف الألمانية مما طوَّر معرفته بالعربية، فقد أشار في رسالة إلى مستشار البلاط في 26-1-1911 يطلب فيها الدعم لرحلة يخطط للقيام بها إلى الكفرة وتبستي، إنه يملك ناصية

(١) عماد الدين غانم، تقاريره غوتلوب: آدولف كراوزه الصحفية عن الغزو الايطالي لليبيا. طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1993. ص، ومايليها

(٢) انظر النص أعلاه 60 .

(٣) انظر النص أعلاه 50

اللغة العربية[١]. وعندما زار طرابلس للمرة الثالثة 1914 كان يتحدث العربية مع تاجر ليبي يركب إلى جانبه في السيارة العسكرية الايطالية من غريان وقدأخبره أنه يعتزم الهجرة إلى دمشق حيث اشترى بيتاً في حي الصالحية إلا أن الايطاليين لم يسمحوا له بذلك[٢]. ومما يجدر ذكره أن بانزه قضى معظم الفترة 1906-1909 مابين طرابلس الغرب والمشرق العربي وآسيا الصغرى وهذا ماعمق معرفته بالعربية، على أننا يجب أن نشير أيضاً إلى أنه منذ رحلته الأولى إلى طرابلس استطاع أن يتعلم العربية ويتعامل بها.

ولم تقتصر محاولة بانزه الدخول إلى «عالم الشرق الغريب» على تعلمه اللغة العربية فحسب، بل سعى أيضاً إلى تعلم طريقة التفكير الشرقية وتحسس مشاعر الشرقيين وتعود على الطعام الشرقي فهو يقول: «وأخيراً توصلت إلى درجة التعود على أن أعبر عن أفكاري ببعض الجمل العربية وأصبحت بعض الحركات والتصرفات الشرقية جزءاً مني»[٣] لقد اعتبر بانزه الحرص على المسلك الشرقي عنصراً أساسياً لنجاح رحلته وقد تعلم ذلك في طرابلس كي يعمم ماتعلمه على الشرق وعبر عن أهميته في قوله: « إن من نام في خيمة شعر سوداء وتناول الجبنة البيضاء من أصابع مخضبة بالحناء يعرف أن مثل هذه المقدرة تعني شيئاً إذ أنه من المحال من يكتفي بالمراقبة فقط أن ينقلب شرقياً[٤].

لكن هل استطاع بانزه فعلاً أن يدخل إلى أعماق الشرق ويدرس الظواهر في إطار بيئتها ويتخلص من الأحكام المعهودة، الحق يقال أنه استطاع أن يرصد الكثير من القضايا بعين متفحصة ودقيقة، ولكنه ما إن وصل إلى الظواهر الاجتماعية حتى ظهر إخفاقه، خاصة وأنه أخذ يركز على بعض المظاهر الشاذة التي توجد في كل مجتمع ويوليها أهمية. ولعل مُراجع كتابه «طرابلس» لم يكن جائراً عندما وصفه أنه ظل في معظم الأحيان مغرقاً في

(١) انظر نص الرسالة المترجم في ملحق الدراسة.

(٢) E. Banse. "Ins Innere Tripolis" Deutsche Rundschau, 174 (1918) P. 55.

(٣) انظر النص أعلاه ص 49 .

(٤) انظر الصفحة نفسها.

أوربيته[١].

على أنه يجب الإشارة إلى أن الطريقة التي اتبعها بانزه بعد وصوله إلى طرابلس كانت صحيحة عندما حدد أولوياته في مسألتين أساسيتين: أولاهما تعلم العربية وسيلة التفاهم، وثانيهما الانخراط في البيئة بالتعود على نمط العيش وعلى كل مايسمح للغريب بالاندماج في المحيط الاجتماعي الذي يتعامل معه، ومن المؤكد أن سن الشباب ووجود زوجته كانا عاملين مساعدين له إلى جانب حماسه الدائب للتعرف إلى هذا العالم الغريب عنه. لقد ساعدته زوجته ولاشك في مدّ رصيد معلوماته ليشمل الشق الآخر من المجتمع وبالأحرى عالم المرأة والأسرة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل ظل بانزه دونما نشاط ريثما أتقن العربية وعرف تقاليد المجتمع الذي يعايشه، والأمر الواضح أنه لم يفصل بين هاتين المهمتين الأساسيتين وبين أهداف رحلته التي يريد أن يحققها. فقد أتى إلى طرابلس وهو يهدف إلى إعداد رحلات نحو الدواخل، وهذا أمر يقتضي أن يقطع شوطاً في تعلمه العربية. ولذلك نراه يبدأ بدراسة طرابلس.

منذ الأسبوع الأول لوصولهما طرابلس كان بانزه وزوجته يتجولان في المقبرة التي كانت تجاور جامع سيدي الشعاب من جهة البحر، وكان يحمل فأس المنقب الأثري ويحاول جمع الجماجم من قبور مفتوحة بفعل حت البحر. وقام بهذا العمل وفق البرنامج الذي وضعه لرحلته حيث كانت القضايا الانتروبولوجية تثير اهتمامه، ولذلك حاول قياس بعض الجماجم لابل جمع نماذج منها وكان ينوي إرسالها إلى ألمانيا إلا أنه خشي من الجمرك العثماني وعدل عن فكرة ارسالها وأهدى نماذج مما جمعه إلى تاجر ألماني كان يعيش في طرابلس[٢].

ومن القضايا التي أدرجها بانزه في برنامجه وشرع في إنجازها هو إعداد مخططات وخرائط. فقد اشتغل بعد وصوله بفترة قصيرة بالعمل في اعداد مخطط

---

(١) Orientalische Literaturzeitung. (1913), P, 158.

(٢) انظر النص أعلاه ص 133 أصل.

لمدينة طرابلس وضواحيها. ولما كان هذا العمل يتطلب استعمال أجهزة فقد اصطدم بمصاعب من أبرزها تخوف الإدارة العثمانية من التجسس وثانيهما حساسية الايطاليين القاطنين في طرابلس والقنصلية الايطالية من تحركات الأوربيين من الجنسيات الأخرى إذ إن ايطاليا في ذلك الوقت كانت قد حصلت على موافقة العديد من القوى الأوروبية بشأن إفساح المجال أمامها للاستيلاء على طرابلس الغرب.

وهذا الوضع جعل بانزه يلجأ إلى السرية في عمله وفرض عليه الاستغناء عن معظم الأجهزة اللازمة فاكتفى منها ببوصلة وساعة جيب يتمكن بها تحديد الاتجاهات وقياس طول أسوار المدينة وشوارعها. ولهذا كان يختار وقت عمله هذا بعد الفجر ويستمر فيه حتى الضحى كي يتفادى المراقبة واستطاع خلال أسابيع من العمل الدائب انجاز البيانات اللازمة لوضع مخطط المدينة، وجاء مخططه بسيطاً أسقط منه معظم الأزقة الصغيرة والطرق المسدودة.

وبعد إنجاز مخطط المدينة القديمة أضاف إليه مخططاً للمدينة الجديدة والظهرة وشارع الشط والمنشية ولاحظ أن الدرك العثماني كانوا يراقبونه[١]. وقد نشر المخططين في كتابه عن طرابلس الذي نحن بصدده.

كما قام بانزه بالتقاط الصور الفوتوغرافية لمدينة طرابلس وضواحيها وأعد رسومات توضيحية لكثير من الحرف والمآذن والأبواب والواجهات والأزياء والأدوات، وعلاوة على ذلك استفاد من صور وضعها تحت تصرفه تشيكي كان يقطن طرابلس.

إن الصور التي نشرها بانزه في هذا الكتاب لاتشكل سوى نزر يسير من مجموعة الصور التي التقطها خلال زياراته إلى طرابلس 1906-1907 1909-1914 ولو قيض لنا الاطلاع عليها لكانت ستزيد من إمكانية توثيق طبوغرافية المدينة القديمة وحياتها الاقتصادية والاجتماعية خاصة وأنه كان يتقن التصوير الفني لقد وقفنا على الصور التي ضمنها مؤلفاته الأخرى فهي تبين مدى

(١) انظر النص أعلاه ص 63.

كفاءته في هذا المجال، وقد امتدح مُراجع كتابه مقدرتَه في التصوير ووضع الرسومات [١].

لقد أشار بانزه إلى أن الغرض الأول من مكوثه في طرابلس هو القيام برحلة تشمل مناطق طرابلس وفزان وبرقة وأن يضع لها خرائط وكان ينوي أن تستغرق هذه الرحلة عدة شهور، لهذا الغرض أعد الأدوات والأسلحة والليرات الذهبية اللازمة وشرع بالسعي للحصول على إذن من الحكومة العثمانية وقدم طلباً، إلا أن الرد جاء سلبياً فتأثر أيما تأثر [٢].

إن تشوقه البالغ لانجاز هذه الرحلة وخيبة أمله دفعتاه إلى محاولة القيام برحلة إلى الجبل الغربي دون الحصول على إذن السلطات العثمانية. فقام برفقة زوجته وصديقه التاجر الألماني آبل الذي كان يقيم في طرابلس بالانطلاق من طرابلس يقصدون قضاء عدة أسابيع متجولين في الجبل الغربي، إلا أن الدرك العثماني داهم مخيمهم تحت الجبل وأعادهم إلى طرابلس بأدب بالغ [٣].

إن جواب السفارة الألمانية في استانبول على طلبه بخصوص الرحلة جاء سلبياً ـ كما ذكرناه ـ فلم تسع جدياً حسب رأيه للحصول على الموافقة وهذا ماخيب أمله وجعله يبدأ بالتفكير برحلة إلى المشرق العربي فغادر طرابلس في 31-3-1907 متوجهاً إلى مصر ويبدو أنه عاد من هناك إلى ألمانيا أي أنه أمضى في طرابلس خلال زيارته الأولى ثلاثة عشر شهراً.

لقد استطاع بانزه خلال هذه المدة القصيرة نسبياً أن يضع الأساس لهذا الكتاب المهم الذي بين أيدينا إضافة إلى تعلمه اللغة العربية وتعرفه على المجتمع.

---

(١) Orientalische Literatuzeitung (1913), P. 158.

(٢) انظر النص أعلاه ص 24 الأصل.

(٣) الصفحة نفسها.

رحلة بانزه الثانية إلى ليبيا 1909:

بعد مغادرته طرابلس في ربيع 1907 لم يمكث بانزه طويلاً في ألمانيا فقد توجه في نفس العام إلى الشام عبر مصر وركب القطار من بيروت إلى حلب ثم تابع طريقه على ظهر بغل إلى أورفة وديار بكر وزار مناطق أرمينية وآسيا الصغرى ثم عاد إلى بلاد الشام حيث زار حيفا ودمشق وتدمر ودير الزور ثم دخل العراق لزيارة آثار بابل وكربلاء وبغداد وآشور والموصل وغيرها من المناطق وقد استغرقت رحلاته هذه مدة سنتين(١).

بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد وتولي الاتحاد والترقي الحكم في الدولة العثمانية عاد بانزه إلى طرابلس في 13-5-1909 كي يعيش فيها عدة سنوات ويقوم برحلات واسعة في ليبيا وخارجها وسكن في الظهرة وأخذ يعد نفسه للقيام برحلة إلى الكفرة وتبستي إلا أنه لم يتمكن من تحقيق ذلك نظراً لإصابته بانهيار عصبي وقد عزا ذلك المرض إلى الإجهادات الفكرية والجسدية التي تطلبتها مرحلة الإعداد للرحلة(٢).

ويرجح أن المرض قد اعتراه بعد فترة غير طويلة من وصوله إلى طرابلس لأنه يذكر أنه انتظر شهوراً أملاً أن يستعيد صحته إلا أن هذا لم يتم له فقرر تأجيل مشروع رحلته وغادر طرابلس في 19-12-1909 متوجهاً إلى ألمانيا وهذا يعني أنه فشل في تحقيق مشروعه في هذه المرة أيضاً.

إن الوثائق التي وقعنا عليها وكذلك مقالات بانزه لاتبين لنا ماالذي فعله خلال الفترة اللاحقة، إلا أن الرسالة التي عثرنا عليها في مكتبة الدول ببرلين المؤرخة في 26-1-1911 أي بعد مضي ثلاثة عشر شهراً على مغادرته طرابلس التي يطلب فيها من مستشار البلاط المساعدة للقيام برحلة من بنغازي إلى وجلة ثم الكفرة وتبستي دون أن يحدد طريق العودة) تبين أنه لم يتخل عن

---

(١) انظر النص أعلاه ص 50 ومابعدها.

(٢) انظر النص أعلاه ص 69 .

مشروعه القيام برحلات في ليبيا وفي الصحراء الكبرى وأنه حافظ على اتصالاته بطرابلس وبنغازي إذ أن أصدقاءه في المدينتين المذكورتين نصحوه أن الظروف أصبحت مؤاتية للرحلة خاصة وأن الوالى العثماني في بنغازي وعد بدعم الرحلة.

لقد حدد بانزه هدف رحلته في رسم الطرق بعناية وتحديد درجات العرض ورسم مقاطع جيولوجية وجمع نماذج من النباتات[١].

ولعل طلبه لم يكلل بالنجاح لأنه لم يجد الدعم المطلوب لدى الجهات التي تمول هكذا رحلات، وليس في حوزتنا أية معلومات تبين أنه زار ليبيا مرة أخرى قبل 1914 وجل مانعرفه عنه أنه كان يتولى ادارة مجلة الأرض الجغرافية خلال الفترة من 1912-1914 [٢].

رحلة بانزه الثالثة إلى ليبيا 1914:

في دراسة نشرها بانزه 1917 بعنوان «طرابلس الجديدة تماماً»[٣] يبين أنه قد زار طرابلس للمرة الثالثة في 1914 دون أن يعطي تفصيلات عن برنامج زيارته وظروفها ومن المؤكد أن زيارته جاءت قبل فصل الصيف أي قبل تأزم الأوضاع التي أدت إلى دخول ألمانيا الحرب العالمية الأولى وهذا مايظهر من دراسة أخرى يصف فيها طبيعة المنطقة وقت الزيارة وهو وصف يوحي بالربيع كما نتبين ذلك من وجود القنصل الألماني آدولف تيلغر في طرابلس أثناء زيارة بانزه، ووثائق القنصلية تؤكد أن تيلغر كان خلال صيف 1914 في أوروبا يقضي إجازته. ويذكر بانزه في مقالة أنه قد زار العزيزية وغريان وأنه أول رحالة يستعمل في

---

(١) الرسالة محفوظة في مكتبة الدولة ببرلين - مجموعة المقتنيات الثقافية البروسية تحت رقم 1 مجموعة دارمشتبتر - افريقيا.

Staatsbibliothek Zu Berlin - Preubischer Kulturbesitz. Darmstadter ,Afrika-1

(٢) Deutsches Literaturlexikon, I, 260.

(٣) Ewald Banse "Das Ganz Neue Tripolis" Deutsche Rundschau. 174 (1917) P. 351

رحلته في هذه البلاد القطار والسيارة[١] فقد ركب القطار من طرابلس إلى العزيزية ثم ركب سيارة عسكرية إيطالية سلكت الطريق الذي شقه الجيش ويبين أن وسائل النقل الحديثة اختصرت الوقت اللازم لقطع المسافة بين طرابلس وغريان من ثلاثة أيام إلى ست ساعات[٢].

وفي دراسته عن طرابلس الجديدة يخصص مقطعاً لوصف نشاط قنصل الرايخ الألماني الطبيب آدولف تيلغر 1909-1914 ويعتبره من هواة ليبيا. ويشيد بنشاطه القنصلي ودعمه الباحثين الألمان فيقول «أن قنصليته [تيلغر] تبز جميع القنصليات التي شاهدتها في الشرق بما تقوم به من عمل واسع الأفق وعلى مستوى علمي، فهي تقوم بجمع كل ماكتب عن ليبيا وتقوم بتنظيمه كي يمكن الحصول عليه، إنها مكتبة جيدة وفيها مجموعة من الخرائط وحتى الخرائط الكبيرة غير المتاحة لعامة الناس. كما تحتفظ هذه المكتبة بمجموعة كبيرة من قصاصات الجرائد والكتابات المخطوطة، ولإنجاز مثل هذا العمل لايكفي وجود موظف ذي عقلية ضيقة، بل يتطلب الأمر الرأس المفكر وعمق العالم. وإنه بهذا الاسلوب يذكر بحياة بوتا الهادئة في المنشية[٣] إنه يتمتع بدماثة الخلق والاندفاع نحو تحقيق رغبات القادمين كما يحرص على تشجيع الباحث وتوفير الدعم الرسمي له... لم أقابل قنصلاً ألمانياً يتبنى مصالح رعاياه بكل حرارة مثلما يفعل الدكتور تيلغر فلولاه لما وصلت إلى غريان. ولو لم يقم باقتراح المخطط عليَّ ويؤمن لي موافقة الحكومة ويحصل لي على مقعد مجاني في سيارة عسكرية لما قيض لي القيام بهذه الزيارة[٤].

وفي دراسته عن طرابلس الجديدة يقدم لنا بانزه معلومات هامة عن وضع

---

(١) Idem, "Ins Innere Tripolis" Deutsche Rundschau 174 (1918) P.44

(٢) Idem, Das Ganz Neue Tripolis, P. 354

(٣) يقصد بذلك القنصل العام الفرنسي بوتا Botta 1869-1860 انظر فيرو، الحوليات الليبية، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي. طرابلس: الفرجاني 748/3.

(٤) E.Banse, Das Ganz Neue Tripolis. P. 354

رحلته في هذه البلاد القطار والسيارة[1] فقد ركب القطار من طرابلس إلى العزيزية ثم ركب سيارة عسكرية إيطالية سلكت الطريق الذي شقه الجيش ويبين أن وسائل النقل الحديثة اختصرت الوقت اللازم لقطع المسافة بين طرابلس وغريان من ثلاثة أيام إلى ست ساعات[2].

وفي دراسته عن طرابلس الجديدة يخصص مقطعاً لوصف نشاط قنصل الرايخ الألماني الطبيب آدولف تيلغر 1909-1914 ويعتبره من هواة ليبيا. ويشيد بنشاطه القنصلي ودعمه الباحثين الألمان فيقول «أن قنصليته [تيلغر] تبز جميع القنصليات التي شاهدتها في الشرق بما تقوم به من عمل واسع الأفق وعلى مستوى علمي، فهي تقوم بجمع كل ماكتب عن ليبيا وتقوم بتنظيمه كي يمكن الحصول عليه، إنها مكتبة جيدة وفيها مجموعة من الخرائط وحتى الخرائط الكبيرة غير المتاحة لعامة الناس. كما تحتفظ هذه المكتبة بمجموعة كبيرة من قصاصات الجرائد والكتابات المخطوطة، ولإنجاز مثل هذا العمل لايكفي وجود موظف ذي عقلية ضيقة، بل يتطلب الأمر الرأس المفكر وعمق العالم. وإنه بهذا الاسلوب يذكر بحياة بوتا الهادئة في المنشية[3] إنه يتمتع بدماثة الخلق والاندفاع نحو تحقيق رغبات القادمين كما يحرص على تشجيع الباحث وتوفير الدعم الرسمي له... لم أقابل قنصلاً ألمانياً يتبنى مصالح رعاياه بكل حرارة مثلما يفعل الدكتور تيلغر فلولاه لما وصلت إلى غريان. ولو لم يقم باقتراح المخطط عليّ ويؤمن لي موافقة الحكومة ويحصل لي على مقعد مجاني في سيارة عسكرية لما قيض لي القيام بهذه الزيارة[4].

وفي دراسته عن طرابلس الجديدة يقدم لنا بانزه معلومات هامة عن وضع

---

(١) Idem, "Ins Innere Tripolis" Deutsche Rundschau 174 (1918) P.44

(٢) Idem, Das Ganz Neue Tripolis, P. 354

(٣) يقصد بذلك القنصل العام الفرنسي بوتا Botta 1860-1869 انظر فيرو، الحوليات الليبية، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي. طرابلس: الفرجاني 748/3.

(٤) E.Banse, Das Ganz Neue Tripolis. P. 354

المدينة في ظل الاحتلال الايطالي الذي كان قد مضى عليه ثلاث سنوات فهو يدين الايطاليين لأنهم لم يستطيعوا أن يحركوا الحياة في المدينة حقاً لقد نوروا المدينة، إلا أنهم أنشأوا المعسكرات في الواحة وأوقعوا الخراب فيها وقطعوا الكثير من أشجارها وأحاطوها بسور، كما يذكر الخراب الذي كان لايزال يسيطر على منطقة شارع الشط وهجرة الفلاحين من المنطقة. وهو يشير إلى هدم الايطاليين سور المدينة القديمة الجنوبي وتأسيس خمس مصانع للثلج بطاقة قدرها 2400 كغ يومياً بينما يبلغ استهلاك المدينة 800 كغ(١) ومن يقف على هذه الدراسة يستطيع أن يتبين أن بانزه يقصد من ورائها التذييل لكتابه طرابلس الذي نحن بصدده.

وفي نفس العام زار بانزه منطقة البطنان قادماً من مصر(٢) وليست لدينا تفصيلات عن ظروف هذه الرحلة ومدى علاقتها بزيارته طرابلس. إلا أنها تمت قطعاً قبيل زيارته طرابلس لأنه يعقد مقارنة بين الجفارة والبطنان في دراسته عن دواخل طرابلس التي وضعها لوصف رحلته إلى غريان(٣).

وبعد هذه الرحلة لانعلم شيئاً عن أية رحلات قام بها بانزه إلى ليبيا أو عن مشاريع في هذا الإطار. وكما أشرنا أعلاه فإن عدم تمكننا من الاطلاع على أوراقه على الرغم من الوقوف على مظانها، قد حال دون تتبع سيرة هذه الشخصية تتبعاً متسقاً. إلا أننا على ضوء ماتقدم نستطيع القول بأن بانزه ظل طوال ثماني سنوات على الأقل على علاقة مع ليبيا سعياً وراء تحقيق مشاريعه الكبرى، كما ظل يتابع الكتابة عنها على مدى عشر سنوات وهذا ماسيظهر من خلال دراستنا مؤلفاته.

---

(١) Ibid, P. 358 S qq.

(٢) E.Banse,"Die Libysche Wüste uud die Marmarika" Petermann Geogrphische Mitteilungen 62 (1916) P. 335.

(٣) Idem. Ins Innere von Tripolis. P. 46 Sp.

مؤلفات بانزه:

حقاً إن دراستنا تركزت على الفترة التي ظل خلالها بانزه على علاقة بليبيا أي على السنوات الثمانية الأولى من حياته العلمية وعلى وجه الخصوص رحلاته. ولم نولِ الاهتمام لعمله في إدارة مجلة الأرض وهو شاب في نهاية العشرينات ومطلع الثلاثين من عمره، وفي إدارة مجلة «الجغرافية الجديدة» في الفترة 1922-1926 كما أننا لم نتناول عمله أستاذاً للجغرافية في جامعة هانوفر منذ 1932 ثم في براونشفايغ[١]

إن نشاط بانزه يمكن أن يجمل في ثلاثة ميادين أساسية: الرحلات العلمية التي استغرقت نشاطه إبان زهوة شبابه، ثم إدارة المجلات العلمية الجغرافية وأخيراً التدريس الجامعي. وهذه الميادين الثلاثة تقترن بالعمل والإنتاج الفكري وقد جاء انتاجه وفيراً ولاشك، وإذا كنا نقدم هنا قائمة بمؤلفاته فإن هذه القائمة ليست كاملة إلا فيما يخص المؤلفات المتعلقة بليبيا والرحالين الألمان الذين زاروها.

في سبيل التعرف على هذه الشخصية فقد اطلعت على ما استطعت العثور عليه من مؤلفاته التي حصرتها وظل بعضها لم يقيض لي الاطلاع عليه. وهذه القائمة التي رتبتها زمنياً تضم معظم مؤلفاته في شكل كتاب:

Agypten: Eine Landeskunde .Halle 1909

جغرافية مصر:

Atalaländer. Leipzig 1910

بلاد الأطلس وقد نشره ضمن سلسلة عنوانها الشرق وهي تضم أيضاً الكتابين التاليين:

- الشرق العربي . Der Arabische Orient. Lepzig 1910
- الشرق الآري Der Arische Orient. Leipzig 1910

---

(١) Deutschs Literatur Lexikon, I, 260

وبعد سلسلة الشرق أصدر سلسلة في أربعة مجلدات بعنوان «مغامرات وأبحاث في الشرق» وهي تضم رحلاته التي قام بها خلال السنوات من 1906 حتى أواخر 1909 وشملت زيارتيه إلى ليبيا وزيارته إلى المشرق العربي وآسيا الصغرى، ولم يقيض لي الاطلاع عليها فيما عدا كتاب طرابلس الذي نحن بصدده ويمثل الجزء الأول في هذه السلسلة ونشر في 1912 ويصف محتويات المجلدات الأخرى في مقدمة كتاب طرابلس على الوجه التالي [(١)]:

- المجلد الثاني ويتضمن رحلة بانزه من ألمانيا إلى بيروت مروراً بمصر ثم حلب وأورفه وديار بكر ومنطقة طوروس الأرمنية، وملاطية وسيواس وصمصون واستانبول.

- المجلد الثالث ويضم رحلته من حيفا إلى دمشق ثم تدمر ودير الزور وبابل وكربلاء.

- المجلد الرابع وخصصه لرحلته التي تتبع فيها خط حديد بغداد ثم لزيارته آشور والموصل ونصيبين وأورفه وأضنه وطرسوس.

- كتاب الشرق Das Buch Vom Morgenland. Leipzig 1996 .

- نحن والأتراك Die Turken und wir: weimar 1917 .

- Wüsten, Palmen und Basare. Braunschweig 1921.
صحارى، نخيل وأسواق.

- معجم الجغرافية Lexikon der Geographie. Braunschweig 1923.

ss=B Forschungsreisende. München 1923. .
- مشاهير الرحالين المستكشفين.

- Unsere Gro ss=.Ben Afrikaner. Berlin 1942.
مشاهير رحالينا [الألمان] إلى أفريقيا.

- نساء الشرق Frauen des Morgenlandes .

- بلاد الأطلس في ثلاثة مجلدات Die Atlas Lander

بعد أن ذكرنا معظم كتب بانزه فإننا نشير إلى أنه نشر فيضاً من المقالات

---

(١) انظر النص أعلاه ص 9 الأصل.

في العديد من المجلات العلمية والعامة وقد حصرنا عدداً كبيراً منها أثناء تقصينا لأعماله إلا أننا سنقتصر هنا على ذكر تلك المقالات التي يتناول فيها ليبيا ونتبع فيها أيضاً الترتيب الزمني:

- 'Das Nordafrikanische Tripolis Und Seine Munschia.' In: Petermanns Geographische Mitteilungen Gotha. 54 (1908). S. 49 57: S.78-85

طرابلس الشمال الافريقي ومنشيتها.

- 'Die Tripoliner Landschaft'. In: Geographische Zeitschrift. Leipzig. 14 (1908). S. 129- 137

طبيعة منطقة طرابلس

- 'Fesan und seine Zukunft' In. Die Erde- Weimar (1913) S. 300

فزان ومستقبلها

- 'Der gegenwartige Stand der Erforschung der Lipyschen Wuste Und Tibestis'. In: Petermanns Geographische Mitteilungen. Gotha. 60 (1914). S. 137- 142: S. 193- 196: S. 261- 264

المستوى الحالي للأبحاث حول الصحراء الليبية وتبستي

'Die Libysche Wustenplatte und die Marmarika'. In Petermanns Geographische Mitteilungen. Gotha. 62 (1916). S. 333- 337

المسطح الصحراوي الليبي والبطنان

Das Ganz Neue Tripolis'. In: Deutsche Rundschau. Berlin. 173 (Okt.- Dez. 1917). S. 351- 372

مدينة طرابلس الجديدة تماماً

-' Ins Innere von Tripolis'. In: Deutsche Rundschau. Berlin. 174 (Jan. Maerz 1918). S.43- 56

في دواخل طرابلس

- Land und Leute in Tripolitanien. Stuttgart: Benziger. O.J 15 S. Texthefte Zu Bnzigers Sammlung Von Lichtbildern fur den Unterricht und fur Oeffentlichen Vortrag)

محاضرة عن منطقة طرابلس وسكانها.

كتاب طرابلس:

إن الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء بعد أن ترجمناه عن الألمانية وعانينا الكثير من الصعاب في موازنة الأسلوب خاصة وأن بانزه يكتب في غالب الأحيان بأسلوب أدبي، يعتبر وثيقة مهمة في تاريخ مدينة طرابلس الاجتماعي والاقتصادي في العقد الأول من القرن العشرين. وعلاوة على دراسته فإن بانزه يقدم لنا مدينة طرابلس من خلال مادة الصور الفوتوغرافية والرسوم التوضيحية والمخططات التي وضعها بنفسه للمدينة قبل الاحتلال الايطالي. وقد وصف كتابه أنه «شاهدة قبر طرابلس» ويعني بذلك أن هذه المدينة ذات الطابع الشرقي والتي قصدها ليتعرف على الشرق من خلالها ستفقد طابعها الشرقي إثر الاحتلال الايطالي ولذا زود كتابه بهذا العدد الكبير من المواد التوضيحية.

هذا الكتاب الذي أهداه إلى زوجته رفيقة رحلته يعبر عن طموح بانزه لتقديم عمل يركن إليه في التعرف على مدينة تناولها عدد من مشاهير الرحالين الألمان قبله، ولهذا اتبع في دراسته نهجاً مغايراً لأسلافه وقد استعمل في وصف المدينة وتطورها إلى جانب شروحه الدقيقة التي تشبه إلى حد بعيد صوراً ناطقة مرتبة إلى جانب بعضها البعض، وسائل الإيضاح وهي الصور الممتازة والرسوم التوضيحية لجميع الحرف التي وجدها أمامه ولنماذج من البيوت والمآذن والواجهات والأدوات وغير ذلك.

إذا استثنينا بعض الأحكام المستعجلة التي يقع فيها الأوربيون في فهم المجتمعات الأخرى والظواهر الشاذة التي لايخلو منها أي مجتمع والتي يتكلم عنها وكأنها من خصوصية هذا المجتمع والتي علقنا على العديد منها في موضعها، فإن هذا الكتاب يظل كما سيرى القارىء ذا أهمية لايستهان بها إذا ماأردنا أن نرجع إليه في دعم تصوراتنا حول البنية الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع المدينة والمجتمع الريفي القريب منها مثل المنشية.

لئن كان بانزه قد استطاع إلى حد بعيد أن يلم بالجوانب الاجتماعية

والاقتصادية لمجتمع المدينة إلا أنه أخفق في تقييم الأوضاع السياسية والثقافية وفي الوقت الذي لم يتعرض للنظام السياسي إلا لماماً على عكس ما فعله فون مالتسان[١]، الذي درس بنية الحكم تفصيلياً، فإنه لم يذكر عن النواحي الثقافية وهذا مايجعلنا نتساءل، هل كان فعلاً غائباً عن الجو الثقافي وخاصة في زيارته الثانية لليبيا التي أتت بعد إعلان الدستور في ذلك الوقت كانت تصدر في طرابلس ثماني جرائد منتظمة[٢]. وأخذ النقاش يتزايد فما تكاد تصدر الجريدة حتى تشاهد في كل نقاط المدينة، وحول موائد المقاهي التركية وفوق الحصر العربية في الشوارع وفي المتاجر والدكاكين جماعات جماعات تصغي إلى أخبار الجريدة وتعلق عليها[٣] أم أن المرض الذي أصابه خلال زيارته الثانية ولم يُشْفَ منه وهو في طرابلس، فاضطر إلى مغادرتها متوجهاً إلى ألمانيا، لم يسمح له بمراقبة هذه الظاهرة الهامة، أم اهتماماته الشخصية لم تشمل هذه الظاهرة التي استجدت بعد اعلان الدستور؟ إنها أسئلة يصعب الإجابة عليها.

ومما زاد في استغرابنا أنه لم يذكر على الإطلاق إحدى الشخصيات العلمية الألمانية التي كانت تعيش في طرابلس للمرة الثالثة خلال الفترة 1907-1912 وهو عالم الإفريقيات غوتلوب آدولف كراوزه الذي كان يعرف المدينة ومجتمعها في جميع جوانبه وهذا مابرز من خلال التقارير التي نشرها في الجرائد الألمانية وعلى وجه الخصوص تلك التي تشمل الفترة من صيف 1911 حتى الربع الأخير من 1912 1[٤]. هل فعلاً حال المرض دون التعرف عليه أم هناك أسباب أخرى؟

ومهما بلغت هنات هذا الكتاب فإنه حسب تقديرنا عمل مفيد ومصدر ثمين للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لطرابلس قبل الغزو الايطالي.

---

(١) Heinrich Von Maltzan, Die Regeschagten Tunis Und Tripolis. 1970, Ill

(٢) على مصطفى المصراتي. صحافة ليبيا في نصف قرن. بيروت مطابع الكشاف 1960 ص 2 ومابعدها.

(٣) خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب ١٩٧٤. ص ٢٢٧

(٤) انظر عماد الدين غانم، تقارير كراوزه الصحفية حول الغزو الايطالي لليبيا. طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 1993.

وأما مايتعلق بالنص المترجم فقد كددت نفسي وبذلت مافي وسعي كي تأتي الترجمة دقيقة يمكن للقارىء أن يستفيد منها وهو مطمئن. واستفسرت عن الأسماء المحلية ووجدت المساعدة لدى كل من قصدته بالسؤال وإنني أتوجه إلى جميع هؤلاء دون ذكر أسمائهم بالشكر والامتنان وجزاهم الله خيراً.

وفي الختام أذكر بكل اعتزاز وإقرار بالفضل الجهود التي بذلها الاخ الفاضل الدكتور نوفل علي نيوف الأستاذ بقسم اللغة الروسية بجامعة الفاتح. فقد نقح النص لغوياً وقام بتصويبات حسنت من وضع النص ووضوحه. وأشكر الأستاذ عمار جحيدر الذي تفضل بمراجعة مخطوط الكتاب وأبدى ملاحظات قيمة. كما أشكر العاملين في مكتبة مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية وقسم التصوير على ماقدموه من مساعدات.

وجل ماأرجوه أن يكون عملاً مفيداً والله من وراء القصد.

طرابلس في 1 من كانون الأول 1993

د. عماد الدين غانم

ملحق الدراسة

رسالة بانزه إلى مستشار البلاط في [1] 2

براونشفايغ 26 يناير 1911

بولڤيغ44

السيد المستشار المحترم:

بناء على رغبة الأستاذ بيتر لانغهانس في غوتا أتوجه إليكم راجياً النصح والدعم في المسألة التالية:

منذ سنوات تجول في خاطري فكرة القيام برحلة دراسية إلى الجزء الأوسط والشرقي من الصحراء الكبرى. لقد تبينت أثناء إقامتي في طرابلس لمدة سنة وثلث السنة في العام 1906-1907 ومايزيد عن نصف سنة في العام 1909 أنه كان من الأفضل عدم التوجه إلى الكفرة وتبستي في ذلك الوقت. ونتيجة لهذا الوضع فقد قمت في تلك الأثناء برحلات في المنطقة الشمالية من طرابلس الغرب، وفي مصر والشام وبلاد مابين النهرين وجنوب غرب أرمينية وآسيا الصغرى. قبل فترة قصيرة تلقيت رسائل من أصدقاء يقطنون طرابلس وبنغازي يبلغونني فيها أن الوالي المقيم في بنغازي - يقال أنه يتكلم الألمانية - لايمانع في أن أقوم برحلة إلى أوجلة ومن هناك إلى الكفرة لابل فإنه سيدعم ذلك بقوة. لقد أعلن هو وكذلك عدد من كبار التجار المسلمين في بنغازي أنه من الممكن حالياً أن يتوغل أوربي من الكفرة إلى تبستي وأن يكتب النجاح لرحلته لأن نشاط السنوسيين يتركز الآن بأكمله في مناطق بحيرة تشاد ووداي.

لهذا السبب فقد رأيت الاستفادة من الظروف الحالية المناسبة تماماً فأنظم رحلة دراسية انطلاقاً من بنغازي عبر أوجلة إلى تبستي (بالطبع لايمكن التحدث

---

(١) محفوظة لدى مكتبة الدولة البروسية ببرلين رقم Darmst 3227
Bibliothek Zu Berlin, Preupischer Kulturbesitz. Darmstadter Afrika

الآن عن طريق العودة).

وإنني أقدر الفترة بحوالي ستة أشهر والتكاليف بحوالي 6000 مارك وقلما ستزيد التكاليف عن هذا المبلغ نظراً لأنني أعرف جيداً طريقة السفر في الشرق كما أنني أمتلك ناصية اللغة العربية. ويمكنني شخصياً أن أوفر 2000 -2500 مارك لهذا الغرض أي أنني أحتاج إلى 3500-4000 مارك.

ليس من الضروري أن أنوه بالقيمة الجغرافية لطريق الرحلة، إلا أنني أريد أن أضيف أنني أتوخى في الدرجة الأولى القيام برسم الطرق بعناية وتحديد درجات العرض ورسم مقاطع جيولوجية وجمع نباتات (لقد درست في برلين وهاله خلال الفترة 1902-1906 الجغرافية والجيولوجيا، كما درست فرعين ثانويتين هما النبات «على الأستاذ كلبس» وعلم الحيوان) إنني متوفر على التجهيزات الفنية (فيما عدا مقياس ميل الزوايا «تيودوليت») وعلى الإعداد العلمي والعملي أيضاً بفضل الرحلات السابقة.

إنني أرمي من طلبي ـ سيادة المستشار ـ أن تزودوني بنصيحتكم بشأن الجهة التي أستطيع أن أحصل منها على المبلغ الذي ينقصني. لعلى أستطيع الحصول عليه من الجمعية الجغرافية؟

لئن كانت ميزانية مؤسسة كارل ريتر قد استنفدت لهذا العام، لعله يمكن تغطية ذلك من المخصصات الاستثنائية وربما يبرر ذلك بالظروف المناسبة لآفاق الرحلة.

لقد أكد لي الأستاذ لانغهانس دعمه الأقصى. كما أنني كتبت إلى الأستاذ غيسفلدت والأستاذ غيورغ سفينفورت. فهل لي أن أحصل على دعم من جانبكم؟ أو هل ربما تعرفون نوعاً آخر من الدعم، مثل صديق ثري أو مجموعة من الأصدقاء الأثرياء من مجندي الجغرافية، مثل المخصصات الامبرطورية؟ وفي كل الأحوال ستجدون مخرجاً سليماً.

مع فائق الاحترام

المخلص إفالد بانزه

صورة الصفحة الأولى من رسالة بانزه

Braunschweig. 26. Jan. 1911.
Bohlweg 44.

Sehr verehrter Herr Hofrat, auf den Wunsch von Prof. P. Langhans = Gotha wende ich mich an Sie zum Rat und Unterstützung in folgender Angelegenheit.

Schon seit Jahren beschäftigt mich der Gedanke einer Forschungsreise in der mittleren und östlichen Schara. Ein 1/3 jähriger Aufenthalt 1906/7 und ein über 1/2 jähriger 1909 in Tripolis lehrten mich aber dass damals ein Eindringen gegen Kufra und Tibesti hin unrätlich war. ich reiste deshalb nur im nördlichen Tripolitanien, in Ägypten, Syrien, Mesopotamien, SW = Armenien und Kleinasien. Kürzlich nun erhielt ich Briefe von in Tripolis und Benghasi ansässigen Freunden, die mir mitteilten, dass der in Benghasi residierende Wâli der deutsch sprechen soll, einer Reise meinerseits nach Audschila und von dort nach

صورة الصفحة الأخيرة من رسالة بانزه ويظهر فيها توقيعه

Falls das diesjährige Büdget der Karl Ritter - Stiftung
schon vergeben ist, vielleicht als aüsserordentliche
Züwendüng, was die günstige Konstellation der Reise-
chancen vielleicht rechtfertigen würde. Prof. Lang-
haus hat mir seine kräftigste Unterstützung züge-
sagt; ebenfalls habe ich an Prof. P. Güssfeldt und
Prof. G. Schweinfurth geschrieben; wenn ich auch
von Ihnen Unterstützung erhalten könnte? Oder
Sie wissen möglicherweise eine andere Art der Un-
terstützung, etwa einen oder eine Gruppe von reichen
Freunden der Erdkunde, den Kaiserl. Dispositionsfonds
etc.? Jedenfalls werden Sie schon einen guten Aus-
weg finden.

In vorzüglicher Hochachtung

sehr ergeben

Ewald Banse.

نص ترجمة كتاب
مدينة طرابلس

تأليف: إفالد بانزه

تقديم المؤلف

إن كل تقديم هو أداة يمكن أن تكون تعريفاً أو تنكيراً مثلها مثل مضمون الكتاب الذي يليها. والرحلات الوارد وصفها في مجموعة «مغامرات وأبحاث في الشرق» تتوجه إلى الأوساط العريضة من القراء لتكون دليلهم إلى عالم الشرق الغريب عنا.

وفي هذا الإطار يقوم المجلد الأول «طرابلس» بعرض حياة الشرق على ضوء مثال أصبح بالمصادفة بالغ الحساسية الآن[1]. أما المجلدات الثلاثة التي تليه فإنها تصف مناطق طبيعية مختلفة من تلك البلاد الجنوبية، وهي تتابع نموذج العرض الوارد في المجلد الأول من خلال إبراز أوجه التباين.

إن الزميل المختص في الجغرافيا لن يعدم الفائدة وهو يمر بهذه الأوراق المكتظة بأشجار النخيل والزيتون، ذلك أنني أركز بصفة خاصة على إبراز طبيعة الشرق، ولذا أجدني معنياً بالتفحص الدقيق لمزايا كل منطقة بمفردها، الأمر الذي يسمح باستكشاف السكان استكشافاً واضحاً.

فلكي تتاح إمكانية التحليل والتركيب لابد من النظر إلى تلك المناطق الشرقية النائية على أنها تشكل مجموعة تجاه محيطها، وأستميح العذر لأعلن أنه لم يسبقني أحد إلى هذه النظرة، وألجأ في ذلك إلى استعمال الوسائل الجغرافية الحديثة. إن مايهمني في هذا المجال هو أن أقترح صورة إجمالية تبرز كل مايوجد في منطقة بعينها. وهذا مايعد تشييداً لجغرافية الرحلات الحديثة، ويرمي إلى إحياء كتب الرحالين الكلاسيكيين بمتابعة الطرق التي سلكتها.

يمثل الجزء الخاص بطرابلس مدخلاً إلى المؤلَّف العام ويتوخى رسم طبيعة مدينة طرابلس وحضارتها ـ بما في ذلك المنطقة المحيطة بها ـ كما كانت عليه قبل الاحتلال الإيطالي، عندما كان الطابع الشرقي هو المهيمن فيها إلى حد

(١) صدر الكتاب في العام 1912 أي في الفترة التي كانت أخبار الغزو الايطالي لليبيا تشكل الخبر المسيطر في الصحافة العالمية.

كبير، إلا أن هذه الصورة قد تحطمت دون رجعة منذ خريف 1911 ، لأنه إذا ماقيض للراية ذات الهلال الأحمر على الأرضية الحمراء القانية (١) أن تخفق ذات يوم فوق أسوارها المفرضة، فإنّ المدينة ستكون قد تغيرت تماماً. أما إذا تمكن الإيطاليون من التمسك بها، فإنها ستخضع لتغيرات جذرية.

لذلك فإن كتابي يمثل شاهد قبر لطرابلس بوصفها المدينة الشرقية القديمة، التابعة للعثمانيين، كما شاهدتها يوماً، ولن يكون بوسع أحد أن يشاهد ذلك اليوم. لم أضع الكتاب في الشكل العلمي الصارم الذي درجت عليه الدراسات الجغرافية، وإلا انحصر قراؤه في دائرة عدد قليل عندئذٍ، لقد اخترت أن يكون ظاهرياً معقولاً وأن يقسم داخلياً إلى جولات منظمة في المنطقة سيراً على الأقدام أو ركوباً على الجياد. وقد حرصت في وصف هذه الجولات على أن تأخذ كل كلمة موضعها، آملاً أن لاتكون ثمة عموميات. وينبغي النظر إلى هذا العرض بوصفه من وجهة نظر جغرافية، وحتى عندما أبرز أموراً غير ذات شأن فإنها تكون أموراً ذات حساسية في الشرق أو طرابلس.

لقد اتبعت في كتابة الأسماء طريقة اللفظ الألماني... وإذا ماكتبت كلمة بصورة مغايرة في بعض المواضع فإن ذلك لايعني وقوعي في خطأ بل يشير إلى سعيي لإظهار التباين في النطق الشرقي لتلك الكلمات.

ويجدر النظر إلى مجلدات مجموعة «مغامرات وأبحاث في الشرق» على أنها كتب مستقل بعضها عن بعضها الآخر تماماً بحيث لايتطلب فهم أحدها الرجوع إلى الأجزاء الأخرى، وإني لأعبّر عن شكري العميق للناشر السيد الدكتور هرمان كيلرمان على تنسيقه الكتاب تنسيقاً حسناً وعلى ماأبداه من تفهم لأفكاري الشرقية.

كوازينغ قرب ليبزيغ مايو 1911

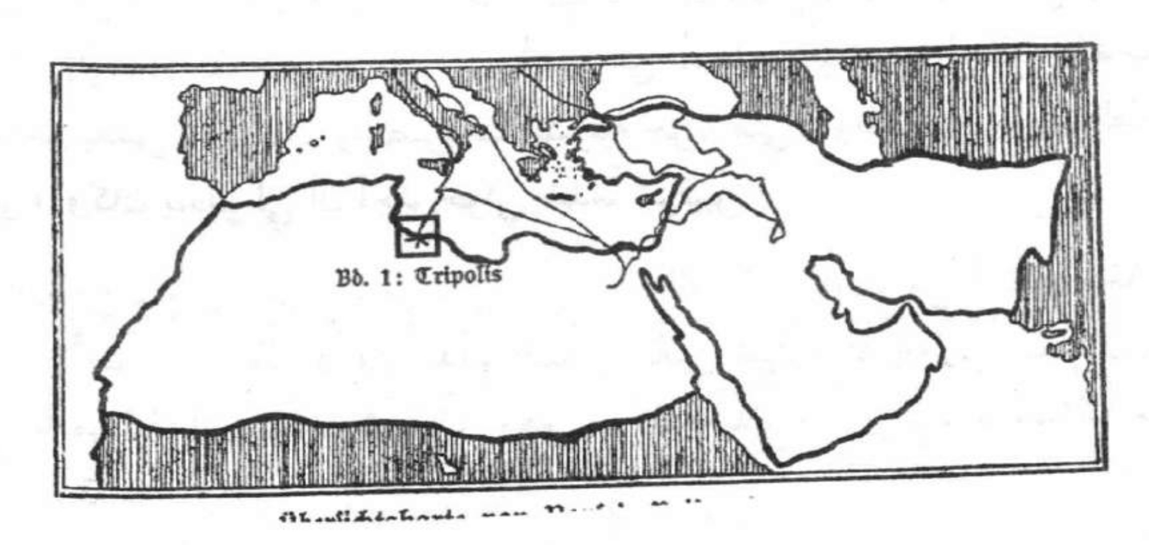
إڤالد بانزه

---

(١) يقصد بذلك راية الدولة العثمانية.

قاعة الدخول إلى الشرق

إنني من طبقة غير قليلة من الناس الذين كانوا يتوقدون شوقاً لمعرفة البلدان الأجنبية، إلا أنني أتميز عن غالبيتهم بعدم التواني عن استعمال جميع الوسائل لتحقيق تلك المعرفة. وقد أطفأت لظى هذا الشوق بأن أمضيت حوالي ثلاث سنوات في رحلات عبر الشرق، ولايعود ذلك إلى مايزعمه بعضهم من ميل جرماني قديم للرحلة، بل إلى القراءات في سن الشباب وماتخلفه من آثار، وبهذا الاعتراف أرجو أن أرتبط مع القارىء بالعلاقة المرغوبة، إذ إن «مجموعة مغامرات وأبحاث في الشرق» أيها القارىء والمشتري المحترم، هي تحقيق لأحلامك وأحلامي وأشواقك وأشواقي.



خريطة تبين رحلات بانزه

لقد اشتريت كثيراً من كتب الرحلات حول أفريقيا وهي تشكل مصادري ومراجعي، وقد تعلمت منها أنه في سبيل تحقيق رحلات ناجحة يكون من الضروري أن تتوفر إلى جانب المعلومات الجغرافية معارف أخرى. ولهذا

الغرض درست مدة ثلاث سنوات في برلين وهاله كلاً من الجغرافيا والجيولوجيا وعلم الحيوان وعلم النبات. وبعد التجوال في البلاد التزمت قدر الإمكان بالتعرف على المجهول، ومايمكن الوصول إليه دون نفقات باهظة، فإذا مارسم المرء دائرة على الخريطة مركزها برلين ومقدار نصف قطرها 2000 كم، فإن طرابلس الغرب تعتبر المنطقة الوحيدة التي لم تنلِ حظها من الدراسة ضمن هذه الدائرة. ولذلك اخترت طرابلس كي تكون مدخلاً للتعرف على الشرق وأختارها هنا ثانية من أجل نقل القارىء إلى عالم الشرق العجيب.

في طرابلس التي لم يعرف اسمها وموقعها في ١٩٠٦ سوى قليل من الناس، وأصبحت الآن على كل لسان، في طرابلس هذه حاولت أن أدخل إلى عالم الشرق الغريب عنا.

بذلت قصارى جهدي في تعلم العربية، والمختصون بالساميات وحدهم يجب أن يعانوا من مصاعب الكتابة، إلا أن الغالبية العظمى من المستشرقين (على الأقل 90 ٪) جهلة يتعذر إصلاحهم. وفيما عدا ذلك سعيت أن أبعد الطابع الأوربي عني وأن أتعلم طريقة التفكير الشرقية وأتحسس مشاعر الشرقيين وأخيراً توصلت إلى درجة التعود على أن أعبر عن أفكاري ببعض الجمل العربية، وأصبحت بعض الحركات والتصرفات الشرقية جزءاً مني، وطاب لي مذاق الطعام الشرقي، وكان يحلو لي أن أجد حولي خدماً شرقيين.

إن من نام في خيمة شعرٍ سوداء وتناول الجبنة البيضاء من أصابع مخضبة بالحنّاء الأحمر، يعرف أن مثل هذه المقدرة تعني شيئاً، إذ إنه من المحال من يكتفي بالمراقبة أن ينقلب شرقياً، وهو أمر لايحبذه من يرغب بالحفاظ على وضعه وترفعه.

بعد مضي عام تعلمت آداب تناول الرز من قصعة جماعية، وأن على المرء أن يومىء للشخص إذا مارغب في أن يقترب هذا الشخص منه، ثم قررت أن أعمم معلوماتي التي حصلت عليها في طرابلس على الشرق وأن أقوم برحلة إلى الجزء الآسيوي من الشرق. ولذلك توجهت 1907 من لينز إلى الشام عبر مصر، حيث ركبت القطار من بيروت قاصداً حلب، ثم تابعت طريقي على البغل عبر

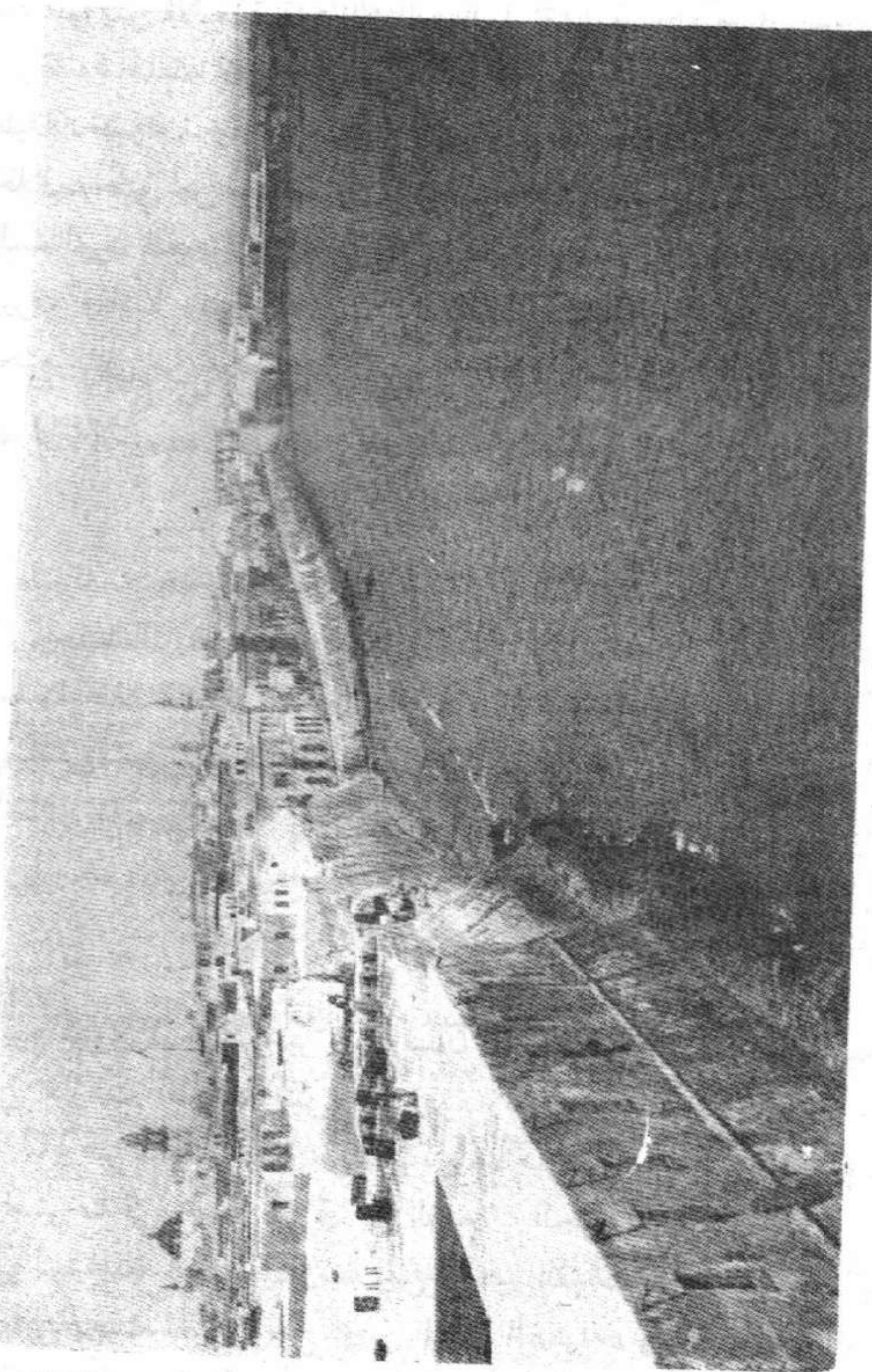
أورفه إلى ديار بكر مدينة البازلت الداكن الواقعة في أعالي دجلة. ومن هناك دخلت منطقة طوروس الأرمنية ذات الشعاب الملونة، ومررت بجوار بحيرة غولد شيك المعزولة وشاهدت خربوط التي اتخذت شكل حصن، ثم تجولت في جنائن ملاطية الخضراء. وفي هضاب كابادوكيا خلفت ورائي القبائل الكردية العنيفة. وخلال رحلتي من سيواس إلى صمصون على البحر الأسود كان فلاحو الأناضول المسالمون المجدون يسودون المنطقة. وقد نزلنا في خانات طوقات وآمازيا الكبيرة، وقادتنا وديان الغابات الناجمة عن السواقي إلى البحر الأسود. وسنختتم الجزء الثاني من مجموعتنا بإلقاء نظرة على استانبول وعلى أبراج مدينة القرن الذهبي وسروها.

وخلال رحلتنا الثالثة في ١٩٠٨ ومجلدنا الثالث سنعود ثانية إلى ساحل الشام، إلى مدينة حيفا عند أقدام جبل الكرمل، فقد سافرت إلى دمشق في قطار الحجاز الذي أنشىء من تبرعات المسلمين، إن دمشق هي مدينة الأزهار والمياه المتدفقة والأسواق والسجاد.

وذات يوم شتوي توجهت عبر جبال لبنان الشرقية الجرداء والبادية الصخرية إلى تدمر التي مازالت أطلالها تنبىء عن قوة زنوبيا عدوة روما. وبعد رحلة استغرقت ستة أيام عبر منطقة خالية من المياه بلغنا مدينة الفرات الرمادية الصغيرة دير الزور، واسترحنا في حمام مغرق في القدم. والجزء الثاني من الرحلة فتح المجال أمامي لمشاهدة الجزء الأوسط من وادي الفرات الذي تزحف البادية نحوه من الجهتين بحيث تعيق توسع فرص الحياة الضئيلة، وتقدم خاتمة المجلد الثالث وصفاً لزيارة آثار بابل التي أزاح عنها العلماء الألمان كفنها الذي ظل يلفها آلاف السنوات كما زرت مدينة كربلاء التي تستقبل حجيجاً، ولم نستطع أن نتجنب وطأة التعصب إلا في ظل حماية اثني عشر رجلاً من المسلحين.

مئذنة جامع قرجي

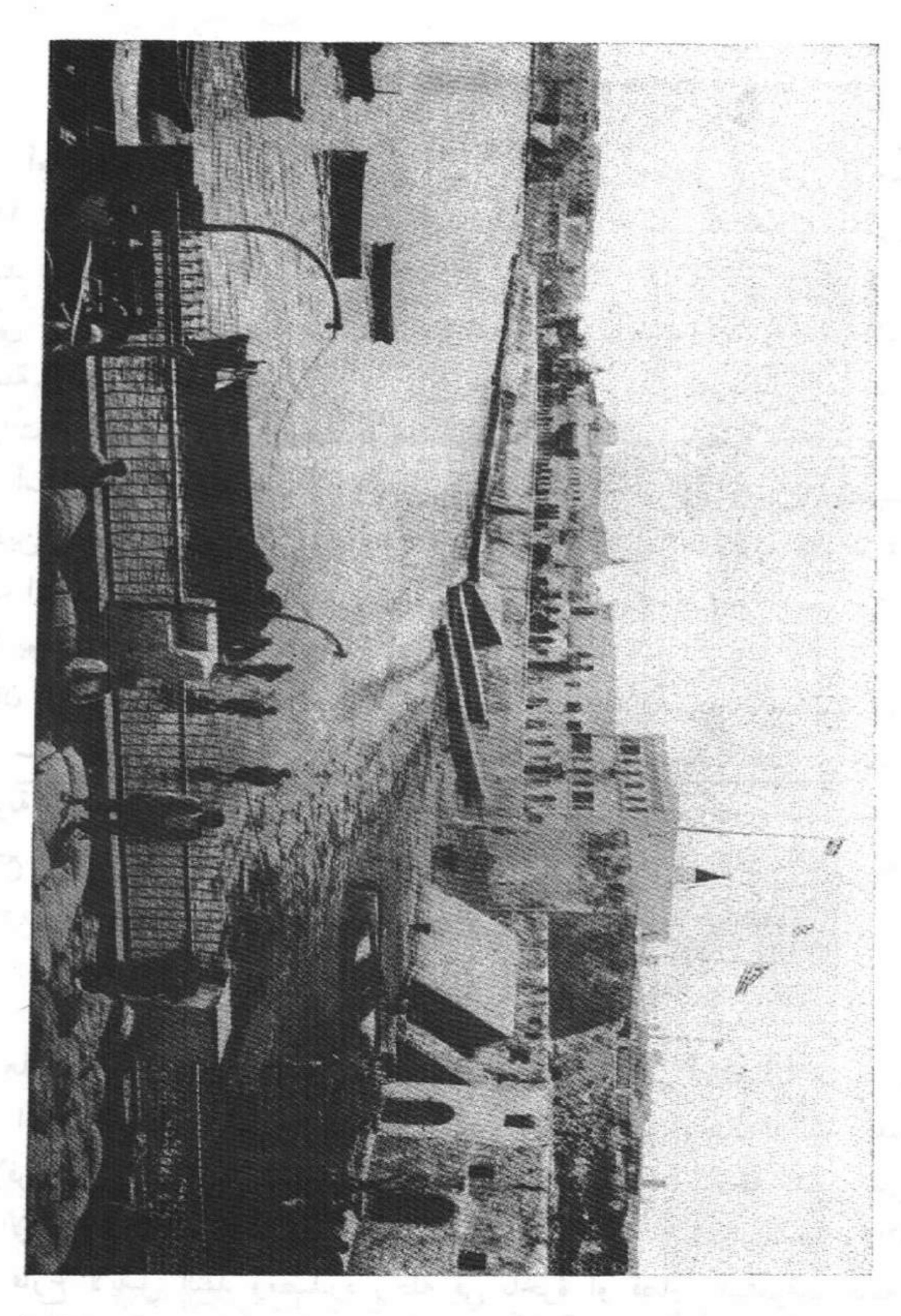
مئذنة جامع الزيتون



اللوحة 1-1 طرابلس: كما تبدو من الزاوية الشمالية للسراي باتجاه الشمال الغربي على جهة الميناء إلى اليسار الكاتدرئية الكاثوليكية، يميناً الجمارك

أما المجلد الرابع والأخير من المجموعة فقد خصص لرحلتي الأخيرة ١٩٠٨ إلى الشرق الآسيوي ولتتبع خط حديد بغداد، وعلى يد الخليفة هارون الرشيد نتجول في مدينة الأساطير بغداد الرائعة، لقد تعرفنا على وادي دجلة شمالي مدينة الخلفاء، وألقينا نظرة من قلعة آشور القديمة على عالم آشور القديمة. كما شاهدنا الموصل وهي المدينة الثانية التي نعرضها من خلال حكايات «ألف ليلة وليلة» وأمضينا عدة ساعات على سور نينوى الأصغر، ثم سرنا أسبوعاً عبر بادية خضراء يتحارب فيها عرب وأكراد، ومررنا بنصيبين وماردين ومدينة أورفة الصليبية وشعاب غور دار وجبال الهراطقة، ثم وصلنا عبر غابات الأمانوس إلى حقول القطن الكيليكية، حيث تقع أضنه وطرسوس موضع ولادة بولس الرسول. وبعد أن اجتزنا غابات أرز طوروس كيليكيا وصلنا إلى أحضان الواقع العصري، إذ كانت في ذلك الوقت تنفجر أصابع الديناميت لشق طريق سكة حديد بغداد. وفي أرغلي، النهاية الأناضولية لخط الحديد، جلسنا في عربة مريحة ومررنا عبر مدن جميلة باتجاه البوسفور واستانبول، وهناك شرعنا نسترجع أفكارنا لنستعرض جميع أجزاء الطريق الذي عبرناه من الخليج حتى بحر مرمرة، ونتساءل عما إذا كان هذا الخط سيلبي جميع التوقعات المنشودة.

هذه هي المراحل الأساسية للطرق الرئيسية التي يفترض أن تقودنا عبر عالم الشرق العجيب، وستطلعنا على مدن وقرى وبلدان وأناس وجبال وأنهار قلّما قُدّر لإفرنجي أن يراها، هناك ترتفع ذرى المآذن الخضراء شامخة تشهد على سيادة الإسلام دونما منازع، إنني لاأقدم للقارىء دستة من بضاعة سياحية وكلام خيالي فارغ لايقبل النقد ومصدره رحلة في باخرة أو قطار استغرقت بضعة أسابيع، ولكنني أقطف من ثمار شجرة خبرة عمرها سنوات، لقد امتلأت السلة الأولى بهذه الثمار، وهاهو مجلد «طرابلس» مدخل إلى عالم الشرق.



اللوحة 1-2 طرابلس كما تبدو من الجمارك باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، عبر شارع البحر. في اليسار ١ـ مئذنة جامع الباشا ٢ـ جامع سوق الترك ٣ ـ جامع الزيتون.

إن الحديث عن الشرق يملأ الآن الصفحات الأولى من جرائدنا وعلى الرغم من ذلك فإن المفاهيم الإفرنجية عنه مازالت غامضة، إلا أن من يريد أن يفهم التقارير عن ميادين الحرب في المغرب وطرابلس وبرقة واليمن وفارس وجنوب الصحراء، ومن يريد أن يفهم ثورات المسلمين في الجزائر وتونس وسورية، ومذابح المسيحيين في آسيا الصغرى وأرمينيا، ومن يريد أن يفهم بناء السكك الحديدية في الصحراء نحو مكة أو عبر بلاد الجنة القديمة، ومن يريد أن يفهم هذه الأحداث المتجددة يومياً في الشرق المترامي الأطراف يجدر به أن يفهم طابع الشرق ومانيجم عنه من امتداد للشرق.

إن الخريطة المرفقة بالكتاب تبين لنا حيز الشرق، كما يظهر من خلال الميزات التي تميزه عن العالم. جفاف زائد وقلة أمطار ، تداخل بين الربيع وحرارة الصيف وهو مايؤثر في نمو عالم النبات، كما أن القشرة السطحية لأراضي الشرق وهي في معظمها (51%) ذات تشكيلات أقرب إلى البادية، أما الباقي فهو يتشكل في معظمه من صحراء قاحلة (41%) ، وبذلك فإن الحضارة الإنسانية محصورة في حيز يعادل (8%) تشغل الغابات والأحراش نصفها، وهذا مايوضح مدى ضآلة الإمكانيات المحلية لظهور الزراعة وتطورها ومن جهة أخرى فإن شدة الحرارة تولد في جسم الإنسان قدراً من الخمول يختلف من فرد إلى آخر أما في المناخ المعتدل فيظهر الخمول كحالات إفرادية، لأن أبناء هذا المناخ يحتاجون إلى شيء من الحركة كي لايشعروا بالبرد الزائد. وعلى العكس من ذلك فإن مناخ الشرق الجاف يزيد من حرارة الجسم، فتتجاوز الحد العادي دائماً، يضاف إلى ذلك إن الزراعة التي هي الأساس في كل حضارة، تتطلب في مختلف أنحاء الشرق الجاف جهوداً أكبر مما في بلادنا (ألمانيا)، لأن كل أرض تقريباً تحتاج إلى سقاية.

إن على الفلاح الشرقي أن يبذل ضعف (حوالي 100%) مايبذله فلاحنا (الألماني) من جهد ووقت، كما أن سحب المياه طوال ليالي الصيف لايسمح له بالخلود إلى النوم وهذا يؤدي أيضاً إلى التأثير على البقية الباقية من النشاط

الذهني الذي تخلفه الحرارة والجفاف.

ولهذا فإن الخمول في الشرق ظاهرة عامة، وليس ظاهرة فردية، كما هو الحال في وسط أوربا. بل إن من يعمل بدافع الرغبة الذاتية في العمل يشكل استثناء مناقضاً لما هو عليه الحال لأنه يتنافى والمناخ. وإن التصور السائد عن نموذج الإنسان الشرقي يمثله شخصاً يجلس متربعاً وأمامه نرجيلة، إنه نموذج الراحة والدعة، ومع فقاعات ماء النرجيلة تنساب جميع حكايات الشرق. هناك يجلس منهمكاً بالتأمل، وبهدوء الرماد الأبيض الذي أخذ يعلو الجمر[1]...

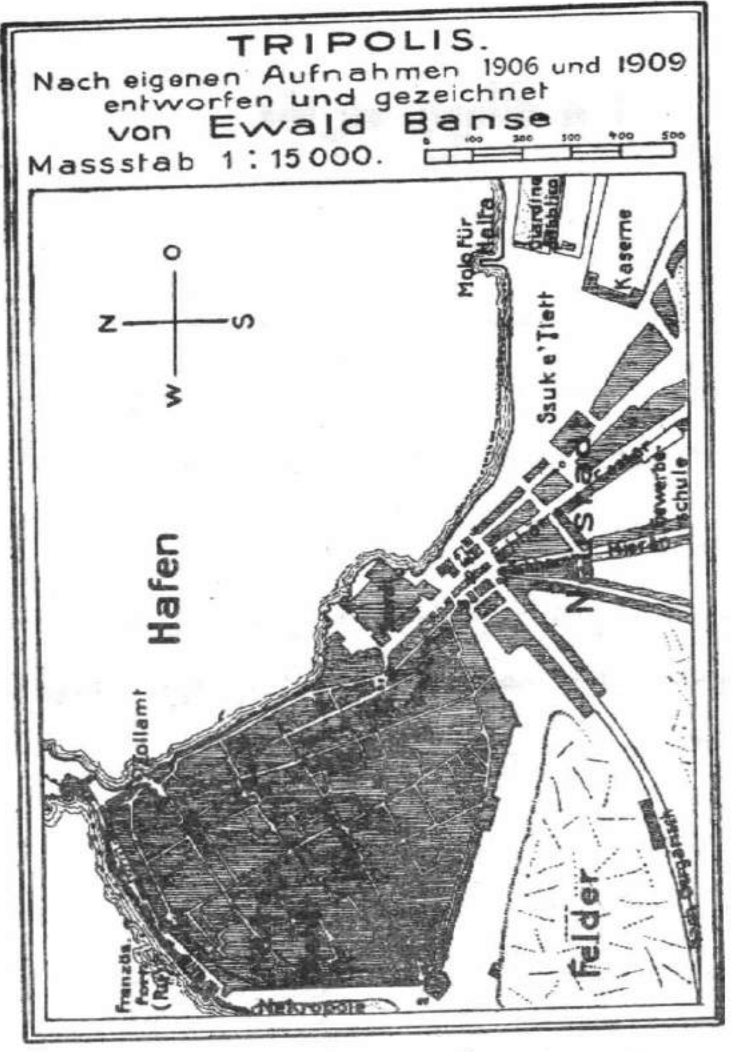
[إن هذه الشخصية] لايمكن فهمها إلا من خلال دراسة الطبيعة الشرقية ولذلك فإن الجغرافي هو أفضل من يرشد إلى سمات بلاد الشرق.

إنني أحيل من يهتم بالشرق وبلدانه إلى كتيباتي الثلاثة التي تدرس هذه المسائل لأول مرة، وهي: «الشرق»، «الشرق العربي»، «الشرق الآري»، وقد صدرت جميعها ضمن سلسلة عنوانها «عن الطبيعة والعالم الفكري» في ليبزيغ ١٩١٠ لدى الناشر تويبنر.

---

(١) يورد المؤلف هنا بعض الأفكار الخاطئة حول القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام وقد رأينا حذفها نظراً لأنها لاتنسجم مع الحقائق العلمية (م).

طرابلس:



بيانات لمخطط مدينة طرابلس أعده المؤلف بانزه حسب صور التقطها بنفسه 1906-1909.

القياس 1 :15000

١ ـ شارع باب البحر
2 ـ باب الحديد
3 ـ باب المنشية
4 ـ فم الباب
5 ـ جامع الباشا
6 ـ شارع صاغة الفضة
7 ـ الأسواق المسقوفة
8 ـ الساعة
9 ـ الكنيسة
10 ـ الميدان (وسعاية)
11 ـ جامع قرجي
12 ـ القنصلية الإنجليزية
13 ـ الفنار
14 ـ المقبرة الكاثوليكية
15 ـ المقبرة الأرثوذكسية
16 ـ قوس النصر الروماني
17 ـ القنصلية الفرنسية
18 ـ القنصلية الايطالية
19 ـ جامع الزيتون
20 ـ سوق الخبزه
21 ـ نادي الضباط
22 ـ البلدية
23 ـ جامع سوق الترك
24 ـ الحنفيات العامة الممدودة من بئر بومليانة

1 ـ خليج سرت

إذا ماغابت أكوام بيوت مالطا وراء البحر فإن الباخرة تسير في طريق مستقيم قاصدة خليج سرت، إن وضعه عجيب، وعلى الرغم من الفتحة البحرية الواسعة فهو يحافظ على طابع الخليج ولما كان هذا الطابع غير كامل فإنه يتعرض إلى حركة رياح ملموسة وتشكل عنصراً غير محبب [للملاحة].

في أيام الصيف الجميلة تتهادى مياه الخليج الزرقاء الغامقة بريئة لماعة مثل خيوط الحرير، وما إن تلامس الباخرة الماء حتى يعلو زبده وكأنه يداعبها بأيد ناعمة، ويمتد خليج سرت منتفخاً مصقولاً مثل الكوبرا في مربضها تتردد أنفاسها برقة شديدة ويتلألأ وراءها شبك فضي.

حين يبلغ ميزان الضغط أقصاه فوق المحيط شتاء مقترباً من خط الإستواء، عندئذ يجدر بك أن تشاهد خليج سرت، وهو أخضر مثل المحيط المتجمد، يختطف جداراً من الأمواج تلو الآخر، فيما تتوه جزر الزبد وكأنها سكرى في منحنيات الماء الخضراء لاتعرف مصيرها إلى أين.

تتميز سرت بطابع بالغ الخصوصية تحت وطأة الرياح الجنوبية (القبلي) وبفعل السخونة المكثفة تتشكل فوق البحر المتوسط منطقة من الضغط المنخفض تسهّل خلال هذا الفصل من العام انسياب هواء الصحراء الحار نحو الشمال مصحوباً بدرجات حرارة عالية لاتقل عن تلك التي تظهر في فصل الصيف. ويكتظّ الجو برمال قادمة من الصحارى البعيدة فتضفي على الأفق لوناً بنفسجياً كابياً، بينما تقبع الشمس وراء كتلة الغبار مثل قطعة نقد من النيكل. ويتراءى سطح البحر ثقيلاً مثل الرصاص ولاتصدر عنه نأمة، على الرغم من حركة الرياح المستمرة.

طرابلس من البحر

في 29 فبراير لعام 1906 ، عام انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء ومع انبلاج ضوء الصباح أسرعت إلى ظهر الباخرة الندي لأبصر الشاطىء الأفريقي لأول

مرة.

من بعيد يبرز من خلال أشعة الشمس الوردية شاطىء منخفض ذو جدران بنية مائلة إلى الحمرة تعلوها غابة خضراء من النخيل تبرز منها بيوت بيضاء وأعمدة السواني (انظر اللوحة السادسة الشكل 4) وفي نهاية الشريط تظهر أبنية مكبس الحلفاء الرمادية اللون وضاحية الظهرة متعددة الألوان، وهي هضبة تقع في سفحها أشجار الحديقة العامة السقيمة والثكنة الصفراء قرب الحقل الرملي حيث يقوم سوق الثلاثاء، وتمتد وراءه أبنية المدينة الجديدة الطويلة.

هنا تبدأ مدينة طرابلس القديمة. إن المدينة الشرقية الجنوبية تختلف عن المدينة الشرقية الشمالية أكثر من اختلاف المدينة الأوروبية الجنوبية عن المدينة في وسط أوروبا. ففي الشمال أسطحة من الآجر الأحمر وبساتين خضراء وهضاب أما في الجنوب فالأرض جرداء. وتتناثر هنا وهناك أشجار نخيل وأسطحة بيضاء مستوية. ولما كان المناخ قليل الأمطار، فإن المرء لايحتاج لإقامة أبنية ذات أسطحة آجرية مكلفة وصعبة، بل يكتفى بأسطحة مستوية على شكل مصاطب تستخدم في الوقت نفسه في استقبال ماء المطر الذي يجمع للشرب. وهذه الأسطحة المستوية تشكل طابع المدينة الشرقية الجنوبية الهادىء (انظر اللوحة الثانية الشكل 2) وهي تتلاءم مع صورة الطبيعة البسيطة وقلّما تتميز عنها، وتخفف إلى جانب المآذن والقباب من وطأة شكل الرتابة.

إن طرابلس تنتمي إلى هذا الطراز من المدن، فأمام سوق الثلاثاء يقوم سور ارتفاعه 14 متراً يطوّق بفرضاته وكواته مبنى السراي المتعرج، تلك التي تمتد هيبتها منذ السيطرة الاسبانية حتى عهدنا. ويقوم بين جدارها الشمالي وحوض المرفأ شارع مكشوف تطل عليه من جانب واحد شرفات وفرندات أفخم البيوت (انظر اللوحة الأولى الشكل 1 - 2) وتتداخل عند واجهة المدينة مصاطب مختلفة الارتفاعات وجدران متباينة المناظر، ويكشف هذا التداخل عن ألوان واجهات تتدرج بين فاتحة وغامقة. ومن خلالها تتعالى أبراج ستة من بيوت العبادة خضراء اللون تشبه مواشير زجاجية بيضاء توحي وكأنها تحتج جهراً ضد القباب المدهونة بالأحمر وبرج الكاتدرائية الكاثوليكية. وتمتد المدينة صعداً في

الليل باتجاه الشمال فتبلغ نهايتها عند برج الفنار القصير. ومن هناك تبدأ سلسلة شعاب (انظر اللوحة السادسة الشكل 3) يقع في مستهلها الحصن الاسباني الذي لم يستطع أن يقاوم نيران مدفعية البوارج الإيطالية سوى ساعات قليلة.

2- واحد وعشرون شهراً في طرابلس وضواحيها

بعدما خلفنا الجمرك ومايتبعه من تحري جواز السفر، سلكنا طريق باب البحر سابقاً إلى داخل المدينة، وماإن وجهت نظري للتفرج على أول جمل صادفني حتى تعثرت قدمي بنتوء في الأرض، فصرخ حمال أغراضي معبراً عن فرحه وقد علمت فيما بعد، أنه قد طمر هناك مسمار ضخم قديم جداً، إذا مامسه الغريب فإنه يعتريه شوق يجعله يعود ثانية إلى مدينة خليج سرت، وبالفعل فقد عدت مرة ثانية إلى طرابلس في 1909 [١]

لقد نزلنا في الفندق الأقل سوءاً وهي لوكندة مينرفا، حيث أمضينا الأيام العشرة الأولى ريثما نستأجر بيتاً. وبعد ثلاث سنوات لم يستغرق تأمين بيت للايجار سوى نصف يوم. وقد سكنت في بيت بمساعدة تشيكي يدعى ريشارد شتورخ[٢] وهو أشقر الشعر وأزرق العينين كان يقرأ جريدة نارودني بولتيكا (السياسة الشعبية) كما ساعدني يهودي من أبناء البلد ينحدر من أصل ألماني، والبيت صغير مؤثث يتألف من ثلاث حجرات ومطبخ وأجره ثلاثون فرنكاً شهرياً. وأما الخدمة في البيت فكانت تقوم بها بعض فتيات يهوديات، إلا أنهن يتصفن بالخمول والوقاحة والنزوع إلى السرقة ولم يحل دون ذلك سوى حضوري إلى البيت مراراً على حين غرة ولم يتحقق الطمأنينة والهدوء في البيت إلا بعد أن أحضرنا فزانياً أسمر ليتولى الخدمة وهي شأن هام في تدبير المنزل.

لقد سكنا مدة نصف سنة في المدينة بالقرب من مسجد صغير، ثلاثة يهود

---

(١) بل عاد للمرة الثالثة 1914 أي بعد صدور كتابه بعامين (انظر الدراسة) أعلاه. ص 29 ومابعدها

(٢) إنني أتذكره على نحو خاص من بين جميع معارفي في طرابلس، فقد قدم لي كثيراً من الخدمات المخلصة، ونتيجة لمكوثه في الشرق فترة تزيد عن إثني عشر عاماً كان يعتبر ذا خبرة ممتازة في بلدان الشرق. وهو يقوم حالياً برحلات صيد إلى السودان المصري، وإنني مدين له بالفضل بعدد من الصور الواردة في هذا المجلد.

وآسرتان من الفقراء السود، وقد جرحت حشمتهم الإسلامية في البداية بصورة مزعجة، عندما صعدت السطح ونظرت إلى فناء البيوت المجاورة. بعد فترة قصيرة تعودنا على أسلوب الحياة في طرابلس، وإن كان ذلك لم يتحقق دون تجارب.

إن القهوة الشرقية ليست جاهزة للاستهلاك الزائد كما هو الأمر لدينا، لأنها تسبب اضطراباً سيئاً في نظام الأعصاب والهضم. ولذلك تعودنا في الصباح أن نشرب الشاي. ففي المساء يتناول الشرقي وأهالي جنوب أوروبا الطعام المطبوخ بصورة دائمة تقريباً، وهذا مالانستسيغه نحن في شمال ألمانيا

لقد حاولنا في البداية أن نجهز طعاماً بارداً، فكنا نشتري من بعض دكاكين السمانة للمالطيين لحماً معلباً وجبناً وكنا نسلق البيض ونستخدم بدلاً من الزبدة الطازجة زبدة ميلانو المعلبة. إلا أن ذلك أثبت مع الزمن أنه عسير جداً على المعدة، ومكلف أيضاً، ولذلك أخذنا نكتسب عادات الأهالي خلال بضعة أسابيع وهي العادات التي أثبتت نجاعتها نظراً لتلاؤمها مع الطبيعة والمناخ.

لقد استفدت من الوقت وكرست في البداية كل جهودي لدراسة العربية، وأفادني في ذلك على وجه الخصوص خادمي صالح بن عبد الله. مسكين ياصالح العجوز، كم بذلت من جهود في البداية كي تُمتدح مقدرتك ولاسيما معرفتك الفرنسية. وعلى الرغم من أنك عملت ستة شهور في مزارع العنب التونسية، إلا أنك لاتحسن قول ثلاث كلمات بلغة الفرنسيين، وأما الايطالية فإنك تتكلمها بطلاقة وإن كنت لاتلتزم بقواعدها مثلما تفعل بلغتك الأم العربية.

كم هو طريف تعلم العربية، ولما كنت قد درست العلوم الإنسانية، فإنك تبدأ بتعلم الكتابة، أربعة سطور لكل حرف، وبعد عدة أسابيع تفهم أن ماهو ذكي ومجازي إنما فيه صعوبات بالغة، كما يقول هايني[1] وقليلون هم الذين يعرفون أسرارها [اللغة العربية] ولذلك فلتتجه بجهودك نحو المحادثة، ولتصطحب معك كراساً تكتب فيه بالأحرف الألمانية ماتسمعه من الكلمات النادرة. إن وقعها غريب وفج. ويتبع الحرف الحلقي (غ) حرف حلقي آخر هو (ح) وتتبع الفتح

---

(١) يقصد بذلك الشاعر الألماني هينريش هايني 1797 -1856.

الضمة. وبالإضافة إلى ذلك فإن سندك في تعلم اللغة لايحب أن يفتح فمه بل يضغط الكلمات ويطلقها ويبدو أنه يحاول أن يميز فيما بينها لكأن أسرار اللفظ جدار يصون اللغة العربية المقدسة من أن يتعلمها «الكلاب النصارى»[١].

وعلى كل حال فإنك بعد عدة أسابيع تغدو قادراً على التعبير عن ألح الحاجات. وتتوجه إلى السوق مسروراً لكي تتمرن على الكلام فأنت ماشاء الله تعتقد أنك تسمع من الحاج أحمد لغة جديدة تماماً، ومن الحاج ابراهيم عبد الله لغة جديدة أخرى، وكل واحد في هذه المدينة الشرقية يبدو وكأن له تعابيره الخاصة. وببطء شديد تأخذ الأذن تتعود على التباين الشديد في العربية التي يبدو وكأن كل واحد يتكلمها حسب ذوقه.

وعلى هذا الأساس أصبح من الممكن الافتراض بأن للعربية نفسها في مدينة واحدة تعابير إلى جانب بعضها البعض فمثلاً في طرابلس كلام اليهود من أبناء البلاد مغاير لكلام المسلمين. وبين هؤلاء فإن الحمال يتكلم على نحو مغاير لكلام أغلبية أصحاب الدكاكين ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأن الغالبية لايعرفون القراءة والكتابة فتفتقد الضوابط، وبذلك تغيب تدريجياً معايير اللغة وتثبت الفوارق.

إلى جانب تعلم اللغة كنت أشتغل في إنجاز مهمة طبوغرافية وبالأحرى إعداد مخطط المدينة. ولما لم يكن مثل ذلك المخطط متوفراً وقتذاك فقد أردت أن أبدأ دراساتي لتحقيق ذلك دون إهمال الأعمال السابقة التي وصفت المدينة.

إن العمل لم يكن سهلاً، إذا ماقيس بمثله في الوطن [ألمانيا] إذ كان عليَّ أن أنجزه دون أن يلاحظ أحد ذلك، وكانت الإدارة العثمانية تتوجس من جواسيس إفرنج ولاسيما الجواسيس الايطاليين، فقد يتاح لهم إذا ماوضعوا مخططاً للمواقع والتحصينات، فتح الباب لدخول القوة الأجنبية إلى القطعة الأخيرة من أفريقيا العثمانية. ومن جهة أخرى كان عليَّ أن أحذر من لفت انتباه الايطاليين لأنهم يخشون دائماً منافسة الدول الأوربية الأخرى.

كان عليَّ إذن أعمل دون إثارة أي انتباه، وأستعمل أبسط الأدوات أي

---

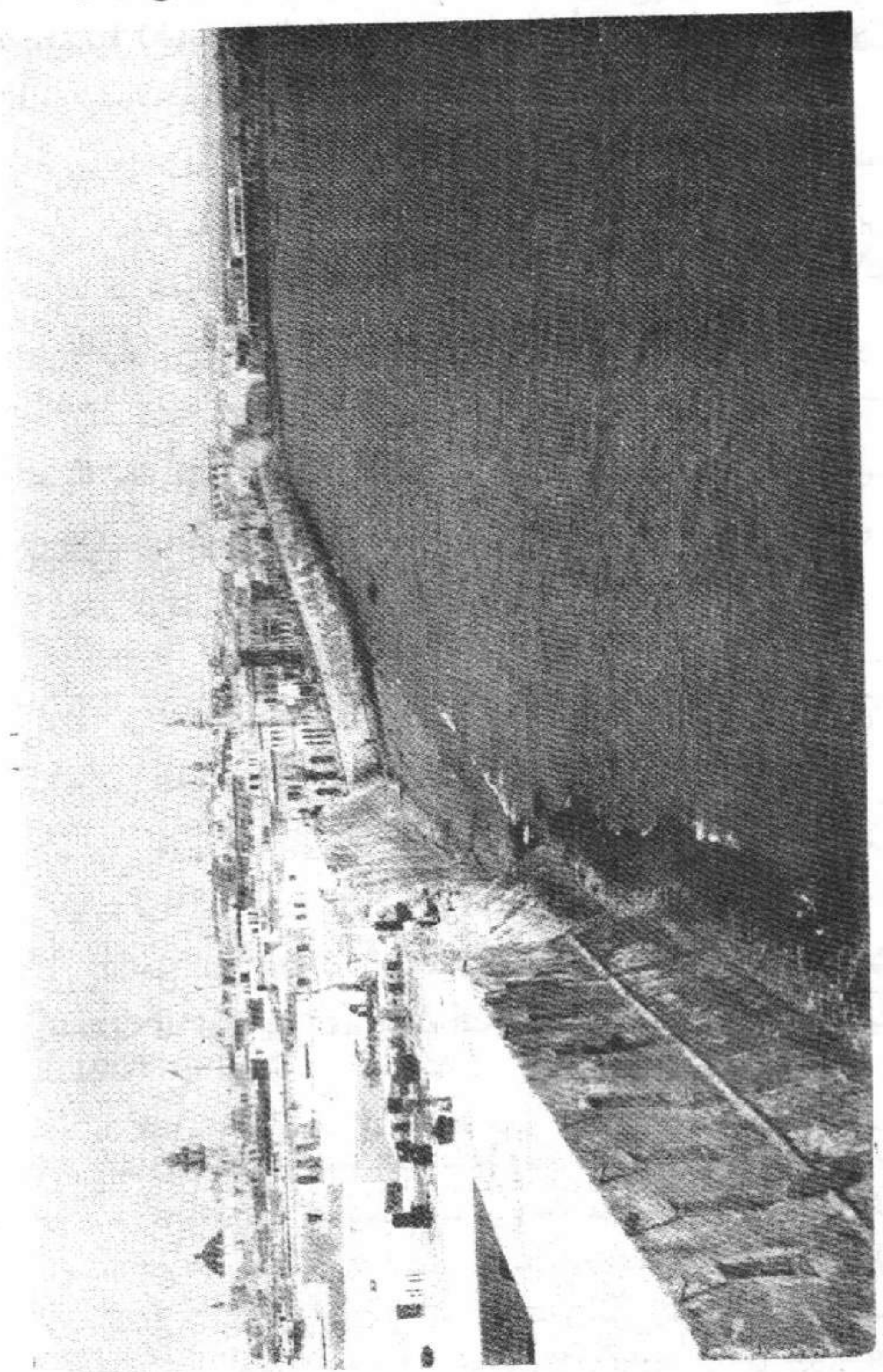
(١) يحب المؤلف استخدام هذه الكلمات التي كانت تمثل رأي الليبيين بالأوربيين كما كان يخيل إلى معظم هؤلاء الأجانب .

بوصلة يدوية (قطرها 7 سم) وساعة جيب بحيث أحدد اتجاهات وأطوال أسوار المدينة وشوارعها. وقد كنت عادة ماأبدأ عملي قبل شروق الشمس وأختتمه بعد مضي ساعة تقريباً. وهكذا أنجزت في أسابيع قليلة ـ كما أعتقد دون أن يراقبني أحد تماماً ـ مخططاً بسيطاً تماماً، أسقطت منه معظم الأزقة الصغيرة والطرق المسدودة (انظر المخطط ص 57).

وأتبعت تخطيط المدينة الجديدة بالمدينة القديمة وكذلك سوق الثلاثاء وضاحية الظهرة وكذلك شارع الشط والمنشية. وقد كان بوسعي أن أتحرك هنا بحرية ولو أنني كنت حذراً. وعند الانتهاء من أعمال المسح لاحظت مراراً أن رجال الدرك كانوا يراقبونني من بعيد. إلا أنني كنت وقتئذ قد قطعت شوطاً كبيراً في التمرس حتى أن الناس كانوا يسيرون إلى جانبي ولايلاحظون حركة يدي.

الإعداد للرحلة نحو الدواخل وفشلها:

في الوقت الذي لم يحالفني الحظ كثيراً في دراسة طرابلس وضواحيها، اقترنت خططي للقيام برحلات واسعة في الدواخل بمصير غريب. لقد كان غرضي الأول أن أقوم برحلة تشمل مناطق طرابلس وفزان وبرقة وأن أضع خرائط لها. إلا أن القيام بأبحاث في بلدان أجنبية يصطدم بمصاعب في أمور قلما يتوقعها الإنسان العادي وعلى الرغم من الأوضاع المالية المتأزمة فقد جمعت تجهيزات جيدة للعمل الميداني من لندن (من شركة تجهيزات الجيش والبحرية) وأدوات من برلين (من محلات فوس شتيغليتس) وأسلحة، كما أحضرت أيضاً ليرات ذهبية كافية، بحيث أعمل في الداخل بضعة شهور كما يحلو لي. ولم يتبق سوى بعض الشكليات حسب رأيي ومنها الحصول على إذن من الحكومة



اللوحة 1-3

طرابلس 1906 صورة مأخوذة من الزاوية الشمالية للسراي شمال غرب المدينة ويظهر فيها مبنى الجمارك يميناً.

المركزية العثمانية (الباب العالي) في استانبول إذ أن هذه الموافقة كانت ضرورية في ظل نظام عبد الحميد[١].

فقد أرسلت طلباً إلى السفارة في استانبول عن طريق وكيل القنصل لكي تحصل لي من الحكومة العثمانية على إذن للقيام برحلة ودعمت طلبي برسالة من أستاذي الفريد كيرشهوف Alfred Kirchhof وبعد وقت طويل، وبالأحرى بعد شهرين جاء القرار المكتوب بالفرنسية وهو يفيد أنه في الوقت الحالي ليس من المناسب التدخل لدى الباب العالي بهذا الخصوص ولدى تكرار الطلب بإلحاح جاء الرفض بصورة أسرع.

ولايسعني في هذا الصدد إلا أن أقول مايلي: لقد ثبت أن الحكومة العثمانية لاتتخذ موقف الرفض من طلبات الرحلة إلى الدواخل، إذ أن سويسرياً يعمل لصالح الانجليز ونمساوياً حصلا في نفس العام 1906 على إذن يسمح لهما بالقيام برحلة في جميع منطقة طرابلس وقاما بذلك. وبالأحرى وجدت سفارتاهما أنه من المناسب أن يقدم الطلب إلى الباب العالي.

إن وكيل القنصل الألماني في ذلك الحين كان يهودياً ثرياً من أهالي طرابلس[٢] لايعرف أية كلمة ألمانية ولايشعر بأية مصلحة في دعم الباحثين الألمان لابل يتدخل لدى الدوائر المحلية العثمانية ضد مثل هذه الطلبات تحاشياً لأية مجابهة معها قد تؤثر على مصالحه التجارية. ولما كان يهودياً شرقياً لم يكن

---

(١) إن محاولتي القيام سراً برحلة إلى منطقة الجبل تستغرق عدة أسابيع، تم إحباطها على مقربة من الجبل في اليوم الثالث من الانطلاق فيها. فقد داهم خمسة من رجال الدرك مخيمنا، وأعادونا إلى طرابلس بأدب بالغ. وعندما شاع أمر رحلتي السرية أرسلت حكومة الإيالة عدة مجموعات من الخيالة في جميع الاتجاهات للتفتيش، وكانت ترافقني في هذه الرحلة زوجتي وصديقي ماكس هولتسمان Max Holzmann الذي كان يزورنا وقتئذ لعدة أسابيع وكذلك التاجر الألماني ب. آبل B. Abel.

(٢) يقصد بذلك اسحاق لابي وقد شغل منصب وكيل القنصل الألماني حتى أواخر 1907، وكان يضع تقاريره بالفرنسية ويوقعها باسم ارنستو لابي انظر عماد الدين غانم. «المصالح الألمانية في ليبيا خلال العقد الأول من القرن العشرين» مجلة البحوث التاريخية 1983 ص ٤٧ ومابعدها.

ليتمتع في أعين المسلمين بأية سلطة. وهذا السبب الأخير يؤثر سلباً على الدعم الذي يحظى به مشروع بحث مثالي يقدمه ألماني لدى القائم بالأعمال في القرن الذهبي، وإن صاحب الحظ يجب أن يعزي نفسه لأنه ليس الوحيد الذي خص بمثل هذه المعاملة وعلى كل حال فإن انتظار عدة شهور قد دمر كل شيء.

السكن في الواحة بشارع الشط:

تطلب الأمر ثلاثة أشهر لكي نرتب أمورنا وغادرنا البيت في المدينة القديمة يوم 11 سبتمبر فاستأجرنا بيتاً في الواحة بغية أن نتعرف أيضاً على أسرار الحياة فيها بصورة أفضل مما كانت تتيحه لنا نزهاتنا العادية إليها يقع البيت في شارع الشط، وعلى الأغلب هو نفس البيت الذي نزل فيه غيرهادر رولفس Gerhard Rohlfs وهوغو غروته Hugo Grothe لقد أمضيت أشهر الشتاء ببردها وأمطارها في قراءات هادئة غالباً. وعندما فشل مشروع الرحلة نحو الدواخل بدأت بتجهيزات الرحلة نحو الشرق الأدنى. فلم يكن هناك أي أمل للقيام بأي نشاط آخر، ولذلك لم يعد للمكوث في طرابلس أي هدف. وفي 31 مارس 1907 يوم أحد عيد الفصح المشمس غادرنا طرابلس وأقلعنا من مينائها نحو مصر.

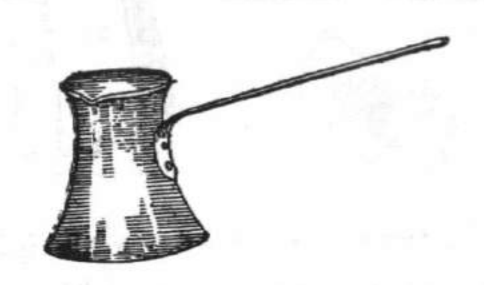
في العام 1908 وقع الانقلاب ضد حكم عبد الحميد وعقد كثيرون الآمال على أن رياح الحرية ستهب على الدولة العثمانية. وسنتكلم عن هذا الموضوع في مجلد لاحق. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الرحلات في ولاية طرابلس الغرب ذاتها تتطلب على أبعد حد إعلام الوالي بذلك، ولذلك قررنا في 1909 أن نعود إلى هناك للمرة الثانية، لكي نعيش فيها عدة سنوات ونقوم برحلات واسعة وسكنا هذه المرة في الظهرة الواقعة بين المدينة والواحة، وقمنا خلال الفترة الممتدة من مايو حتى نهاية سبتمبر برحلات عديدة إلى الدواخل القريبة، إلا أن حدثاً مشؤوماً أحبط جميع مخططاتي بعيدة المدى، فقد أصبت بانهيار عصبي نتيجة الإجهادات الفكرية والجسدية، وذلك على وجه التحديد قبل انطلاق الرحلة بيومين. وبعد انتظار دام شهوراً لم أشعر بأي تحسن ولذلك أبحرت في 19 ديسمبر كسير القلب إلى ألمانيا. لقد تنبأ بعض الأذكياء، بفشل رحلتي الثانية إلى ليبيا لأنني قدمت إليها يوم 13 مايو.

3 - الحياة اليومية في الشرق

الصباح: لم يكن الليل حاراً، إلا أننا سعدنا أن نستطيع ترك النوافذ مفتوحة، ففتحت النوافذ الخشبية وأطللت انظر الزقاق وقد أخذت الرطوبة الصباحية المنعشة تنبعث منه. ولايعكر صفو الهدوء سوى خادم أسود يدلي بدلوه في الصهريج لاستخراج الماء من العمق وإعداد الشاي.

أما البيوت المجاورة فمازالت صامتة وشيئاً فشيئاً تبرز جدرانها البيضاء مثل الثلج. ثم يأتي صوت من جهة ما ليقضي على هذه الدقائق الصامتة بعدئذ يأتي قطيع من الماعز بأصواته الواضحة ليلتف حول الزاوية، ويتقدم الراعي المالطي حافي القدمين مرتدياً سروالاً ربط بحزام واحد وقميصاً ملوناً من الكتان وفوق الوجه المشرد قبعة صغيرة تبرز منها أذن. انفتح الباب المواجه لنا وامتدت يد نسائية حنطية بوعاء زجاجي ليملأه الراعي حليباً من الضرع.

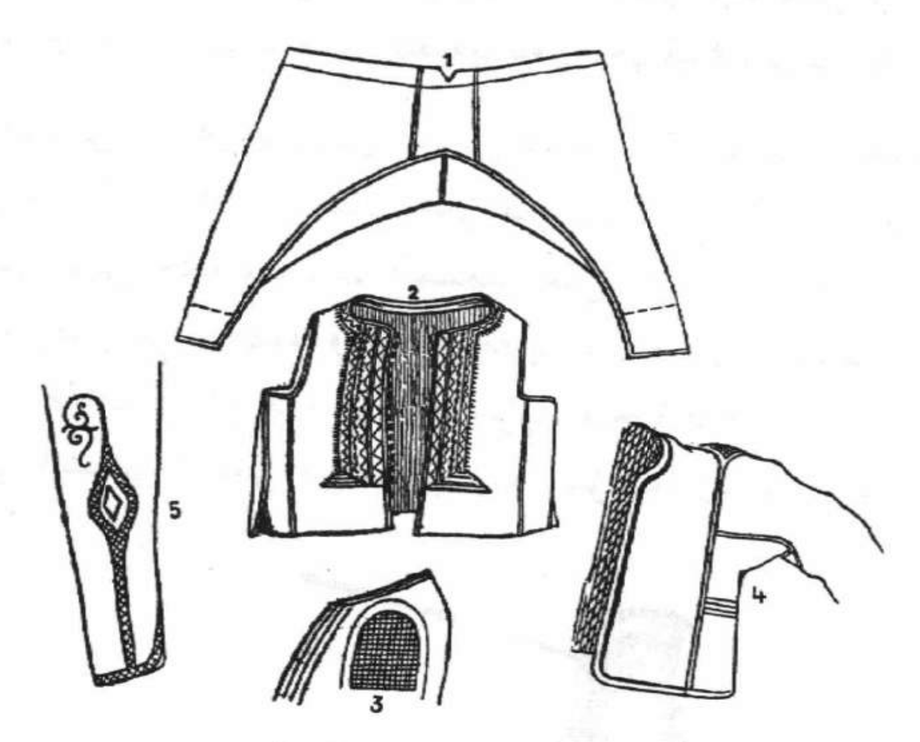
(الشاهي) جاهز ياسيدي يناديني صالح وأنا مستسلم لخواطري الصباحية الطيبة وأخذ الرجل الأسود يقص عليّ ماحدث له في الليلة الماضية، فقد ضربته الجن فهي تأتي خفية وتضرب المسكين على رأسه وتمسكه من رجليه وتطوي ذراعيه وترقص في وجهه، وتقوم أمامه بأعمال مؤذية للمسلم. وأعتقد أن هذا من باب العقاب لصالح لأنه غالباً مايشرب طنجرة صغيرة من اللاقبي(١) ثم ينكر ذلك على الشغابي (ألماني من سوابيا وهو المؤلف) ويذكره بانعقاد لسانه ليلاً.



ركوة القهوة (بكرج) غالباً ماتصنع من الصفيح المطلى بطبقة بيضاء من الداخل وزرقاء من الخارج (وهي بضاعة أوربية) وهناك ركوات عددها أقل وهي مصنوعة من النحاس الأصفر وربما كانت بضاعة تركية، وفي بعض الأحيان تصنع من النحاس المخلوط وهي صناعة أرمنية وهي الأفضل يتراوح قياسها بين ٨ ـ ١٢ سم وسعرها بين ١,٥٠ حتى ٣ مارك.

(١) سائل يستخرج من رؤوس النخيل فإذا ترك بعض الوقت تخمر.

في تلك الأثناء ازدادت الحركة في الخارج، إن ولداً يرتدي قميصاً وسخاً وسروالاً قصيراً رثاً يقفز فوق بروزات وحفر الزقاق ويوازن سلة فيها عجين مقلي بالزيت أصفر وأخضر وينادي بصوت حاد: اسفنز اسفنز وهو محبب كطعام صباحي. وبعد السنفاز[١] يأتي رجل أسود متقدم في السن السحلبي وبكل هدوء يضع المنقل الحديدي على الأرض ويضع على الفحم ابريقاً من الصفيح (بكرج) ويدعه حتى يسخن ثم يصب الخليط الذي يغلي في داخله وقوامه الماء والنشا والكمون المطحون في فنجان ويرش عليه القرفة. ويسير بعدئذ وهو يصيح السحلب فاح، السحلب فاح، ثم يختفي تحت القوس. إلا أنه يأتي بعده اليوغرطي (اللبان) صائحاً. واليوغرطي شاب جسيم يحمل خشبة علق على طرفيها فنجالان بيضاوان فيهما لبن أو مايدعوه الأتراك يوغرط. وهو حليب حامض منعش، وعلى كل حال فإنه قلما يكون نظيفاً وهو يحمل خطر العدوى.



زي الرجال في طرابلس (من المسلمين)

١ ـ سروال يتكون من ست قطع، غالباً مايصنع من الكتان الأبيض، وكثيراً مايتخذ اللون الأزرق في الشتاء ويكون من القماش، أما الأغنياء فغالباً مايلبسون حرير المواري لونه أصفر ٢ـ الفرملة ٣ـ الفرملة من الجانب بحيث تبدو فتحة الأكمام على شكل حدوة حصان ٤ـ السترة (الزبون) النصف الأيسر ٥ـ تطريزة ذراع السترة. إن كلاً من الفرملة والسترة تصنعان إما من القماش أو من الحرير.

---

(١) وردت في الأصل السفناز.

عند القهوجي قرب برج الساعة: سرنا عبر أزقة فرعية هادئة حتى بلغنا الميدان الصغير في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة ويدعى ببساطة (تحت الساعة) نسبة إلى البرج الذي شيده في منتصف العقد السادس [من القرن التاسع عشر] والٍ يميل إلى التحديث (انظر اللوحة الثانية الشكل 2). إن المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق والمجددة في أعلاها وذات أربعة أعمدة ونوافذ واسعة ليس لها أي غرض واضح سوى حمل الساعات العثمانية الأربعة التي تسير وتتوقف طبقاً للتوقيت العثماني(١). إن العقارب التي تسقط أحياناً والتي تشير إلى صحيفة الأرقام المصنوعة من الخشب، وتؤشر إلى الأرقام مع ميل مثلما البرج مائل نحو الغرب

إن العمل بأجمعه هو تصوير كاريكاتوري صحيح للحكم العثماني، إنها إرادة فردية، وربما مزاج متأجج لعمل حضارة أوروبية. ولكن في أمور لامعنى لها وبعد ارتياح سريع ومن دون معاناة تنطلق منه النار لأن الأساس لم يكن سوى هشيم جاف. فالباشا العبقري(٢) كان راضياً، سيما وأن التاريخ لايكلفه شيئاً ووضع أمام أعين رعيته تمثالاً شامخاً يشير إلى السلطة العثمانية واهتمامها، ويفتح شهية الأوربيين. وعلى كل حال فإن كل شيء باق كما كان.

نسير نحو أحد المقاهي الصغيرة (تدعى قهوة انظر اللوحة الثانية الشكل 1) ونجلس على الكراسي الموضوعة على رصيف المشاة الضيق، ووراءنا تنفتح حجرة ضيقة فيها طاولات قليلة صنعت دون عناية وكراس دون مساند. وأما الجدران المطلية بلون فاتح فإنها متحف لطبعات زيتية رديئة: أنواع من الفواكه، أول سفينة بخارية، الأسرة الامبراطورية الألمانية، صيد الدببة، جبال الألب مغطاة بالثلوج، السلطان عبد الحميد، وغير ذلك، وقد أثار جل اهتمامنا ذلك القاطع حيث يصب المشروب في الخلف .

---

(١) إن الوقت يحسب تبعاً لشروق الشمس وغروبها ويحسب لكل منها 12 ساعة.

(٢) يقصد بذلك على رضا باشا الجزائري الأصل وتولى الايالة مرتين أولاهما من ١٨٦٧ـ ١٨٧٠ وثانيهما 1872-1873 وعرف باصلاحاته. انظر الطاهر الزاوي.

ويقوم القهوجي (صاحب المقهى) وهو مهاجر[1] أشقر أحمر الخدين ويمسك بالركوة النحاسية ذات الذنب الطويل (بكرج انظر الشكل)، ويضع فوقه الماء المغلي فيها قهوة ناعمة وسكراً ويدع الخليط يغلي مراراً، ثم يضع فنجانين صغيرين مزينين بالرسوم على صفيحة من البرونز ويصب القهوة فيها أمامنا وعلى وجه الفنجان رغوة (تدعى شكشولة) وهي الشرط الأساسي للقهوة الجيدة. إن صاحبي يشرب القهوة (قد قد) أي متوسطة الحلاوة، بينما أشربها حلوة، لقد أخذ القهوجي متليكاً واحداً أو مايعادل (4 بفينيغ)[2] ثمن الفنجان الواحد، وقد أتى الصبي وفي يده ملقط يمسك جمرة من الفحم إشعال السيجارة التي لُفّت على وجه السرعة، وشربنا القهوة حسب المعتاد برشفات صغيرة متتالية بسرعة وأصبحنا الآن على استعداد كي نمارس التطبيق العملي لعلم الأجناس.

الأغنياء: أول مالفت نظرنا شخصان طويلا القامة، يسيران بتؤدة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. كان الجميع يفسحون لهما الطريق احتراماً. لقد اختير قماش ثيابهما بعناية فتحت ثنايا عباءة حريرية مقصبة بالأبيض يبرز الصوف الناعم لبرنس خفيف داكن اللون، وقد أسدلت قبعته على الظهر. وتلمع تحته جبة تونسية حمراء قانية مطرزة بخيوط خضراء وتزرر فوق الصدرة، بينما يلبس البرنس فوق الرأس. والآن بوسعنا أن نتفحص جيداً بزتي هذين الشخصين الوجيهين، إنها تتألف من سروال قماش أزرق ذي سرج واسع متدل وسترة صفراء مطرزة بخيوط على الصدر والأكمام (انظر الشكل).

إن البرقان الناعم يلبس على الرأس ويستر الطربوش وبخفة يلف الوجه المدور المكتنز والأصفر مثل الحنطة الناضجة وتعلو الوجنتين اللامعتين حمرة خفيفة وتحيط بالحنك لحية قليلة الشعر، وهي غامقة أيضاً مثل العيون والحواجب وأنهما يتجولان بخطى وئيدة ووقار يتناسب وأهميتهما وقيمتهما أولهما هو أحد كبار تجار المدينة، وثانيهما ضيفه من غدامس وهو لايقل عنه ثراء وكلاهما سيد في تجارة القوافل.

---

(١) إنه مسلم غادر بلاده في جنوب أوروبا المسيحية إلى الأراضي العثمانية.

(٢) البفينيغ يعادل واحد على مائة من المارك الألماني.

إنهما سليلا بيوت عريقة، ولكنهما قصيرا النظر فهما يتعاملان مع أوروبا عن طريق وكلاء تجاريين صغار، بدلاً من أن يقيما علاقات مباشرة. إن هؤلاء المستشارين التجاريين المسلمين يمثلون أكثر عناصر الشرق محافظة لقد نشأوا على حفظ القرآن وتبجيل الآباء، ولذلك فهم والمشايخ عبيد عميان للنص القرآني[١].



اللوحة 2 - 1 مقهى طرابلسي

---

(١) ورد في الأصل «كلام النبي» وإن مثل هذه الآراء تتكرر عند المؤلف واتبعنا في ترجمتها مايتناسب والدين الحنيف مع الإشارة في الهامش إلى رأي المؤلف حفاظاً على الأمانة العلمية.

المشائخ: هاهو أحد المشائخ يقترب وجبته السوداء تتموج وراءه إنها مفتوحة من الأمام تكشف عن السروال الأبيض الواسع الذي فصل على نسق السراويل الأوربية. وعادة مايصل سرج السروال حتى منتصف الفخذة بينما تظهر تحت الصدرية ذات الأزرار الأربعة ربطة الخيط الذي يشد به السروال حول الجسم. يمشي الشيخ الجليل بصلابة وهو يؤرجح ذراعيه الداكنتين مسبحاً بسبحته التي يبلغ عدد حباتها (كعبة) تسعاً وتسعين بعدد أسماء الله الحسنى، إنه منظر محدقاً بعينيه اللتين تقدحان تعصباً، وتعلوان وجهاً ضمر من الزهد، وعلا رأسه طربوش لف بعمامة بيضاء.



اللوحة 2 - 2 طرابلس: التقطت الصورة من الزاوية الشمالية في السراي باتجاه الغرب، مروراً بسطوح المدينة. في الوسط برج الساعة وخلفه مئذنة جامع سوق الترك.

يتلوه في المكانة والوجاهة نظراؤه في الوظائف الدينية وهم القاضي والفقيه والمرابطون. فقد وضع المرابط على جسمه معطفاً جمع من خرق، وجسمه لايعدو أن يكون هيكلاً غطمياً، وفي وجهه ذي القسمات البارزة عينان ذكيتان تشعان حماسة، وفجأة توقف أمامنا وكشر عن أنيابه ببلاهة. ولما لم يحصل على شيء ألقى بمعطفه إلى الخلف وخلد إلى الجوع والعري وفي تلك الأثناء أخذت تقترب منا فتاتان انجليزيتان نحيلتا الجسم، لاحظهما المرابط فأخذ يحث الخطا وراءهما ولولا ذلك لكان وقف أمامنا مدة طويلة.

هل هو مجنون حقاً، أو معتوه، أو فاقد للحياء، أم ماكر متلاعب؟ ربما هو كل ذلك معاً. إن نبراته ترجّح أن يكون أحمق، إذ ماذا يمكن أن يستفيد عاقل من هؤلاء التعساء. إن المرابطين خارج المغرب لايتمتعون بأية مكانة، كل يسخر ويهزأ منهم، وهم يموتون جوعاً نظراً لأنهم يعيشون على الصدقات، خمول وأمل بالأجر يمثلان كل مالديهم.

بندقية طرابلسية، الطول واحد وثلاث أرباع م. يتم حشوها عبر الفوهة نحو الأسفل يوضع فيها ثلاثة أصابع بارود وفوقه سدادة صوفية ثم كرة أو كرتان (خردق) ثم سدادة من الروث مخلوط مع الملح. الأقسام: المداس (وهوم ن الخشب الفاتح أو العظم) السرير ـ الزناد ـ البرطيلة ـ صوانة ـ السير ـ المشطى ـ بورمة ـ الصيبة ـ القصباية ـ الركاب ـ الدبانة ـ المرواس ـ الموندق ـ الفم ـ الخوصة ـ السبتة ـ الرلاف

المزارعون والبنادق العربية: الآن يمربنا مزارع قادم من الريف يركب حصاناً عليه سرج كبير وركاب عالٍ ومسند للظهر وعلى الجانب تتدلى بندقية مرصعة برقائق الفضة (انظر الشكل). إنها تبدو ثقيلة مع هذا الجواد الأشهب الظريف. إن الركاب الكبير مطلي من الداخل بالأحمر ومن الخارج أبيض ويشكل مع العنان المنظر الجانبي للجواد. إن وجنتي رجل الريف أكثر سمرة وتغضفاً من وجنتي ابن المدينة من نفس العرق. إنهم جميعاً من عرق واحد وهو العنصر الخليط الليبي البربري الذي يسمى تسمية سطحية «البربر».

وهاهي نماذج أخرى من العرق الليبي البربري قادمة. نوار، نعم نوار، جاء صوت رجل عجوز صغير الجسم مع أنين طويل، إن ثنايا وجهه العميقة قلما تسمح بمعرفة شكل وجنتيه في شبابه. لقد لف ظهره المقوس بقميص ملطخ بنقط سوداء خلفها وسخ البراغيث وعقده بخيط من سعف النخيل. قدم بيده دف صبّار (هندي) غرس فيه عيداناً لف حولها أزهار القرنفل والياسمين. يانوار، ياياسمين، أخذ العجوز يغني، ولما كان شبه أصم، وعلى إحدى عينيه زهرة، فإنه لم يتفاد كرتوناً صاح به صاحبه الخشن بصوت جهوري: بالك ياشيباني بالك، ووقع خلف الزاوية.

وهاهي صورة أخرى من عالم التعاسة. رجل أعمى أبيض الشعر تماماً جسمه جلد على عظم، تبرز أعضاؤه من مخلاة فيها فجوات للرأس والذراعين، يتعكز على قضيب نخيل ويتلمس جدران البيوت ويجلس أمام كل باب ويغني ياكريم ياألله، العلة في سبيل الله ياكريم... ويستمر على نفس المنوال. بعد حين تنفتح نافذة في الأعلى وتنطلق منها كلمة غاضبة: يرزق ربي يعطيك. ثم يصيح الشحاذ متوسلاً (مسكين، فقير، زي أحوالي).

وحول تلك الزاوية حيث تتعالى الأصوات لبيع ارغفة الخبز المدورة الصفراء الخضراء، تدور الآن مجموعة من النساء، وهن لسن سوى أولئك اللواتي يصنعن الحولي (انظر الشكل) والحولي هو اللباس التقليدي في وسط

شمال افريقيا. ويبدو أنه لاينتشر كثيراً خارج حدود الإيالة(١).



طرابلسية مرتدية الحولي في شوارع طرابلس

إنه قطعة قماش كبيرة 1,5x6-4 م تنسج من صوف الغنم، وغالباً مايكون الحولي أبيض اللون، أما البني فنادر. وبعض النساء تتخذه مقصباً بالأسود أو البني وتتأرجح الجودة والسعر بين ماهو مصنوع من خيوط بنعومة خيوط الخيش وسعره ليرة مجيدية (3,60 مارك)، وبين النماذج المصنوعة من صوف ثخين وربما يبلغ سعره ثمانية محبوب (25,60 مارك)، إن الحولي هو لباس الجنسين ولكنه يختلف في التصميم (انظر الشكل). يعقد الرجل زاوية منه بخيط أحمر ذي شراريب قدر الامكان، وتكون من جهة العرض على مسافة بطول ذراع ومن خلال الفتحة الناتجة يعلق الحولي على الكتف اليسرى بحيث تأتي العقدة الكبرى أمام عظم الترقوة ثم يلف به جسمه وصدره دفعة واحدة. وهذا يبدو بسيطاً جداً، إلا أنه لايقدم على الحولي سوى معلومات أوّلية. وغالباً مايشاهد طرف الحولي مسدلاً فوق الرأس بحيث يلف الوجه، ومثل ذلك يتبع في حالة المطر والبرد

(١) يلبس أيضاً في جنوب تونس ويدعى حرام.

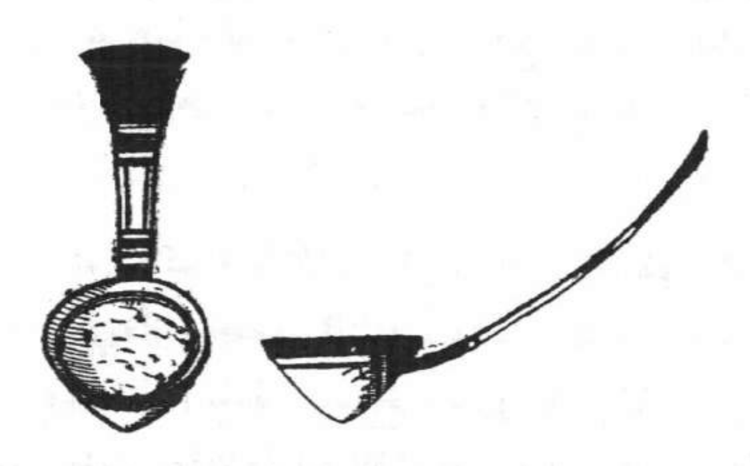
والشمس اللافحة. وإذا ماتصبب العرق بشدة، فإن المرء يطوي جزءاً من الحولي ويضعه على شكل شال سميك فوق الطربوش، وبذلك تصبح الرقبة والرأس طليقتين وتحت ظل سميك. ينام المرء في الحولي، ويلف الرأس بأكمله خوفاً من الإصابة بالبرد، ويمكن أن يحمل فيه المشتريات من السوق إلى البيت، أو من المدينة إلى موطنه في القرية إذا ماجمع أطرافه إلى بعضها. وباختصار فإنه لايمكن تصور الليبي[١] دون الحولي إنه يعيش ويموت في هذه القطعة من صوف الغنم. وأما مايخص وضعه داخل الحولي أو الثنايا التي يتخذها له فإنه يمكن أن يكون طبيعياً ليس فيه أي تدخل أو تصنع. إن شخصاً طويلاً يرتدي الحولي ويتخذ وضعاً هادئاً يذكرني دائماً بتمثال سوفوكلس في روما.

إن المرأة ترتدي الحولي فوق الظهر أيضاً إلا أنها تضعه فوق الرأس دوماً وإذا ماأمسكت به بإحدى يديها أو بكليتهما مستورتين وجعلت الحولي يغطي وجهها فإن ذلك يسمح ببروز إحدى عينيها السوداوين من الشق العمودي، وغالباً ماتضعه على الصدر أو البطن وربما يطوى أربع مرات أو ستاً (انظر الشكل). إنه هنا ينزل بشكله الغليظ حتى القدمين اللتين ترتديان صندلاً جلدياً ذا لون أصفر أو أحمر أو أسود لماع. لماذا يرغب المرء بثني الحولي إلى هذه الدرجة من الغلظة.

في الشرق يعتبر مثل هذا الرداء السميك ذا جمال خاص، ولذلك فمن الطبيعي أن ينسج بمتانة إذا ماتوفر الصوف، وإذا كانت كمية الصوف قليلة حرصوا على إعطاء الحولي شكلاً. يوحي بثقله. ولذلك فإن النساء يتهادين بخطوات ثقيلة وبطيئة، إلا أنها أسرع من أن تستطيع أفكارنا تتبعها. وعندما وصلن إلى بوابة بيت منخفضة قرعن قبضة الباب وأطلقن الزغاريد إيذاناً لصديقتهن التي تنتظرهن بوصولهن.

---

(١) وردت في النص الأصلي طرابلسي Tripolitiner وهي نسبة إلى المنطقة الغربية من ليبيا أو إلى إيالة طرابلس الغرب وهي المقصودة هنا، ولذلك آثرنا أن نستعمل مصطلح ليبي.



ملاعق الطارقي (كحاص) تصنع من خشب القرض وقد زينت بشكل وكأنها عولجت بالحرق طولها 30 سم السعر في طرابلس 1,50 حتى 2,50 مارك

العرب: إن النماذج التي ذكرناها حتى الآن هي من الصنف الليبي البربري. وهؤلاء يتميزون بلون بشرة فاتح أو حنطي على أبعد حد، وبوجه مدور. ويختلف عنهم اختلافاً حاداً أبناء النموذج العربي. يتقدم منا الآن عربي أصيل. إن الحولي الأشهب قد رفع إلى الأعلى حتى وصلت أطرافه إلى أعلى الساق أو حتى مافوق الركبة التي تطل منه عارية. وتبرز من الوجه النحيل الغائر الوجنات ذي اللون الغامق تقريباً، عينان سوداوان تعلوان أنفاً شديد البروز. إن تجاعيد الوجه أكثر بروزاً من اللحية وخاصة حول مرقد العينين اللتين تحيط بهما جملة من الثنايا الأفقية.

يسير إلى جانب البدوي الذي أدهشته جمالات المدينة الساحلية شخص آخر لايرتدي الحولي، وهذا ماأتاح لنا أن ندرس بهدوء التفاصيل الداخلية للباس العربي. إنه يتكون من قميص طويل حتى الركبة (يسمى السورية) وقد اشتري لتوه، ولذلك فهو يلمع ويخشخش ويتسع عند كميه ثم ينسدل عمودياً. وأما الثالث فقد عقد أصابع يديه خلف الرأس بحيث تدلى ذراعاه العاريتان النحيفتان والمكتظان شعراً. وقد ربط القميص فوق الحوض بنطاق أحمر بعرض الكف،

لُفَّ عدة مرات فتشكلت طيات توضع بينها النقود .

الطوارق الملثمون: ولكن انظر هناك، إنها لقطة في علم الأجناس، شخصان يتهاديان في سيرهما وقد تدلت منهما قطع قماش ومناديل وضع بعضها فوق بعض على غير نظام، وهي جميعاً متسخة وكان لونها في الأصل أزرق داكناً وأبيض.

وقد عصب الرأس بأكمله وكذلك الوجه الذي لايظهر منه سوى العينين السوداوين اللامعتين، ويعلق تحتهما اللثام المتسخ وتستمر ثناياه حتى الصدر. وفي بعض الأحيان يعقد اللثام بشكل يسمح بظهور عقفة الأنف ويحتذي الطارقي صندلاً مغطى بالغبار يثبت بعقد طرف القشاط الجلدي في الأعلى وكذلك بين إصبعي القدم الأول والثاني أما ثياب الشخص الثاني فتكشف عن تداخل في قطع القماش تظهر منها ذراع نحيفة عارية. إن من يشاهد مثل هذه الذراع وهو يرمي بالة ثقيلة على ظهر جمل، فإنه يبجل قوة جسم هؤلاء الرجال النحاف، إمغار الصحراء.

السود: وعلى مسافة قريبة، منهما شدت انتباهنا مجموعة من الزنوج القاتمي السواد (وصيف الجمع وصفان) وقد جاء أهاليهم أوهم من بلاد السودان أرقاء، ثم مع الزمن عتقوا وتزوجوا وأنجبوا أولاداً. إنهم يعيشون في أكواخ على شكل قباب شيدت من الحلفاء أو القصب (قربى أنظر اللوحة الثانية الشكل 2) وتوجد هذه الأكواخ في مجموعات عديدة خارج المدينة. وهم يؤمنون معاشهم بصعوبة ويعيشون على الكفاف ويقومون بالأعمال المجهدة والوضيعة، ولاسيّما ببناء البيوت وفي مكابس الحلفا وتفريغ أو شحن السفن.

ويبلغ متوسط الأجر اليومي للفرد حوالي ثلاثة قروش (55 بفنيغ) وبالإضافة إلى ذلك تقوم النساء عادة بجزء من العمل. ونتيجة لحالة الفقر الحقيقي الذي يعيشونه فإن لباسهم غير موحد. فتراهم يلبسون مخلاة ذات ثلاث فتحات أو سترة عسكرية مستهلكة أو سراويل أو ثياباً أوروبية خرقة، أو صداري مهترئة أو قمصاناً ممزقة، وبالأحرى يلبس الأسود كل ماهو بال. إنه يلبس مايرمى من أردية جميع الأجناس وربما مايرميه فقراء الليبيين إلا أنه لايتخذ

القبعة الإفرنجية أو القبعة العادية التي تميز النصارى.

إن الأسود مسلم العقيدة، ولما كان يشعر بعقدة النقص فإن موقفه يتسم عادة بالتعصب الفائق. إن مايقوله مالتسان عن أن تزايد السود الطبيعي في طرابلس محدود جداً هو قول غير صحيح أو أنه لاينطبق على الوضع الحالي. ومن النادر أن تجد أسرة سوداء ولديها أقل من ثلاثة أو أربعة أطفال على قيد الحياة. وكثير من الأطفال يموتون نتيجة للظروف المعيشية القاسية.

الأتراك القدماء والأتراك الفتيان: إن العنصر الأخير والأحدث بين مسلمي المدينة هم الأتراك. ففي المقهى المقابل يجلس اثنان منهم، أولهما يلبس سترة خروج ذات ياقة عالية وهي لحسن الحظ، لاتحظى بالاحترام، وربما كانت استامبولية انقرضت، والآخر يلبس سترة أوربية ويظهر عند رقبته قميص وسخ. وتحت طربوش العسكري الشاب المشدود يبرز وجه ذو قسمات صحيحة، فيما الحاجب وعظمة الأنف يتداخلان مع بعضهما في خط مستقيم تقريباً، وهذا مايعبر عن أصل يوناني أو جورجي.

وأما وجه الآخر فإنه يتصف بوجنتين عريضتين عظمهما دقيق البروز، وبعينين ضيقتين من الطراز المغولي، على أن ذلك لايستر لونه الأصفر ذا البقع الجدرية.

إنهما موظفان مدنيان في الإدارة العثمانية، وهذا يعني أنهما نموذجان للادعاء، والتباهي على طريقة الفلاحين والغرور، كما يتسمان من جهة أخرى باظهار التزلف والحماس للعمل والخضوع للآخرين.

إن أكبرهما سناً، وهو يسحب الدخان الرطب من نرجيلته إلى أعماق رئتيه أومأ بيده اليمنى إلى ضابط أسود شاب كان يمر بزيه الرسمي الأزرق الغامق الصغير عبر الميدان. وخلفه كان يجر ساقيه متثاقلاً نقيب (يوزباشي أي آمر مائة) متقدم في السن يرتدي شبشباً مهترئاً، وبينما كانت رجله اليمنى ترتاح في السروال المدني الرصاصي الفاتح فإنه كان يحمل على الجانب الآخر غمد سيف علاه الصدأ لقدم الاستعمال. كان الطربوش يعلو الوجه الأسمر الغامق ذا اللحية التي لم تحلق منذ وقت طويل، وكان لونه يدل على أصله الناجم عن زواج تركي

مع سوداء وهو مايدعي بالقورغلي[١].

إن عدد الأتراك في طرابلس ليس كثيراً، فهم جماعة من العسكريين والموظفين المدنيين فقط، ويشغلون بالطبع جميع المناصب العليا، على أن القسم الأعظم من العساكر (انظر اللوحة الثالثة عشرة الشكل4) هم من الناطقين بالعربية، وهم بصورة رئيسية من الشام.

في طرابلس الغرب استدعي الشباب ولأول مرة إلى الخدمة العسكرية في 1909 ويبدو أن سبب الاستغناء عن التجنيد ربما يعود إلى الهوس السياسي. ويظن أن عبد الحميد كان يخشى أن يقع رعاياه في أفريقيا في صراعات قبلية ومايشبه ذلك الأمر الذي يدفع بهم إلى أيدي الفرنسيين والإيطاليين الممدودة. وعلى الرغم من ذلك تصرف أتباع تركيا الفتاة تصرفاً حاسماً وهكذا شاهدت طرابلس في سبتمبر 1909 عدة أرتال من أبنائها وقد أطرقوا برؤوسهم مجهشين بالبكاء وهم يسيرون وجلين خلف البوق نحو السراي[٢].

---

(١) أخطأ المؤلف في تفسير القورغلية عندما حددها بزواج الموظفين الأتراك أو الجنود من السود فقط.

(٢) في 1901 صدر مرسوم الخدمة الالزامية في عهد الوالي حافظ محمد باشا وقد شملت جميع أبناء الولاية من الذكور البالغين 20 عاماً ولمدة ثلاث سنوات ويبدو أنه لم يطبق بصورة صارمة كما حدث في 1909 انظر:

Schönfeld, Aws Staaten der Barbaresken 1902 P. 129.



اللوحة 3-1

عنصر نسائي من النموذج البربري الليبي في طرابلس الغرب وقد ارتدت القميص (السورية) برز على الصدر والذراعين والسداد الذي يغطي قفا الرأس والظهر والجذع وأما العزق فإنه يغطي اللفافه وهي تحمل قصعة خشبية على الرأس



اللوحة 3-2 بدوية من الجفارة ربما خليط من النموذج البربري الليبي والعربي

في سوق الأساطير: من ميدان تحت الساعة باتجاه جنوبي شرقي يقع سوق الرباع. في الوسط تقريباً يقوم فوق أعمدة جامع الباشا الحجرية الملساء أربعة عشر قوساً مدوراً بلونها الأبيض الناصع مثل الحليب، وتحت الرواق الناجم عنها يجلس صناع العرقيات البيضاء التي تلبس تحت الطربوش لامتصاص العرق وتدعى (معرقة) وتستند إلى جانب الحائط المكسو بالبلاط الملون بعض الخزائن الملونة المخلخلة وقد امتلأت بالكتب العربية التي تتألف في الغالب من المصاحف فقط، وباتجاه المدينة، حيث يقوم باب المنشية الذي لم يكن حتى العام 1908 يشكل عرقلة مزعجة للسير (انظر الشكل) تقوم سلسلة من الدكاكين الصغيرة تبيع البياضات الرخيصة والبهارات والحبوب. وباتجاه برج الساعة توضع على سطوح خشبية مائلة جميع أنواع الخضار والفواكه ومن بينها تمر بدون نوى مكبوس في قفف ويسمّى (تمر معجون).

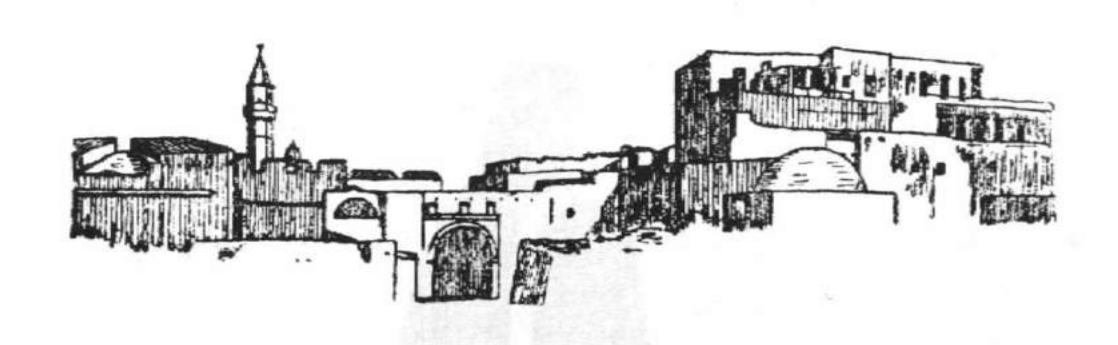
بين الدكاكين المغمورة توجد فتحة يعلوها قوس، ويشاهد المرء عبرها سمكة رسمت بلون أزرق وهي رمز مسيحي جرى الحفاظ عليه ويدل على الخصوبة السعيدة، كما يوجد رسم كفّين حمراوين منفرجتين لدفع أثر نظرة السوء إنه مدخل الأسواق القديمة في طرابلس.

إنها تتكون من جملة ممرات متصالبة ويقسمها شارع صاغة الفضة اليهود إلى قسمين. إن الجدران التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار والمطلية بالجير الأبيض تنتهي في أعلاها إلى أقواس توجد في ذروتها المدورة مجموعة من الفتحات. وتستغل كوات الجدران الجانبية (انظر الشكل ص 89) كمواضع صغيرة للبيع وضعت أمام كل منها منصة بارتفاع نصف متر وتحتوي هذه الكوة على خزائن البضاعة وتغلق بباب خشبي ويجلس التجار على المصاطب الضيقة فوق سجادة عادة أو على وسادة طارقية ويفسحون تلقائياً مكاناً للمشتري. ويبلغ عرض المجال المخصَّص للمارة ثلاثة أمتار على أبعد حدّ وهو غير مبلط، الأمر الذي يجعله موحلاً أثناء المطر. وفي الصيف تكون الحرارة أقل مما هي عليه في الشوارع المفتوحة، وأثناء البرد تكون ألطف. ندخل عبر البوابة الخالية من أية زخرفة إلى ضوء السوق الضعيف. هنا الحركة قليلة والتجار ينامون في الغالب

على مصاطبهم، وهكذا يلف الصمت هذا الحيز الطويل الضيق. وتتبع كلّ كوة كوةٌ أخرى بهدوء وانتظام ونسير حتى الممر الثاني ذي النور الساطع.

إن بياض الجدران يتقاطع مع اللون الغامق لبالات القماش.

ومن الأعلى يتسرب النور عبر الفتحات مختلطاً بذرات الغبار المتطاير ليقبل الأرض، وهكذا فإن مزاجاً احتفائياً يسيطر على الموضع تحت القوس عندما يدخل المرء في تقاطع جديد.



باب المنشية قبل أن يهدم في 1906 كما يرى من الجهة الجنوبية الشرقية عبر سوق الخبزة إلى يساره يظهر سور المدينة ومئذنة جامع الباشا وذروة برج الساعة وإلى يمينه السراي.



اللوحة 3-3

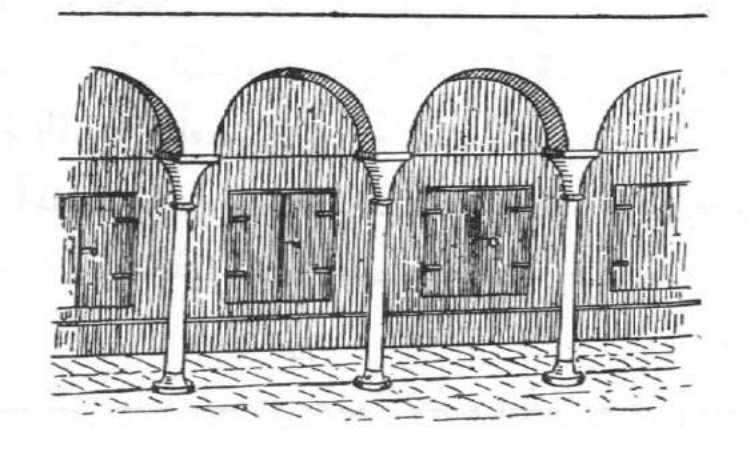
في اليسار فزاني غامق البشرة، (حسَّان) في اليمين نموذج البربر الليبي.



اللوحة 3-4

فزاني غامق اللون بلباسه يوم الجمعة سترة (زبون) وفرملة وسروال وسورية وهي تلبس فوق السروال

تحت الأقواس تبدو طرابلس بصورة شرقية يستحيل تزويرها. في هذا المكان يعرض التجار المسلمون واليهود المحليون بضائع تمثل في مجملها الزي المحلي ونادراً مايشتري الأوربي في هذا السوق، وهنا تستغني الدكاكين الصغيرة عن أية إضافات من البضائع الافرنجية.



نموذج من الأسواق ذات الأقواس الحجرية القديمة

لقد.توقفنا أمام معروضات الحاج علي الجربي (من جزيرة جربة) الشاحب اللون وهو يبيع المسابح الصفراء ويسبّح بها بهدوء.

إلى يسارنا كان ثمة أقمشة حمراء وبيضاء مكدسة، وهي أقمشة تلف بها النساء أجسادها. وفي الخلف توجد اللفافة وزينة الرأس النسائية، وبعض قطع الحرير وطرابيش حمراء ملفوفة بالورق. وعلى الرفوف علقت حبال ثخينة من الصوف الملون حسب طلب الحائك لإنتاج البسط والقماش وإلى اليسار يسند التاجر ظهره على كومة عالية من سجاد جربة الذي يلوَّن بألوان غير أصلية ويزيَّن بنماذج هندسية مختلفة. ويكون قياس السجادة عادة 2x1 م وسعرها حوالي 20 مارك.

وهناك كومة من الحولي الأبيض «الجريدي»[١] أرخص الأنواع سعراً. وحين يهب نسيم خفيف يهتز في الجانب أحزمة حمراء، ويسد مؤخرة الفتحة حمل من المرقوم وهو أغطية صوفية سميكة جدً ذات ألوان مقصبة بقياس (1,8x3,5 حتى 3x4,5) م يكفي غطاء واحد منها لتنام تحته أسرة كاملة. ويتراوح سعر الغطاء الواحد مابين 25 و 70 ماركاً، بحسب طريقة الصنع.

وهناك منصة أخرى عليها سجاد يدوي من الشرق الأدنى، وعلى كل حال فإنها لاتجاري في الكمية والجمال تلك التي تعرض في أسواق حلب (انظر المجلد الثاني) وإلى جانبها تعرض الخروج التي توضع فوق السرج بحيث تعلق في كل وقت جعبة مفتوحة الفوهة خلف الفارس وتحت فخذه.

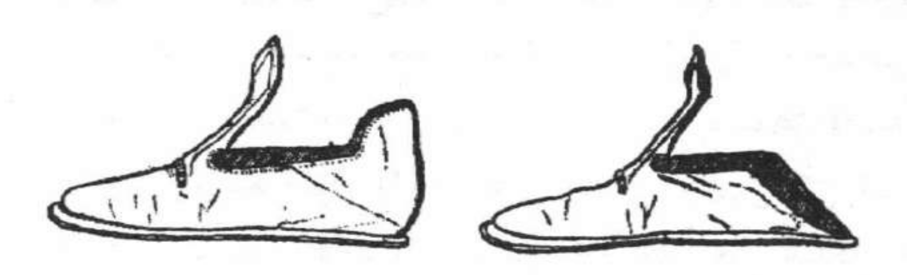
وأخيراً نصل إلى أعقاب قوس منخفض تستند أحجاره الاجرية على مجموعة من الأعمدة الضخمة، حيث يجلس تاجر وحيد يعرض بضاعته في ركن شبه معتم. إن جميع الأبواب الأخرى مغلقة وربما منذ زمن طويل لأن الحركة في الشوارع المفتوحة أفضل مما هي عليه هنا في هذه الناحية الجانبية المهملة.

وتحيط بالتاجر المعتزل بضعة بالات من القماش، وقد كانت عيناه المتوثبتان تنظران إلى الأمام دون أن يخصنا ولو بنظرة واحدة إن الشباشب الجلدية والمناشف الملونة هو كل مايعرض هنا.

ولنتوقف لحظة: بعيداً في الزاوية الخلفية تتراءى أشياء حمراء وخضراء وزرقاء وذهبية اللون. إنّها كتب يقوم الشرقيون بتجليدها تجليداً شرقياً يجعل منظرها ينم عن ذوق رفيع. وقد استفسرنا مسرورين عن السعر، فهز صاحبها رأسه وشد شفتيه بفظاظة. ثم وجهنا إليه بعض أسئلة أخرى ولم نلق جواباً. وأخيراً قال بامتعاض: لاأبيع رومياً فتابعنا سيرنا كمن صبوا عليه ماءً بارداً.

---

(١) نسبة إلى بلاد الجريد في الجنوب التونسي.



أحذية جلدية صفراء (البلغة) طرابلسية وقد جهز الكعب بحيث يطوى ويستعمل أيضاً شبشباً مثلما هو واضح في الشكل الأيمن إن النعل المسطح المأخوذ من جلد الجاموس المحتفظ بشعره يناسب السير على الرمل

لقد نسينا للحظة أن طرابلس تحتفل بعدة أعياد شريفة، يمنع فيها شرعياً التعامل مع الفرنج، فكيف والحالة تتعلق ببيع القرآن إلى كلب حقير(١).

خنجر طارقي (كميّة) له نصلتان يحمل على الذراع. إن المقبض المصلب غطي بالصفيح ولف بسلك نحاس وقد كبرت الكتابة الطارقية المنقوشة عليه بحيث تغدو واضحة الطول 45 سم السعر في طرابلس 3 حتى 5 مارك.

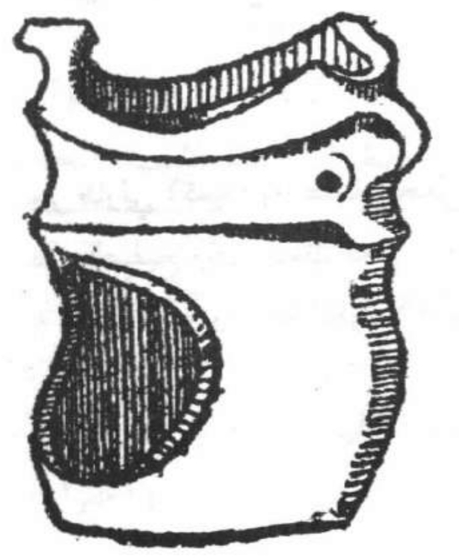
إنه واحد من المتعلمين المثقفين الذين يعتبرون بين أقرانهم أفضل بعناصر الشرق، إلا أنهم أيضاً يمثلون أكبر العقبات في وجه التقدم الحضاري. هل هؤلاء ياترى يجيبون الضباط الايطاليين بنفس الطريقة؟

(١) مثل هذه الألفاظ تتكرر لدى المؤلف ويقصد من وراء ذلك الإشارة إلى نظرة الأهالي وموقفهم من الأوربيين.

سوق الترك:

نخرج عبر قوس منخفض، نسمع همسات غامضة في غسق السوق ونجد أنفسنا بين حجرات منخفضة صفراء مثل الخشب حيث يقوم خياطون يهود بتفصيل السراويل والفرامل والسترات ويطرزون الفرملة بخيوط فضية تطريزاً كثيفاً. وإلى جانبهم يدق الإسكافيون الجلد على سندان رشيق كي تلين، وقد علّقت على الجدران دزينات من الأحذية الجلدية (البلغة انظر الشكل ص 91) التي يطوى كعبها عادة على النعل ولذلك فإن هذا الجزء يعلو عن الطرف الخلفي.

الآن يتزايد البلاط الحجري ونشاهد الاقسم لجنوبي من الشارع التجاري الرئيسي في طرابلس وهو سوق الترك. ثمة على اليمين واليسار بعض المطاعم وعلى أحد الجانبين وضعوا ثلاثة مواقد فخارية (الكانون) أو أربعة يشعلون فيها الفحم الخشبي (انظر الشكل)



إن الكانون موقد فخاري ذو لون أحمر إن الفم المفتوح يحمل في أعلاه طنجرة الطبخ ويضم نار الفحم الخشبي الذي يهبط رماده عبر شبك إلى الأسفل ويؤخذ من الفتحة الأمامية التي وضعت كي تؤمن جريان الهواء.
وهي تصنع وتشوى في المنشية ويتراوح ارتفاعه بين 20 سم (في حالة كون القطر 8 سم) وحوالي 35 سم (القطر 40 سم).

كما يوجد أيضاً مثل هذا العدد من الطناجر النحاسية الرصاصية اللون والمبيضة، وتحت أغطيتها المخروطية تطبخ الأطعمة بهدوء. وعلى الحائط الآخر أُقيم لوح خشبي يلمع من الدسم والوسخ على شكل طاولة، كما وضع أمامه لوح آخر كي يجلس عليه زبائن المطعم. والزبائن هم ثلاثة يهود ومسلم، إنهم قذرون منفوشو الشعر، تتدلى شعورهم السوداء فوق جباههم، أما الأخير فإن جسمه مغطى بأورام السفلس الحمراء. لقد استند كل منهم براحته وأخذ

يلعق من صحن فخاري معرق بالأزرق، مرقاً أضيف إليه كثير من معجون الطماطم والفلفل وتطفو فوقه بعض قطع من الأحشاء، وبين الحين والآخر تغمس فيه قطعة كبيرة من الخبز الفاتح اللون فتبتلع بعد طقطقة ومصمصة.

إن اليهودي الأكبر سناً انتهى من الطعام، وتجشأ عدة مرات ودفع الحساب ثم نهض بفظاظة، إن الزبائن ينظف كل منهم أسنانه بلسانه بينما ينظف يديه بمسحهما بخرقة كبيرة متدلية من السقف لهذا الغرض. كم يكلف الصحن؟ إن أرخص وجبة تكلف نصف متليك (2 بفنيغ) وهي عبارة عن ملعقة أو ملعقتين، وأغلى وجبه تكلف غرشاً (18,5 بفنيغ)

إن الجزء الرئيسي في الوجبة هو الفلفل الأحمر، فإذا مانفخت في الصلصة وأزحت الفلفل جانباً ثم نظرت في الماء فإنه يبدو رمادياً مثل الحديد. ويجب أن يكون الطعام حاداً كي يكون له طعم ما. لأن الطباخ (الطبخجي) يقتصد كثيراً بالدسم والمواد الأخرى التي تضاف إلى الطعام. وليس من العجيب أن يضطر المسكين إلى شرب إبريق كبير من الماء إذا ماأكل أربعة ملاعق من الطعام وذلك كي يطفىء حدة الحرارة.

الحلاق: مثال آخر دكان حلاق على النمط القديم، ليس فيه سوى حوض رخامي ومرايا في أطر مذهبة، منها ماهو حسب النموذج الإيطالي، هذه الدكاكين ذات واجهة خشبية من الخارج، تلفت الانتباه فهي أثرية طليت بالأخضر (انظر الشكل ص 94)[١] وهي ثلاث درفات يستعمل الأوسط منها كمدخل. ومن الداخل وضع على الجانبين ألواح خشبية ضيقة ومن الخلف إبريق فيه ماء، وصحن نحاسي لرغي الصابون وعلى الجدار إطار يحمل أمواساً رخيصة ولكنها حادة الشفرات. والحلاق (الحسّان) رجل جليل متقدم في السن، يلف رأسه بمنديل صوفي وحتى في أحر الأيام اتقاء الإصابة بالبرد. وعلى كل حال فإنه مايزال ثابت اليد يحلق بالموسى وينزع بعض الشعيرات بالملقط. وهذا الفن كان معروفاً لدى القدماء[٢].

---

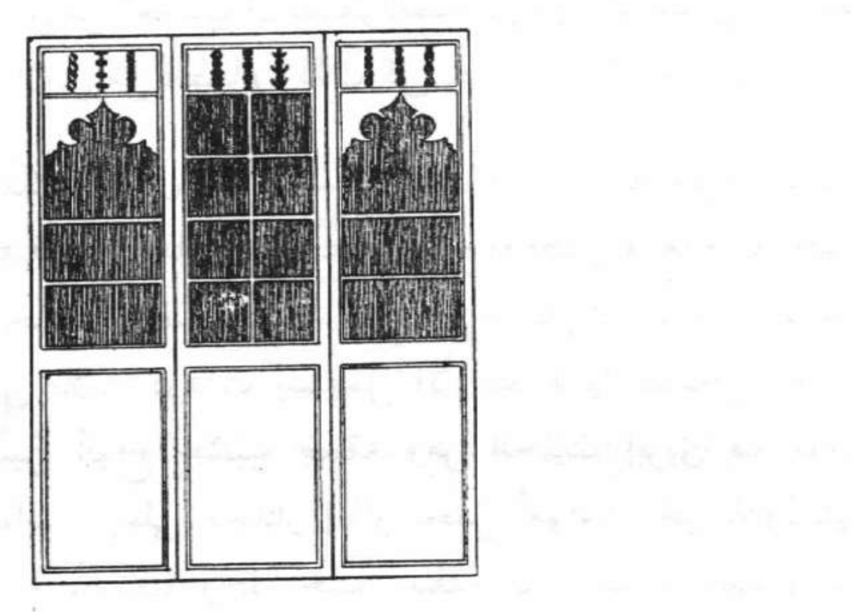
(١) لايوجد منها في طرابلس سوى نصف دزينة جميعها في سوق الترك.

(٢) إن النساء المتزوجات المسلمات واليهوديات وكذلك الرجال المسلمون ينزعون شعر العانة والإبط بدهنه =



برادة وهي مصنوعة من الفخار غير المشوي.

إن عملية الحجامة تذكرنا بالزمن القديم. فقد أجرى رجل عجوز ببالغ الجدية بعضاً من الجروح البسيطة في جلد قفا رأس رجل ووضع قرناً قد سخن قليلاً (إذا ماكان من زجاج أو صفيح يدعى مكاره) بعد أن ثبته بتدويره عدة دورات. وقلما تنقضي خمس دقائق حتى يخر بارداً، وينتهي بذلك الفصد. ويلجأ إلى الحجّام في حالة وجع الرأس والدوخة وزغل العينين والشعور بالوهن في الذراعين والرجلين وآلام الصدر والسعال الجاف.



باب دكان قديم في سوق الترك الارتفاع 180 سم
مدهونه باللون الأخضر أو الأزرق الدرفة الوسطى مدخل.

= برماد فحم الحطب أو الكلس ثم ينتزعونه بعدئذ دون ألم شديد. وفي بعض الأحيان يستعمل مرهم رصاصي تؤخذ مادته الرئيسية من الأرزنيق.

ينبغي أن نبدي إعجابنا بالحسّان في فن أرفع شأناً، ففي مدخل الحجرة شبه المظلمة ينطلق صراخ، إنه صوت رجل يعلو بالسباب، وولد يبكي ويستنجد بأمه، وقد انفتح الباب وخرج منه ولد يبلغ حوالي السابعة عشرة من العمر، وهو يعاني من ألم في أسنانه، لقد أحضر الحلاق من زاوية مظلمة أداة صغيرة، ولف خيطاً أخضر حول المقبض الخشبي المعترض للسيخ الحديدي الصدىء، ثم أدخله في فم الولد بعد أن فتح عنوة. خلخلة نحو اليسار ويسيل الدم الغامق من فوق الشفة، وبروح هادئة يبدل السيد الطبيب (الدكتور) القطعة الحديدية، ويضعها في فجوة الآهات، ثم خلخلة نحو اليمين، في هذه المرة، ويبتسم ابتسامة الرضى، ويعرض السن الملطخ بالدم على المتفرجين ومثله مثل فنان ساحر على خشبة المسرح.

وبينما أخذ المريض يتمضمض بالماء متأوهاً، ويملأ الدكان بصاقاً وشرع المتفرجون يتلون آيات من القرآن الكريم، يضع المنتصر السن على لوح خشبي في الجدار وإلى جانبه أعداد كبيرة من مثل هذه الأسنان المخلوعة، مبيّناً بذلك لكل حاسد أن الحلاق طبيب ماهر أيضاً وليس دجالاً يدعي الطب.

البوريك:

بعد أن انصرف الجمهور، غادرنا الحاج أحمد وتابعنا جولتنا على زاوية الزقاق المسقوف الذي يؤدي يميناً إلى برج الساعة، تزودنا بالتبغ التركي ووجهنا أنظارنا نحو الدكان المجاور. إنه بوريكجي يوناني. ويبلغ سعر قطعة البوريك الدسمة المربعة (24 بفنيغ) وهي مصنوعة من دقيق القمح، وسمن الغنم، ولحم الخروف المفروم والجبن والبصل، كما يبيع البقلاوة[١] المغمّسة بالقطر (8 بفنيغ)

(١) كتبها المؤلف البوقلاوة.

وهي تصنع من الدقيق وسمن الغنم وأعشاب الحساء المفرومة والقنبيط والسبانخ أو البصل الأخضر وهذا مالايطيب لنا شمه أو تذوقه.

إن رائحة سمن الغنم تفوح في الزقاق إلا أنها على مايبدو قد أثرت تأثيراً بالغاً على كلب ذي ثلاثة أرجل وعلى بعض البدو الذين يحملقون ببلاهة.

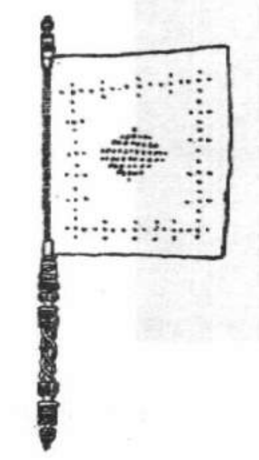


اللوحة 4-1

رجل يهودي وزوجته بزيهما المحلي، يلبس الرجل الكبوت الطويل والسروال ذا الثنايا (سروال بروشي) والزوجة تلبس قميصاً طويل الأكمام (سورية) وترتدي فوق السروال السداد أو الحزامية، وهي تغطي بدورها بالحولي، وقد زينت عنقها بقطع ذهبية نمساوية نصف مخمسة

نعود ثانية إلى سوق الترك، على اليمين واليسار دكاكين (يسمّى واحدها مخزناً أيضاً) طابعها ليس شرقياً تماماً. وقد وضعت أمامها أكياس مفتوحة من الأعلى، وهي مليئة بالبازلياء والرز والدقيق والبرغل والبندق والجوز واللوز الغض أو اليابس حسب الفصول.

وعلى طاولة الدكان القصيرة المعيقة للمدخل وضعت في أوعية زجاجية كبيرة أنواع مختلفة من العطور ومواد البقالة مثل أقراص السكر من النمسا، والشاي من ألمانيا والقهوة والزبيب والزيتون، البهار الأحمر والأسود. وإلى جانبها لفت قبابيع السكر في ورق أزرق (يسمى واحدها رأس سكر) وعلب بيضاء تحتوي على شمع بلجيكي، وهناك علب فيها معجون الطماطم، وعلب الكبريت من إيطاليا، وصابون فرنسي رخيص. ومن السقف المنخفض تتدلى في تسلسل ملون اسطوانات زجاجية ألمانية وأكاليل من السجق البني القاتم تفوح منه رائحة الثوم من استانبول (يدعى مشمت) وأوعية شاي وقهوة مطلية، (انظر الشكل ص70) ومكبات خيوط (مقط) ومصابيح للمطبخ من أرخص الأنواع، وسلاسل من التين المجفف، إنها الفوضى! ونتيجة لضآلة النور في الدكان، وطبقة الغبار فإن الأشكال قد اختلطت وتداخل بعضها ببعض.



مروحة يصنعها خراطو الخشب اليهود في شارع البحر. ويتكون هذا العلم من لحاء ناعم والمقبض مأخوذ من عاج الفيل السوداني. السعر حوالي 10 مارك للقياس 32 سم، و15 ماركاً للقياس 40 سم، وأما المراوح البسيطة المصنوعة من خشب الزيتون فيتراوح سعرها بين ثلاث أرباع المارك ومارك واحد.

إن مثل هذه الدكاكين كثيرة قلما تتباين، لابل إنها تتشابه جميعاً بالشعرة. إن صاحب هذا الدكان ذو قسمات ليبية بربرية يلبس الزي الملون، وصاحب الدكان الآخر تركي يلبس لباساً إفرنجياً. وهما يتعاملان عادة بأسعار ثابتة، وبذلك

يتميزان عن التجار اليهود وصغار التجار المسلمين، وأمام بعض الأقواس يجلس صاحب الدكان على كرسي في الشارع، وهو يدخن نرجيلة ويلعب مع جاره النرد (الطاولة). ذلك التاجر يجلس مع صديقين يزورانه، إنهم يجلسون منذ عدة ساعات ويتأملون دخان سجائرهم الأزرق، ويتبادلون بين الحين الآخر ملاحظات حول المارة.

إن وضع اليهودي ذي القيافة الجديدة الذي غاب خلف الزاوية، ليس على مايرام، إذ أن أصحاب تجارة القومسيون الأوربيين يطالبون بإلحاح بسرعة الدفع باعتبارهم وكلاء لشركاتهم، إذ أن المدة المعتادة للدفع والبالغة ستة شهور قد جرى تجاوزها منذ وقت طويل. إلا أن هذا لايؤثر كثيراً على شاوول، لأنه لايملك الآن شيئاً فيما لو أراد بيع دكانه الفارغة تقريباً وهو يعرف أن بوسعه بعد عدة أسابيع أن يفتح دكاناً صغيراً تخص أخاه.



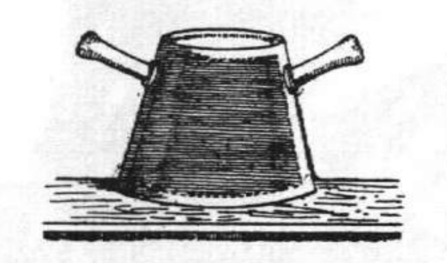
اللوحة 4-2 فتيات من طرابلس: على اليسار مالطية، في الوسط يهودية على اليمين ليبية.

التنكجي والطرابيشي

نريد أن نشتري من دكان علبة كبريت إيطالية، إلا أننا وجدنا المدخل مغلقاً بانزال الشبك (الستره). وهذا يعني أن صاحب الدكان قد ذهب إلا أنه عائد بعد حين. وربما ذهب إلى المسجد لتأدية فرض الصلاة، وعلى بضعة خطوات يدق ويخشخش التنكجية اليهود. إن دكاكينهم تتكون عادة من خزانة جدارية فقط يجلس فيها الأب مع أولاده، وهو منهمك دائماً في صنع صفائح نفط من التنك (تدعى تنكة) وأغراض رخيصة، مثل ركوة القهوة، وإبريق الشاي (براد) ويقوم بقولبة بطنه على قضيب مدور أملس كما يصنع مصابيح (فنار)، ومقاحف الوسخ، وصفائح للخبز ومصبات (محقن) وعلب وأباريق.

إلى جانب هؤلاء تتحلق مجموعة من الجنود العثمانيين بمنظرهم المهلهل حول حجرة فيها ولو يهودي يمسك بآلة تثير الإعجاب. إن شكلها مثل طنجرة مقلوبة من النحاس (قالب) إلا أنه مزود بمقبضين خشبيين جانبيين. ويقوم ابراهيم الشاب بالضغط بقوة ذراعيه وبطنه على القالب، الآن يرفع قالب النحاس ويظهر طربوش يتصاعد البخار منه، إنه طربوش أحمر كان ملبساً على نواة حديدية محماة وفي مثل هذا الجهاز يكوى الطربوش القديم بين الحين والآخر.

ثمة إلى اليمين زقاق صغير يؤدي إلى البحر، وقد تتبعناه للحظة فشاهدنا اثنين من صانعي الأشياء الشرقية. هاهو أولاً الحلوجي (الحلواني) التركي هو على الرغم من الوسخ شخصية محببة إلى الكبار والصغار، لأنه يصنع حلوى استانبول المرغوبة، وهي معروفة في ألمانيا باسم العسل التركي، كما ويصنع الحلقوم الذي يبزها رواجاً ويباع على شكل قطع صغيرة.



مكبس الطربوش (القالب) يوجد تحت الغطاء النحاسي نواة حديدية محماة، ويسوى تحتها الطربوش ويكوى ويزين. ويوجد إلى جانبه عدة مقاييس

أما الصورة التالية الأكثر إبهاماً فيمثلها النحاسون الأرمن في سوق النحاس. هنا ترى الصناع الملطخين بالسواد وشبه العراة، وكير النفخ الذي يقوم عليه

ولد، ومنظر الجمر المتقد، والسندان الضخم والمطرقة الحديدية الصدئة كل هذا يجعلنا نكاد ننسى الشرق. إلا أنه وضعت على كنار الجدار طناجر للبيع من مقاييس مختلفة ولها أغطية مخروطية، وأطباق مدورة ذات كنار نابذ وركوات ذات بطن وفوهة عالية ومسكة قوية (انظر الشكل) وفي الأسفل وضعت طناجر كبيرة جميعها حمراء اللون. وتتصدّر هذا المنظر طنجرة على صندوق أبيض لامع كما لو كان من فضة صقلت من جديد.

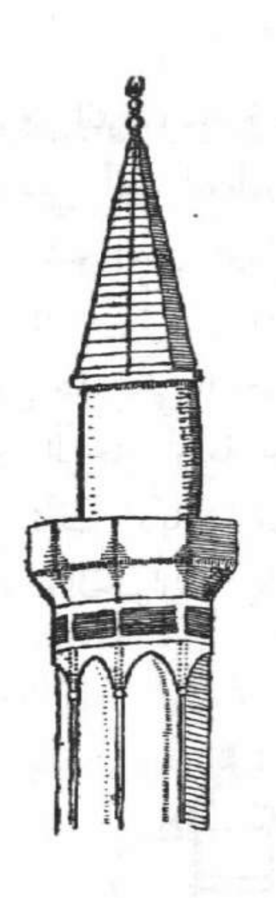
إن خادمنا الأسود فضولي كالمعتاد، لقد وضع يده على الطنجرة دونما حذر، إلا أنه تراجع عنها مرعوباً وقد علا صراخه وأخذ يرقص باكياً والمشاهدون يسخرون منه. كانت الطنجرة قد بيضت لتوها ومازالت بالغة الحرارة.

نعود ثانية إلى سوق الترك، أمام سوق النحاس يبرز دكان صغير بالغ النظافة، إن صاحبه طرابلسي أنيق المظهر، لقد حيانا بلطف ورفع يده اليمنى حتى الجبين. إنه الحاج سالم الذي كثيراً ماكنا نتحدث معه عن الشام ومصر. فقد حج في شبابه إلى مكة سيراً على الأقدام وسار على طول ساحل الشمال الأفريقي. أما الآن ففي كل عام تأتي الباخرة (حبق) لتحمل الحجاج على ظهرها مقابل 48 ماركاً وتستغرق الرحلة أربعة عشر يوماً إلى جدة. إنها رحلة سريعة ومريحة. إلا أن حجاج تلك الأيام لديهم مايحكونه عن الجروح، والأقدام المشققة بسبب الإجهاد والحرارة، والجوع والعطش، وهجمات البدو، والضيافة.



وعاء القهوة

إن الحاج سالم هو الآن صاحب البقالية السعيد، هنا علقت سلال بيض (دحي) مربوطة بأسلاك، وعادة ماتباع كل أربعة (حارة)(١). وإلى جانبها صندوق بصل، وقرعة حمراء مشقوقة، وإن لونها فاقع تجاه البلح شبه الجاف، ولون البرتقال الوهاج (ليم حلو، ليم برتقال) واليوسف أفندي (المندوليا) والليمون الحامض الأصفر (ليم قارص). وقد وضعت على لوح بعض أقراص الزبدة الطازجة الصفراء التي قلما يتناولها الشرقيون. وبجانبها يتكوم جبل من الخبز المدور، وفي أوعية زجاجية مدورة مغطاة وضع شاي أسود وأخضر وبهار وسكر ولوز، ووراءها تقوم أوعية من الصفيح تحتوي على النفط وزيت الزيتون وسمن الغنم.



مئذنة جامع سوق الترك
الحيطان بيضاء، بلاط
الرواق أزرق فاتح، السقف
الخشبي أخضر، العقد
السفلي أحمر والعلوي أخضر.

يرتدي بعض اليهود الزي الأوروبي وينظرون بابتسامة ماكرة، إنهم تجار متعددو النواحي لم يلحظوا باهتمامنا إلا للحظة على الرغم من أنهم يمثلون

---

(١) في بداية الصيف يباع البيض بأرخص الأثمان إذ يصبح سعر الحارة 13 بفنيغ ويبلغ سعرها في الشتاء 32 بفنيغ.

التعبير الصحيح عن الشرق حالياً، لأن اختلاطهم المثير للسخرية يمثل طابع الشرق الذي يذخر بالموروث القديم ويتطلع نحو الجديد الأجنبي. كل هذا موجود بعضه إلى جانب بعض. جزادين كرتونية رخيصة، أوعية زجاجية بوهيمية مزوقة، أباريق نحاسية، بوابيج لماعة مع لؤلؤ زجاجي صارخ، سكاكين جيب صدئة، عقود كهرمان زجاجية، مشارب للسجائر، علب كبريت عليها صور أجسام عارية، شالات ملونة، مرايا عديمة القيمة، ربطات عنق (كرافات)، قبّات بيضاء بديلة، طرابيش حمراء، سيوف ضباط لماعة وتحف صغيرة وغيرها. ولكن أين أذهب إذا ماأردت أن أذكر هذه التفاهات بجدية وقد عرضت بأسعار غالية. إن أفضل ماتقارن به هذه السلع (الكراكيب) هو الأكشاك التي يعرض فيها كل شيء في الأسواق السنوية لدينا (ألمانيا) ومعظم (الكراكيب) من صنع أوربي بريطاني وألماني، مازالت تجد في الشرق صدى ورواجاً.

تتابع سيرنا. فنمر بصيدلية مالطي ، يجلس أمامها على الدوام بعض الموظفين المدنيين العثمانيين للدردشة، ومقابلها بوابة جامع سوق الترك (انظر الشكل ص 102) التي زخرفت زخرفة جميلة وأما مجموعة دكاكين الخياطين فإنها لاتقدم للمشاهد مايلفت النظر.

إن أثاثها يتكون من بعض آلات الخياطة وطاولة وعدة كراسي، يجلس عليها الخياطون اليهود، ويندر وجود مالطيين وإيطاليين بين الخياطين، ويقوم هؤلاء بأعمال القص والخياطة فوق لوح خشبي كبير يضعونه مستوياً فوق ركبهم، وممن لم يشدوا أيضاً انتباهنا الإسكافيون اليهود واليونانيون الذين يفصلون الجزم والأحذية وفق النمط الأوروبي.

ومما يؤسف له أن شخصاً مشبوهاً قد باغتنا، إنه يهودي أحمق يرتدي لباساً أوروبياً ويدعى سولاس، وهو معروف كقواد، ودليل للأجانب وبائع بطاقات تذكارية، كل شيء من الدرجة الأولى حسب تأكيدات هذا الأحول المغسول بدم الكلاب (الماكر)، إنه في هذه اللحظة يقرظ أمامنا البطاقات التقليدية، البطاقات التذكارية من طرابلس، البطاقات الجميلة. لقد أوضحنا له للمرة المائة، أنه قد زودنا بذلك منذ وقت طويل، فما كان ذلك يزيده إلا إلحاحاً

لكي يكسب بضعة غروش وأخيراً تقدم هذا الوغد بعرض كبير إذ أشهر أمامنا مجموعة من الصور الداعرة، وأغلبها فرنسية وإيطالية من النوع الذي تغص به جميع المدن الساحلية في الشرق.

من خلال هذه الصور لايأخذ الشرقيون فكرة طيبة عن أخلاق الفرنج، إلا أنها جميعاً تظهر الجميلات الأوروبية التي تمارس الدعارة، إلا أننا جابهنا هذا الجو الهائج ببرودة. وحتى أثناء سيرنا أخذ يعرض علينا أثاثاً عتيقاً في حالة جيدة للشراء أو الإيجار. إن سولاس حشري يصعب التخلص منه فإذا ماقابلنا بعد خمس دقائق في مكان آخر، تعود اللعبة من جديد، ولايعلم المرء في نهاية الأمر إن كان فيه مخ.

ثمة مجموعة أخرى من الجالسين النظيفين والقذرين إنهم يبيعون الخبز، كما توجد الدكاكين التي تبيع جميع أنواع السلع بالإضافة إلى المقاهي والمخزن الكبير صاحبه الكريتي الأصم وثقيل اللسان وهو يبيع البسكويت والشوكولاته وغيرها من البضائع الأوربية، وبذلك نصل إلى آخر سوق الترك.



نماذج الطرابيش: في الأعلى الطاقية العربية وهي طربوش قصير ومدور ويدعى طربوش الغرب، أي المغرب الاسلامي وهو سائد أيضاً في طرابلس ويلبسه في الغالب المسلمون من أبناء البلاد وهو أحمر ذو شراشيب صوفية طويلة زرقاء أو سوداء، وتلبس تحته دائماً طاقية من الكتان الأبيض لامتصاص العرق وتدعى «معيرقة» في الوسط الطاقية العثمانلية وهو طربوش طويل ذو سطح مستوي وشراشيب حريرية قصيرة، يلبسه الأتراك وغالبية اليهود. وفى الأسفل الطربوش: وهو طويل بشع يدعى طربوش مصر.

في هذا السوق تنبض الحياة التجارية في طرابلس ممتازة بأقصى نشاطها. إنها ذات طابع شرقي أصيل إلى حدٍ بعيد. إن معظم البيوت هنا على مستوى

الأرض، وهي مكوَّنة من دكاكين تنفتح على الشارع، ومن فنادق في الجهة الداخلية، أي أنها تمثل مأوى للبضائع والمسافرين. أما الزقاق فمسقوف بألواح تتوسطها فتحة يبلغ عرضها أكثر من متر، تعرش عليها أغصان العنب المورقة وتتدلى منها في الصيف عناقيد العنب.

إن السقف الذي يصد لهب أشعة الشمس العمودية يساعد على تبريد نسبي للجو وينشر ظلاً كثيفاً محبباً للنفس ويشعر بالراحة التامة من يدخل إلى الشارع المسقوف قادماً من طريق عريض مكشوف تتعرض أرضه وجدرانه إلى أحزمة الضوء وأشعة الشمس التي تزيد وطأة الحرارة على الإنسان ، وفي سوق الترك الظليل دائماً يتحرر المرء من هجمات أشعة الشمس، ومن تحرشات سولاس أيضاً ويستطيع أن يجلس بطمأنينة في أحد المقاهي الواقعة في طريق الباب ويتأمل منه تيار الناس الجذاب الذي يتدفق أمام ناظريه.

الواجهة البحرية (المارينا):

إن الامتداد الشمالي لسوق الترك يدعنا نمر بقاعات تضج بطقطقة الخياطين، وضربات الإسكافيين وعدد من المدارس المخصصة للدعاية الإيطالية التي تقوم على ميدان صغير جداً، وهو يقدم لنا وسطاً جديداً تماماً، وهكذا تناقضات بالغة ومفاجئة، وحتى في مدن أصغر، لايعرف لها مثيل في غير الشرق. هنا لاأثر لسقف الشوارع المعهود في الشرق، ثمة نوافذ كبيرة ودكاكين خشبية خضراء، تلتصق الحانة بالحانة، وتمتاز واحدتها بالاستطالة والعمق حيث تتصدرها خزانة تغص بالزجاجات وأقداح الشراب، وتقوم خلفها براميل داكنة اللون. أما الطاولات والكراسي البسيطة فإنها تنتشر مبعثرة حتى الرصيف ويجلس عليها رجال سمر، يوحون بالجسارة، ويبعثون نظرات خبيثة وهم يرتدون ثياباً سوداء خاصة بأيام العطل وقبّعات من اللباد عريضة الإطار.



اللوحة 5-1 يهودية من شمال افريقيا.



اللوحة 5-2 حياة الحريم في طرابلس، من اليسار إلى اليمين فتاة مالطية . يهودية فتاة ليبية بربرية فتاة يهودية .

هي ذي رقاب صلبة تبرز من قمصان صوفية، وأكف تترصد الكؤوس الوسخة فهنا ينسى صيادو الإسفنج اليونانيون عناء أعمال الغوص المنهكة بعد انتهاء موسم الصيف الذي يدر عليهم دخلاً بمعدّل 5000 مارك للشخص الواحد، وينقلون الأجر إلى الرجل والمرأة. وهناك يترنح بعض الغلمان المتوحشين فوق البلاط وقد تشابكت أيديهم واحمرت عيونهم مثل الثيران وهم ينشدون أغنية وفجأة تطير قطعة خمسة فرنكات أمام رأس شاب أسود ينوء حماره اللاهث تحت جرار الماء وبينما يمضي الحمار الأشهب يضرب الأرض بحافريه بلا كلل ولاملل، هرب الشاب الأسود وعلى محياه ابتسامة شماتة، وقلما يزيد إجمالي رأسماله عن ذلك. وعلى ناصية الشارع يصلصل حنطور (كروسة) وقد انحشر فيه ستة يونانيين مثل إسفنجات صغطت في جراب، وعلى ركبهم مثل عددهم من المومسات وقد تبرجن بألوان فاقعة. وأخذ زملاؤهم يعربدون ويصرخون في الحانة بأصوات منكرة تحية لهم، ورموا جدار البيت بزجاجة مليئة بالشمبانيا فتناثرت زبداً وشظايا.

مئذنة جامع الزيتون[1] الواقع على شارع البحر، إن الجدار مبيّض بالكلس، والسطح الخشبي أخضر والعقدة حمراء والهلال أصفر.

هذا عدد من الخمارات تنتشر منها رائحة الزيت الرديء والسمك وهو الطعام المفضل لدى اليونانيين، هنا ترتمي أوراق اللعب الملوثة بالدسم على طاولة مغطاة بمشمع، فيما اللعنات والسباب تتعالى، والأقداح ترتطم، وتسقط الصحون الفخارية المدهونة، وقد أحضر أرغن صقلي طويل وبدىء العزف عليه

(١) إنه على الأغلب جامع سيدي سالم.

بنوبة عالية، وانخرط في معمعان المنافسة فونوغراف أزرق من الحانة المجاورة. إن أصحاب الحانات المتعادين يتابع بعضهم بعضاً في كل لحظة والنساء المتهتكات يطوفن الصحن، بينما يتمدد المشاهدون اليونانيون على الكراسي مبدين إعجابهم، وينظر بعض المسلمين بعيون جائعة، وأما ماسحو الأحذية اليهود (الشياط) فيدقون بحماس على صناديقهم.

ما من هدوء في الواجهة البحرية (المارينا). إن مجموعة من الناس تتقدم نحونا وهم ينشدون بصوتٍ عال أغنية تتكرر برتابة (هيالي) إنهم أفراد طائفة الحمالين وقد ارتدى كل منهم قميصاً وسخاً وطربوشاً. إن علامتهم تتكون من الرزام (حمالة) طولها مابين مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار ومجموعة حبال تتدلى على الكتف. دائماً يقوم اثنان بجر الحمل. إن ذلك الذي يقف أمامنا رجل معقد، إنه ملك الحمالين (رئيس) لقد وضعت مجموعة منهم الرزام فوق بعضها على شكل نجمة، إلا أن الهيكل الناجم عن ذلك انحنى مزقزقاً تحت الضغط عندها ثنا رئيس الحمالين ركبتيه عليها وأعطى الإشارة إلى الحمالين للسير نحو الأمام بخطوات تتوافق مع تصفيق ايقاعي وأخذوا يتقدمون ببطء نحو الأمام منشدين هيالي هيالي وتعالت زفرات الرجال الذين يسبحون عرقاً ويسمع صوت الحبال الخافت وتصفيق الرئيس.

نتابع سيرنا ونشاهد عدة دكاكين مالطية وفيها دلاء وحبال، وقماش أشرعة، وبراميل قطران وسلع حديدية، وجميعها لم تجتذب أنظارنا، وهكذا كان شأننا تجاه الطاولات البسيطة لبعض باعة الخبز، وكذلك منظر أكياس الدقيق في الأفنية الخاصة بالتموين، نقف الآن عند مفرق طرق وهو قريب من المفرق الواقع قرب الساعة وهو الأهم والأكثر حيوية وتنوعاً في المدينة، وإذا ماسرنا في طريق مستقيم يرتفع زقاق هادىء باتجاه السور الشمالي للمدينة وهو مبلط بحجارة بارزة وإلى اليمين ينزل الطريق إلى الجمارك والمرسى، ويساراً يؤدي الشارع إلى باب البحر، وقد سمي كذلك باسم باب أزيل في سنة 1904 وكان يؤدي إلى المرفأ. هنا تسود أيضاً حياة مغايرة. لاتوجد حانات وبالتالي لايوجد يونانيون. إلا أنه يسود العنصر المالطي.

وما خلا مجموعة من الحمالين الذين يتحدثون فيما بينهم وقوفاً أو جلوساً على النواصي ، وفيما عدا بعض الفتيان الذين يجوبون الشوارع حاملين القفة التي يوصلون بها مشتريات بعض الناس من السوق إلى بيوتهم مقابل متليك واحد حتى ثلاثة متليك(4-12 بفنيغ) ولذلك يدعون أيضاً حمالين، فيما عدا هذه النماذج من المسلمين يتحرك في باب البحر أشخاص يرتدون ملابس أوربية وتوجد هنا دكاكين الطيبات (ديليكاتس) وقد تحدث عن طيباتها مالتزان قبل نيف وأربعين عاماً. إلا أنها في ذلك الحين لم تكن بهذه الضخامة التي هي عليها الآن، إذ أنه يمكن الحصول على كل شيء هنا وقد تكون الأسعار أغلى في بعض الأحيان وأن محتواها قديم أوفاسد: سمك الطونّة بزيت الزيتون، السردين الجبن المصنوع من حليب الماعز المالطي، وكذلك أصناف مثل جبنة البارميزان الصلبة والفوغونزولا الطرية الإيطالية، وفي الشتاء تتوفر المارتديلا ذات القطع الكبير الأحمر اللون وهناك تتباهى على كنار الجدران زجاجات خمر شيانتي التوسكاني ذات البطن المنتفخ، ومجموعات كاملة من الكونياك الفرنسي، كما تتكوّم مئات المعلبات من الصفيح والزجاج وفيها زبدة ميلانو والسردين ولحم فخذ الخنزير، وحتى معلبات الهليون، ولحم البيف الأميركي، والمربيات الهولندية، والشوكولاتة السويسرية، والملبس الألماني والكعك الإنجليزي الخ.



الجرة، تصنع من الفخار المدهون باللون الأصفر وترسم في أسفلها خطوط عرضانية بنية وخطوط العنق بنية، والمقبضات أخضران.

وفي الواجهة البحرية (مارينا) توجد أيضاً أربعة أو ستة دكاكين لبيع لحم البقر واليهود وحدهم يبيعون الأجزاء العليا من الذبيحة، أما الأجزاء السفلى فيبيعها النصارى.

إن الأسعار ضئيلة. وفي الصيف يبلغ سعر الأوقة (1,25 كغ) مايعادل (70 بفنيغ) وفي الشتاء (1,25 مارك) ونوع القطعة متشابه.

وفي الواقع تبين عند الأكل أن اللحم أغلى مما يبدو، لأن الحيوانات لاتعلف جيداً، وهي صغيرة وقليلة اللحم، ويبدو أن النسيج المتكون ليس مغذياً، وفيما خلا ذلك فإن مايرمى من العظام والشحم يشكل نسبة كبيرة من الوزن. ويتراوح سعر اللسان البقري المتوسط الحجم مابين 0,80 حتى مارك واحد، وإذا طبخ من الطماطم يعتبر من الوجبات المفضلة لدى الأوساط الغنية.

إن المسلمين لايرغبون لحم البقر إلا نادراً، بل يفضلون لحم الضأن وهو الحيوان المرغوب للذبح في الشرق، وهو في طرابلس من النوع ذي الإلية، ويهبط السعر في الصيف حتى (55 بفنيغ) ثم يصعد في الشتاء حتى 1,30 مارك، ولايبزّ الخروف الأوربي في جودة اللحم وكميته. والآن بعد الاحتلال الايطالي فإن الأسعار قد ارتفعت ارتفاعاً ملحوظاً.



مدخنة طرابلسية (بابور) على شكل قبة

ولكن، ماهذا؟ حامل الصولجان، وعربة النصر؟ نظرنا إلى الأعلى فشاهدنا مبنى رصاصياً من المرمر وعليه أشكال منحوتة، وقوساً ذا ثماني زوايا يتوسط دكاكين السمك والخردة. إنه أهم وأقدم مبنى أثري في طرابلس، وهو قوس نصر روماني قديم، ويعتبر الأثر الوحيد المتبقي من مدينة أويا إذ يعود تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، وهو مغروس في وسط وسخ وقاذورات الزمن الحاضر الذي لايعرفه، وربما يضيق به ذرعاً.

يعيش هذا الشكل المربّع في ذاكرة جيل كان يقدّره على وجه أفضل، إلا أن الحياة التي تدور حوله منذ حوالي خمسة عشر قرناً مغايرة لذلك تماماً.

غادرنا هذا الشاهد الكلاسيكي[١] غارقين في الأفكار، وقد أدخلت صورة مالطية الصفاء إلى نفوسنا كانت ترتدي تنورة سوداء تعلوها قطعة من الحرير الأسود أيضاً وهي تغطي الرأس فلايظهر سوى الوجه وتسمى (مقنع) باللغة المالطية. وأما الوجه فبيضاوي مدور أسمر اللون تشوبه صفرة. وأنفها طويل، متناسقة القوام ولكنها صارمة، وقد أثارت فينا عيناها نظرة فضولية (اللوحة الرابعة الشكل 2 ص 99).

الحارة:

أمام المدخل الملون البالغ الجمال لجامع قرجى، ومئذنته العالية هي الوحيدة في طرابلس التي تحمل طابقين (انظر الشكل ص 107) ينعطف الطريق يميناً إلى زقاق ضيق يستمر حتى السور الغربي للمدينة، وفي مقدمته يبدأ الحي اليهودي (الحارة).

إنه بعد ظهر الجمعة، أي مساء اليوم السابق ليوم السبت، اليوم السابع، من الساعة السادسة وحتى السادسة من بعد ظهر السبت لايلمس اليهودي النار ولاالنقود. جميع دكاكينهم مغلقة، ويقال إنهم قد تزودوا اليوم عن الغد، ولهذا خرج الجميع إلى الشارع، ولهذا السبب فإن الحياة في هذه اللحظة في الحارة بالغة التنوع والحركة والبهجة، وهذا لايحدث إلا يوم السبت نفسه وقد أخذنا ندور بمشقة في الزقاق الضيق الطويل في البداية شاهدنا بيوتاً مؤلفة من طابقين وواجهات ذات نوافذ كبيرة مثل النوافذ الايطالية. ثمة دكاكين خضروات، وبعض المقاهي التي يقوم على بعضها بربر ليبيون. في الصباح أمطرت، فأوحلت الأرض غير المبلطة وارتفع الروث الطيني وقد رشت نثراته الناس حتى الرقبة،

---

(١) حبذا لو تقوم أوساط أوربية بشراء هذا المبنى وعزله وهو أمر لاينتظر من العثمانيين القيام به وربما فعل الإيطاليون ذلك.

لئن كان الغبار يزعجنا في شوارع الشرق، فإن الوحل يجعل المواصلات في الشتاء عسيرة، وفي بعض الزوايا يمكن أن تبلغ الأمور من السوء حداً يجعل المرء معزولاً لعدة أيام.

مئذنة جامع قرجي.

كم يتزاحم النّاس الآن، فليتصق الجسم بالجسم والثوب بالثوب، إنهم يتدافعون ببطء وبسرعة تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف. كم مئات من القمل يمكن أن تكون تجوب ثيابنا الآن، وأية روائح تفوح مقابلنا من الأفواه التي تسعل أو تصرخ! أنظر إلى العيون العمشاء التي غطتها إفرازات صفراء وبيضاء، وإلى الذقون التي علقت بها بقايا الطعام، إلى شعر الرؤوس الملبدة، إلى اللعاب الذي يتصبب من زاوية الفم، وإلى رذاذ البصاق المتناثر مصحوباً بالأصوات الجافية! وجوه ورؤوس لم تغسل، متقدمون في السن يملأ الوسخ تجاعيدهم، وروائح تجشؤ مقرفة ـ ذلك هو شعب الحارة.

إلى الأمام هناك مايعيق السير في طريقنا، فقد وقفت مجموعة من الناس أمام محل قصاب حيث يقوم بعض الرجال بالذبح بسكاكين صدئة. لقد وضعوا على مصطبة رأس ثور وعدداً من رؤوس الغنم، يتدلى منها طرف اللسان الأزرق، بينما العين بلورية جاحظة، والدم الغامق يخضب الصوف وقد علقوا على أحد الحوامل جميع أنواع الأحشاء، حتى أن الوسخ الذي تجمع على الجدران خلال سنوات طويلة جعلها غامقة، وهذه الاحشاء تشكل مادة العشاء الاحتفائي البدائي. هوذا ملطخ بالأحمر وقد وضعوا عليه الكبد والكرش والضروع، والخصى. وتلك امرأة متقدمة في السن تساوم على الأخيرة بصوتها الرنان، فقد وجدت أن السعر المطلوب وهو متليك ونصف (6 بفنيغ) غال، إلا أن اللحام وقف ضدها بصوته وحركاته، ولكن العجوز نالت مبتغاها.



اللوحة 6-1 طرابلس: نموذج من الأقواس القديمة عبر الشوارع العديمة المنافذ في المقدمة ليبي بربري وقد ارتدى لباساً جيداً.

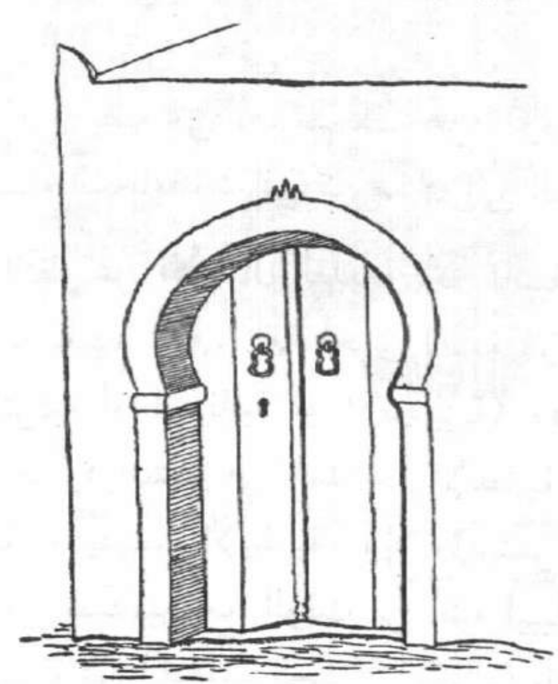


اللوحة 6-2 طرابلس: نموذج للشارع العريض ذي النوافذ في المدينة الجديدة (شارع كسار، النظر باتجاه الشمال الغربي). المبنى الطويل في الخلف يساراً هو مدرسة الفنون والصنائع العثمانية.

حين استأنفنا سيرنا حيانا يهودي بإزاحة قبعته. كان يرتدي زياً أوربياً ويترفع بذلك عن أبناء جلدته. إلا أنه وسّخ ياقته العالية جداً، ذلك أن جهله البالغ يؤدي به في كل مرة إلى تعديل وضعها. ومثل جميع اليهود في طرابلس فإنه أخذ يدعونا بإلحاح ولطف لكي نشرف بيته بزيارة.

ولكننا نعرف أنه يريد أن يتباهى أمام جيرانه بعلاقته الوطيدة مع الأوربيين وأن يقدم لنا مفهوماً عن تدبير منزله على الطريقة الإفرنجية. في ذلك الحين كانت تجلس أمه السمينة على مقاعد حجرية في الفناء الداخلي، وبعض أخواته الشابات كن ينظفن الأطباق، ورحبوا بنا.

كان يستند على الجدار زوجان يهوديان شابان (انظر اللوحة الرابعة ص 97) مازالا يتمسكان بالزي القديم. يلبس الرجل الكبوت، وهو معطف مناسب للخروج، أسود اللون ويلبس تحته السروال الأزرق السماوي (سروال البروشي)[١]، إنه من القماش ويصل بثناياه الواسعة حتى منتصف الساق ويكاد الجزء الخلفي منه يلامس الأرض أما الفقراء فإنه يرتدون عوضاً عنه سروالاً عادياً من الكتان الأبيض وهو بنفس الطول، إلا أن المسلمين يفضلونه طويلاً بحيث يصل الكعب



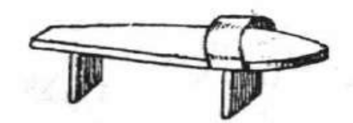
باب منزل بسيط في طرابلس وحوله إطار مطلي بالكلس الأبيض

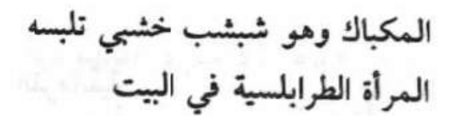
(١) نادراً مايلبسه مسلمو طرابلس، وغالباً مايرتديه قواصو القنصليات. وفي تونس جرت العادة على ارتدائه.

ويلبس تحت السروال جوارب بيضاء (قلايص) وحذاء أسود (صباط) أو نصف بوطيل. ويضع اليهودي الطرابلسي على رأسه طربوشاً تركياً ذا سطح مستو (انظر الشكل ص 104). أما المرأة فإنها تلف جسمها أولاً بالمريول وهو سترة تغطي الجزء الأعلى من الجسم وتنزل حتى السرة وهي ذات أكمام قصيرة جداً. وترتدى فوق المريول القميص (السورية) ويزرر حول العنق ويغطي الجسم أيضاً. وأما الجزء الأسفل من الجسم فيغطيه سروال ملون يربط فوق البطن والحوض، ويستر أغلبه بالسداد أو الحزامية وهي قطعة قماش ملونة مفتوحة من الأمام تثبت بحزام، وإذا ماخرجت المرأة خارج البيت فإنها ترتدي الحولي أيضاً. وهي تعصب رأسها بقطعة حريرملونة (محرمة) على شكل مثلث. بينما تزين رقبتها بليرات ذهبية نمساوية تتناسب مع غنى الشخص وقيمة كل منها 40 مارك.

إن زي اليهود الطرابلسيين صورة صادقة لليهود الشرقيين. فلباس الرجال يمثل النزوع نحو النمط الغربي، وارتداء المعطف الطويل (ردنغوت) هو الخطوة الأولى للأخذ باللباس الافرنجي وعلى العكس من ذلك فإن النساء مازلن يحافظن على الزي الشرقي الذي يظهرهن أضخم ممّا هن. وفي هذه الأيام ليس هناك مايشير إلى تحول النساء المحافظات في كل مكان إلى النموذج الأوربي.

إذا ماغضضنا النظر عن الأجيال القديمة فإن غالبية الرجال اليهود يتكلمون بالإضافة إلى العربية، لغتهم الأم، لغة أخرى (عادة الإيطالية وكثيراً مايتكلمون أيضاً الفرنسية أو التركية أو اليونانية أو الإنجليزية) وقد تأتّى ذلك من خلال عملهم التجاري الناشط ودراستهم في المدارس الإيطالية، أما النساء فإن الفتيات من بنات الأسر الغنية قد يفهمن الإيطالية، وإذا مااستمر الاحتلال الإيطالي لليبيا فإن اليهود هم أول من سَيَتَطَلْيَن مع الوقت من أبناء ليبيا، عندئذ سيضع الرجال القبعة، وتستعيض النساء عن القبقاب الخشبي (مكباك) بالبابوج والأحذية





المكباك وهو شبشب خشبي تلبسه
المرأة الطرابلسية في البيت

وسيختفي بالتدريج أيضاً غطاء الرأس الذي يتخذه كبار السن والمتزوجون من الرجال اليهود، تلك القطعة ذات اللون الأحمر والأزرق التي تلف حول الطربوش وتتدلى حتى العنق (انظر اللوحة الثالثة عشرة الشكل 1).

إن معظم يهود طرابلس يتبعون الطقوس القديمة بعناية فائقة، والأغنياء وحدهم لايرغبون في أن يعتبروا يهوداً، وهم يلبسون الزي الأوربي تماماً ويعيشون على النمط الأوربي، هم وحدهم قد حرروا أنفسهم من عادة الآباء، ولهذا يوصمون من جانب اليهود المتعصبين باحتقار أنه يهود قورني أي يهود بالاسم[1] وهي كلمة لايحبون سماعها.

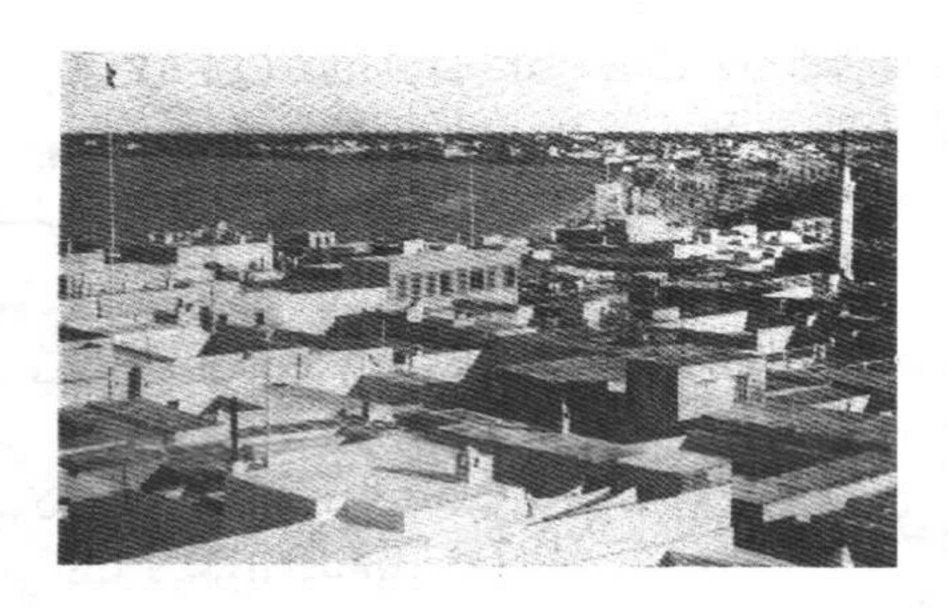


الحجر الصحي

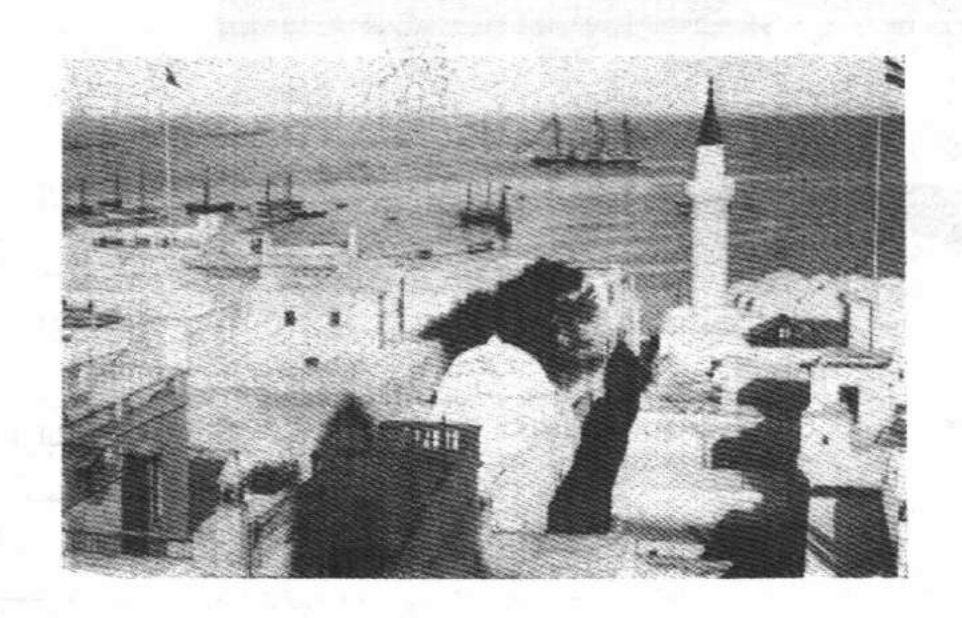
اللوحة 6-4 طرابلس: كما تظهر من برج الكنيسة الكاثوليكية باتجاه الشمال الشرقي عبر الحوض الشمالي الغربي للمرفأ نحو الحصن الاسباني.

---

(١) ربما كان المقصود يهود ليفورنو المدينة الإيطالية التي كانت تعرف باسم القورنة وعرفت بجاليتها اليهودية ذات العلاقة التجارية الواسعة مع الشمال الأفريقي، وربما عمم الاسم ليطلق على اليهود غير الشرقيين في طرابلس.



اللوحة 6-4 طرابلس: كما تظهر من برج الكنيسة الكاثوليكية باتجاه الشرق والجنوب الشرقي يميناً مئذنة جامع سوق الترك، على يسارها كتلة السراي الرمادية.



اللوحة 6-5 طرابلس: نظرة على المرفأ بالاتجاه الشمالي الشرقي من فوق الأسطحة يميناً جامع الزيتون، يساراً في الخلف الشعاب.

إن حياة الأسرة اليهودية المتدينة تسير على الوجه التالي. في الصباح يشربون القهوة ممزوجة بالحليب والسكر، ويتناولون كعكاً يحضر بيتياً على شكل حلقات مصنوعة من السميد والملح والماء. وفي الوقت ذاته يوضع اللحم المخصص للغداء في الماء إلى أن يخرج منه الدم ويبيض تماماً. إن كثيرين منهم يستحمون. وعندما يذهب الرجل إلى أشغاله، تقوم النساء بأعمال التنظيف والخبز والطبخ. وينظف البيت كل ثلاثاء وجمعة.

وعند اختيار وجبة الغذاء وتجهيزها تتبع بعض القواعد بدقة تامة، فجميع أنواع الطعام تطبخ بزيت الزيتون فقط، وتستبعد تماماً زبدة الغنم والبقر ولحم الخنزير والجبن.

إن اليهود يتناولون وجبة السمك بكثرة، بما في ذلك سمك القرش المقرف الذي عرضوا منه سمكتين في ساحة السمك قرب الجمرك يبلغ طول كل منهما مترين. ويبدأ الغداء وينتهي بشرب القهوة، بينما ينتهي العشاء بشرب القهوة. وتقوم الأسر اليهودية بإعداد العجين في البيوت مقتصرة في ذلك على دقيق السميد الأصفر المستورد، ثم ترسل العجين إلى الأفران العامة كي يخبز.

أما يوم السبت فإنه في كل مرة يدخل تغييراً تاماً على الحياة اليهودية. إذ منذ غروب شمس الجمعة وحتى غروب شمس السبت تكون حياة اليهود معطلة تماماً.

مامن أحد يشعل ناراً. وهم يحضّرون قهوة الصباح على يد رجل غير يهودي. وكذلك طعام الغداء فإنه يحضر على نار يشعلها غريب عن الطائفة، وربما يكون فقيراً يأتون به من الشارع، وبهذه الطريقة يحصل على رغيف خبز. مامن يهودي يدخن أو يلمس النقود طوال أربع وعشرين ساعة.

لاشك أنه منظر مريع أن ترى هؤلاء التجار السريعي الحركة لايعملون، وتبدو عليهم النظافة. إنهم يمرون بمجموعات من المسلمين. فجميع دكاكين اليهود مغلقة يوم السبت، والمدينة شبه ميتة، وتثير الانطباع الذي تثيره مدننا

[الألمانية] يوم الأحد.

وفي هذه المناسبة يعرف المرء معرفة دقيقة ضخامة المركز الذي يشغله اليهود في الحياة التجارية لمدينة طرابلس. فهم يمتلكون القسم الأعظم من محلات بيع البياضات والمفارش ومحلات الخياطة والنجارة، وجميع دكاكين الصرافين، ومحلات الخراطة، ويكاد يكون جميع الحدادين وصاغة الفضة والقصابين من اليهود تقريباً، إنهم يمسكون بزمام تجارة ريش النعام بأكملها تقريباً. كما أن كثيرين من أصحاب القومسيون أو تجار الجملة، الوسطاء بين الشركات الأوروبية وتجار المفرق هم من اليهود، وباختصار، فإنه لايوجد في طرابلس سوى القليل من فروع الكسب التي لايكون اليهودي مساهماً فيها.

على الرغم من أن أسبوع اليهودي للكسب يتألف من ستة أيام فقط فإنه يتفوق على منافسيه المسلمين والنصارى في جميع الأحوال بحديثه وحبه للسعي واستهانته بالآخرين. وعلى هذا يربي اليهودي ابنه، فهو يلعب في أزقة الحارة حتى يبلغ الثانية عشرة، يتنازع مع الأولاد الآخرين، ويتسخ كثيراً، إلا أنه لايدع فرصة تفوته للحصول على قطعة نحاسية أو غرش فضي. وفي أحد الأيام تقع في يده قطعة نقدية أكبر، وربماليرة مجيدية (3,60 مارك). بهذه القطعة يضع الأساس للغنى المستقبلي.

فهو يتاجر بعدة أمتار من قماش الشيت الرخيص والأزرار، والتكك والإبر، فيجعل منها حزمة يضعها الفتى شاول تحت إبطه ويتجول في الواحة، وبعد بضعة أيام يبيع بضاعته إلى الفلاحات البسيطات بفضل ثرثرته، ويعود إلى المدينة ليشتري بضاعة جديدة، يضعها هذه المرة بين لوحين ويحملها على ظهره أو على كتفه.

وإذا ماحالفه الحظ فإنه يشتري بعد حين حماراً بمبلغ محبوب ونصف (4,80 مارك) فيحمله الكثير من الخردوات ويجوب به طرق الواحة الرملية. وما هو إلا عام حتى يصبح في وسع ذلك الولد أن يستأجر دكانا صغيرة في سوق الحارة أو في أحد الأزقة الجانبية ويملؤها بضاعة. وعندئذٍ يتزوج شاول ولايعود بعد ذلك محتاجاً لأن يركض وراء الزبائن تحت أشعة الشمس اللاهبة، بل يجلس

محترماً على منصة دكانه الصغيرة يفصّص بذر البطيخ الأحمر ويعرض على النساء السوداوات والسمراوات نماذج من استانبول وباريس.

على الرغم أن معظم اليهود يلهثون جرياً وراء النقود إلا أن معظمهم يعيشون في ظروف متواضعة، لأن الأمر يتعلق عادة بالسعي المزري وراء القرش. ويبدو أن طابع تعصب هؤلاء اليهود في شمال أفريقيا يبرز في حرصهم الشديد على دخلهم.

إذ إن اليهودي الطرابلسي بعيد أيما بعدٍ عن التسامح إزاء أتباع الديانات الأخرى. فهو لايظهر احتراماً للمسلم، بل يعتبره في درجة أحط منه بكثير، إلا أنه يخشاه باعتباره يمثل العنصر الحاكم.

لقد شهد الوضع الاجتماعي لليهود تحسناً ملموساً في العقود الأخيرة، وكان ذلك نتيجة للتغلغل الأوربي ولنفوذ التحالف اليهودي Alliance Israelite فلم يكن يحق لليهودي فيما مضى أن يركب جواداً، بل إن مثل هذا الحق لايمنح له حتى الآن في البلاد الإسلامية الخالصة. إلا أنه قبل الاحتلال الإيطالي 1911 لم يكن الغرور قد ركب اليهود بهذا الوضوح، وهو أمر أسف له جميع المسلمين فيما بعد. لقد شاهدت في سنة 1906 أن أصحاب الدكاكين من اليهود أخذوا يضربون لسبب من الأسباب بقبضة حديدية مسلماً أعمى، وكانوا يضربونه في وجه الرجل العجوز.

وهنا برزت بوضوح خساسة ولؤم هؤلاء الناس، ولو أن تصرفهم قد يغدومفهوماً إذا ماأخذنا بعين الاعتبار الكبت الذي عانوه طيلة قرون.

إن اليهودي يلاقي الأوربي بذراعين مبسوطتين. لقد أدرك بدقة أن مدنيّة الغرب تجاوزت الحضارة الشرقية، وأنه لايلقى المساعدة ضد الحكام المسلمين إلا بانضمامه إلى هذه المدنية وهو من الناحية الفكرية يفكر أيضاً في موقفه من النصارى. ولما كان الفكر والدين في الشرق يسيران يداً بيد، فإن مايكنه من كره يتكثف بحيث ينقلب إلى احتقار قائم على أساس الدين، فيتمخض عن ذلك تصرفات صبيانية.

فاليهودي، مثلاً، لايتناول أي طعام لدى النصراني أو المسلم. وبالمقابل فهو نفسه يدعو ضيوفاً من غير اليهود ليأكلوا ويشربوا في بيته. على أنه يكسر جميع الأواني التي يستخدمها أولئك الضيوف لأنها تصبح نجسة لشفاه اليهود. إن هذا التعصب المتزمت لايوجد في الشرق إلا لدى الشيعة فقط، وإنني أروي في كتابي «حجتي إلى كربلاء» قصة مثيرة حول ذلك.

كان بوسع اليهود أن يشكلوا عاملاً هاماً في تطور الحياة الفكرية في طرابلس. لو لم يكونوا يعيشون منغلقين على أنفسهم. إذ مامن شك في أنهم يبزون المسلمين في الموهبة، وعلى كل حال فإن اندفاعهم نحو التعليم لايقوم على دوافع فكرية بل على أساس تجاري فقط.

إن حصولهم على بعض المعارف في الكتابة والحساب والقراءة واللغات لايقوم إلا على أساس واحد هو الحرص على التفوق على مزاحميهم المحليين وعلى أن يستطيعوا التراسل مباشرة مع الموردين الأوربيين، لذلك فهم يركزون اهتمامهم الرئيسي على التعلم في المدارس الإيطالية التي أخذت المملكة الإيطالية بتأسيسها منذ 1883 ، وقد أدت الاستفادة من ذلك إلى انتشار اللغة الإيطالية على نطاق واسع، ويمكن أن ينظر إليها على أنها الخطوة الأولى على طريق الاحتلال.

ولما كان اليهود قد وقعوا إلى حد بعيد تحت التأثير الإيطالي نتيجة لوجودهم في هذه المدارس، فإنهم أصبحوا أسهل الناس انقياداً وراء السياسة الإيطالية، ومامن أحد قابل غزو أصحاب الخوذات البيضاء بمثل الحماسة والهتافات التي قابلهم بها أهل الحارة، إذ دقت له ساعة التحرير.

بذلك ينتهي اهتمامنا بهذا القسم من المدينة الأكثر قذارة، وتعرجاً والمُغِمّ ونود أن نتوجه جنوباً إلى القسم الأدنى من طرابلس.

مدينة المسلمين:

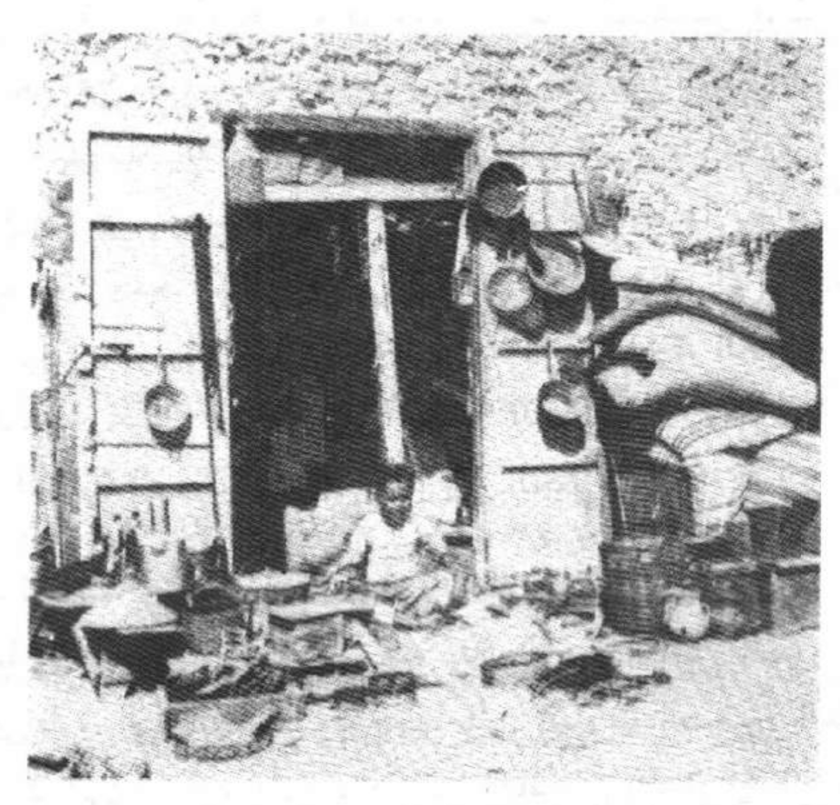
إن سوق الحارة زقاق ضيق جداً ويمتد من الباب الجديد في خط مستقيم باتجاه الميناء. إن حانات خمر النخيل اليهودية وغصن النخيل الأصفر

يشير إلى توفر اللاقبي الطازج. وإن الزبائن من المسلمين يجلسون في هذه الحجرات الوسخة في غرب المدينة، في حين أنه في الجزء الشرقي تتلاصق دكاكين القماش اليهودية الواحد بالآخر، إلى أن تعترضها عبّارة مسقوفة تؤدي إلى تقاطع طرق توحي زوايا البيوت الأربعة الواقعة عليها ببقايا أعمدة قديمة أدرجت في البيوت. وتبعاً لذلك يدعى الشارع الذي يؤدي إلى الجنوب الشرقي شارع الأربع عَرَصات. إن سوق الحارة يفصل الحارة الكبيرة عن النصف الجنوبي من المدينة حيث يسكن في الغالب المسلمون. وحول الباب الجديد يسكن يهود في الحارة الصغيرة، وهي تقع إلى الجنوب قليلاً.

فإذا ماسرنا منها إلى داخل الشارع الطويل الذي يحاذي السور الجنوبي للمدينة، وجدنا أن الجانب الخارجي منه يتكون من أنقاض السور العالي الذي يحول دون أية نظرة إلى الفلاة، ويوجهها إلى البيوت الصغيرة المقابلة له، إذ تنفتح هذه البيوت إلى الشارع بأبواب صغيرة فقط، أي دون أية نوافذ. أمّا لونها الأشهب فيذوب مع لون السور القاتم، ومع لون العشش الفاتح حيث تقبع بعض النساء المسلمات المتبرجات.

وأمام أو في داخل كل باب تجلس مجموعة منهن ترتدي سراويل حريرية ملونة وفرملة، وهن سمراوات أو سوادوات، يتزيّنَّ بالألوان الغامقة الحمراء أو الزرقاء أو الصفراء ويتخذن حلياً من الفضة أو الصفيح.

وفي الوقت الذي سمحن لنا، نحن الكلاب النصارى، بالمرور دون مضايقة، فإنهن ينادين المارة من المسلمين بصوت منغم. ثمة من يستسلم لأنغام دق الدفوف الراقصة وبذلك يضحي بالتعرفة المعهودة من غرش إلى غرشين فضيين (18,5 حتى 37 بفنيغ) على هيكل الإلهة فينوس أو دار البغاء في طرابلس. إن النصارى واليهود الذين تعودوا أن يدفعوا أكثر يمنعهم المسلمون منعاً باتاً من ارتياد هذا الهيكل الواقع عند سور المدينة الهادىء، فيتوجب عليهم أن يتوجهوا إلى زقاق متعرج في الحارة الكبيرة حيث توجد حثالة مدن المرافىء. لقد وقعت هنا حادثة لنمساوي لكنها تجري في مدننا في جميع الليالي مراراً ولذلك فهي ليست جديرة بأن تطبع.



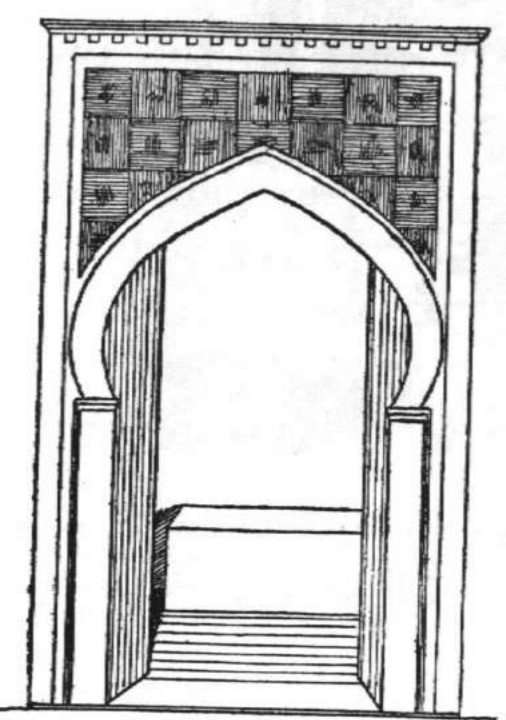
اللوحة 7-1 سوق التركة (بازار العتق) على السور الجنوبي الشرقي في طرابلس دكان الأشياء العتيقة وصبي من النموذج الليبي البربري.



اللوحة 7-2 سوق الخبزة في طرابلس ـ نظرة نحو الشمال والشمال الشرقي

والأفضل أن نتوجه من سور المدينة شمالاً إلى عزلة أزقة الحي الإسلامي، إنها سكينة رائعة تلك التي تحتضننا، فهنا أزقة ضيقة تمتد أمامك أو تتعرج فتقطعها تارة بوابة (انظر ص125) يحيط بها إطار حجري أصفر ولها باب درفتاه خضراوان، وبلاط عتبتها ملوّن. وتكون الأبواب الأخرى أخفض وأقل عناية (انظر الشكل ص 115) تفضي إلى فناء داخلي أكثر تواضعاً. وأمام هذا وذاك يجلس متكئاً على الجدار رجل يغني أغنية حب تبدو حزينة، أو ينفخ في مزماره القصبي الأصفر المزدوج (المقرون) ألحاناً شجية (انظر الشكل ص 127). وغالباً ماتتفرع يميناً ويساراً أزقة مسدودة تؤدي إلى مجموعات من البيوت الجميلة يبرز خلفها باب ملون قد يؤدي إلى بيوت كبيرة أو إلى أفنية، وقلما يصدق المرء شأن العقارات التي تقبع وراء واجهات متواضعة.

عند باب مدخل مفتوح يقف حمار أشهب اللون، وهو يحاول ببالغ الصبر أن يتخلص من الذباب الطيار، وينصب أذنيه البارزتين إلى الأمام بحثاً عن صاحبه الذي يجلس في الداخل، محتمياً بظل رطب ويتسلّى. ومن داخل البيت شبه المظلم يأتي صوت نقر نول النسيج وعادة مايكون صاحبه من الليبيين البربر الذين يجلسون أمام إطار خشبي عليه مئات الخيوط مصفوفة على نسق واحد، ويظل يشتغل في نسجها إلى أن ينجز قطعة قماش ملونة تلف بها النساء جسدها أو مايشبه ذلك.



صورة باب بيت طرابلسي، يمتاز بجودة الصنعة، إطار بني مائل إلى الصفرة مأخوذ من حجر رملي أو كلسي وهو يحيط بالبلاط الملون، وغالباً مايطلى الباب الخشبي المكون من درفتين باللون الأخضر. إن النظرة إلى الداخل تتوقف عند الجدار الأبيض الذي يشكل خلفية الباب، وينعطف الداخل يميناً من جانب الدكة.



اللوحة 7-3 الاحتفال بعيد الميلود (المولد النبوي الشريف). منظر المدينة الجديدة (المنشية) أي تلك التي بنيت خارج السور، وتشمل أجزاء من شوارع المقريف وسبتمبر والميزران وتوابعها) كما تظهر من نادي الضباط.

في زقاق جانبي لفت نظرنا باب بيت عادي، فقد كان يترامى من دهليزه صوت طحنٍ. أدخلنا رؤوسنا عبر الباب بفضول. وبعد أن ألفت عيوننا العتمة القاتمة - وهي التي اعتادت على النور الساطع - رأينا جملاً كبيراً يطحن حبوباً وضعت بين حجري المطحنة التي يدور حولها وهو معصوب العينين فتدور الرحى العليا بواسطة قضيب ثبّت فيها.

المقرونة، مزمار مزدوج يصنع من القصب ويمكن أن تنتزع الفوهتان منه السعر2 متليك (8 بفنيغ)

والمخابز أكثر عدداً من مثل هذه الطواحين، وهي تبرز بفوهاتها السوداء وتدعى كوشه، ومنها يخرج الخبز الأصفر والبني اللماع لكثير من الناس الذين يرسلون عجينهم ليخبزوه فيها بأجر زهيد. ويقوم على الأفران رجال سمر من فزان، وهم ثلاثة أو أربعة يلبسون قمصاناً (سوريات) غامقة الزرقة. إنهم يشتغلون بجاروف ذي ذراع خشبية طويلة. ويتجول بعضهم في المدينة وضواحيها مصطحبين عربات أو سلالاً يحملونها على رؤوسهم يجمعون فيها مختلف أنواع الفضلات التي يمكن استخدامها في تسخين الفرن مجاناً. ونظراً لكون أرض الفرن مرصوفة بالحجارة فإن أصدقاء صاحبه يرغبون في اتخاذها مكاناً مريحاً للنوم، وإن كانوا يخشون الأعداد الكبيرة من البق. وتنتشر الأفران (الأكواش) بكثرة في جميع أنحاء المدينة. وتتميز البيوت التي تضم هذه الأفران بلونها الناصع البياض وتبرز فوهاتها مثل اللابه المتوهجه.

بلغت أسماعنا من الزقاق التالي مجموعة من الأصوات التي كان ينضاف إليها بين حين وآخر صوت أعمق. وفجأة تضخم الصوت حتى صار ترتيلاً منظماً عالياً. وعندما اقتربنا وجدنا حجرة الكتّاب البيضاء مفروشة بحصر صفراء نظيفة وقد تربع عليها أكثر من عشرة صبيان يرددون آيات القرآن بصوت عال وهم

يحركون الجزء العلوي من جسدهم إلى الأمام والخلف. وهذه طريقة ترافق القراءة والترديد، وهي عادة متبعة في جميع أنحاء الشرق وتتجاوز حدوده إلى أعماق الهند.

إن الأقواس الحجرية التي تسود طرق مدينة طرابلس القديمة تتوضح على وجه أوسع في الجزء الجنوبي من المدينة، وإذا مادخل المرء في زقاق طويل فإنه يجد الأقواس متتالية واحداً واحداً بحيث تجعل الظل متصلاً (انظر اللوحة السادسة). كما أن لها إلى جانب وظيفتها التزيينية ميزة تتمثل في أنها تكسر قوة اندفاع الرياح الصحراوية المحملة بالغبار، وتشكل حاجزاً يحول دون النظر من بيت إلى آخر. وهي ميزة حميدة في التقاليد المرعية. ومن المؤسف أن العثمانيين أخذوا منذ 1905 و 1906 يقضون على هذا العنصر الأجمل في المدينة الذي يكاد يكون الزينة الوحيدة لشوارع مدينة طرابلس الخالية من الزينة. وفي ظل السيطرة الأوربية فإن ذلك لن يستمر كثيراً من السنوات حتى يغيب من الوجود تماماً.

إن الأسواق المسقوفة تنقسم إلى قسمين يفصلهما زقاق متعرج أقام صاغة الفضة ورشات عملهم في جزئه الجنوبي.

إنهم يهود فقط، ومنتجاتهم التي تنتجها أيديهم القذرة خافتة اللمعان، عاجزة عن أن تقنعنا ببراعتهم الفنية. هناك دكان يمثّل بابها ونافذتها شيئاً واحداً لأن لها فتحة أمامية فقط، يجلس فيها أفراد الأسرة الذكور على الأرض الرمادية الغامقة، وكل منهم يمسك بكتلة خشبية بين ركبتيه وعليها يطرق صفائح أو سبائك من فضة. إنه يقص خميسه (انظر الشكل ص 129) أي يد فاطمة ابنة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ أن شكلها الخام الخالي من أي عمل يفترض أن يحمي حاملها من نظرة السوء.



خميسة، يد فاطمة

يسيطر الاعتقاد بالسحر والجن على أشخاص يظنون أن في وسعهم أن يمسوا الآخرين. غير أن هناك لحسن الحظ وسيلة فعالة ضدهم تتمثل في مواجهة العين المؤذية بيد مضمومة الأصابع. ولما كان يصعب التعرف على الحساد أصحاب العين المؤذية فإنه يتوجب على من يسير في الشارع أن يعلق تلك القبضة وهي أيضاً تنسجم مع الميل لراحة البال لدى الشرقيين. وهكذا فإن المرء يشكل القبضة من المادة التي يرغبها ويعلقها بحيث ترى حول الرقبة، وبذلك يحظى بالحماية على الدوام.

هناك حرفي آخر يصنع أساور عرضها 5 سم وهي مفتوحة من الجانب بشكل يجعل خلعها من فوق مفصل اليد غير عسير، وعلى الجدار علقت بعض الأحزمة الفضية ذات بكلات تلبسها اليهوديات على وجه الخصوص (انظر اللوحة الرابعة). وعلى صندوق وضعت مجموعة من الخلاخيل الفضية التي تلبس حول مفصل القدم، وحلق يبلغ قطرها عشر سنتمترات تضعها البدويات في الجدائل التي تتدلى إلى أمام الأذن وتسمى العلاّقة. وماخلا ذلك توجد أحلاق من قياس لايقل عن السابق، وخواتم أصابع وإن أحجارهاالملونة تجعلها مرغوبة لدى الفقراء أيضاً وخاصة أن سعرها يتراوح بين غرش وغرشين.

4 _ ليل الشرق

المغرب: إن جولتنا عبر مدينة طرابلس القديمة شارفت على الانتهاء. كثير من التجار يغلقون دكاكينهم، وتتزايد النقاط المنورة في البيوت، ولذلك فإننا أخذنا نحث الخطا نحو البيت وتتراجع الحياة من شرايين التعامل إلى أفنية البيوت الداخلية وإلى المصاطب.

نحن أيضاً صعدنا إلى سطح البيت الرمادي الفاتح، وشرعنا نرقب المساء حيث أخذت فرضات سور المدينة تتراجع أمام النظر. من بعيد تتعانق أشعة الهلال مع أمواج خليج سرت الكبير. ووراءها تقبع الشمس الحمراء في السرير، وقد تمددت عرضاً مثل بيضة خلجة، إنها الآن تلامس طرف البحر (الغروب)، وفي نفس الوقت يصدح من حولنا وفي جميع الاتجاهات من المآذن ومن أسطحة المساجد ذلك الأذان الذي يتردد منذ ثلاثة عشر قرناً. **الله أكبر الله أكبرالله أكبر الله أكبر، أشهد أن لاإلٰه إلا الله أشهد أن لاإله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لاإله إلا الله.** إن ذاك الصوت كلمة ووقعاً يلف المدينة مع الغروب وينساب إلى قلوب المؤمنين، مع هذه السكينة المسائية، ولاأعتقد أن العالم يستطيع أن يقدم شيئاً أجمل من هذا الموت الأرجواني للشمس، وهي ترتعش أمام ساحل النخيل الأسود، بينما ينساب من المآذن البيضاء بياض المرمر هذا الأذان، في الوقت الذي تستعدّ المدينة في الأسفل للنوم.

وعندما توجهنا نحو السلم كان قرص البدر الأحمر يطل من الأفق الشرقي من فوق صفوف النخيل استعداداً لاحتلال مكان غريمته الراحلة. عند النزول كانت تصاحبنا نفحات الأبواق العسكرية العثمانية وهي تنطلق من فناء الثكنة معلنة أن الدولة العثمانية مازالت قائمة وأن الله قد منَّ على السلطان بعمر مديد.

الليل: منذ هنيهة سمعت المؤذن ينادي لصلاة العشاء للمرة الثانية، والوقت هو ساعة بعد المغرب. ولكي نتعرف أيضاً على الحياة الليلية في الشرق، أعددنا أنفسنا للخروج ثانية.

إن الأزقة مظلمة، وساكنة لاحياة فيها. هكذا تبدو لأول نظرة، إلا أن الصورة تنجلي بعد حين، فثمة حياة ليلة متواضعة بعد، في إحدى الزوايا البارزة، حيث اعتاد جار أن يرمي القمامة من النافذة، وتربض قطة قوّست ظهرها وراحت تقضم عظماً وتحملق عيناها الخضراوان نحو طارق الليل، وفي زقاق صغير مرق بين أقدامنا جرذ سمين ليختبىء في أحد الأوكار عند جدران البيوت. وحول زاوية أحد الأزقة صادفنا مجموعة من الرجال ويبدو من حولي البرقان الحريري، إنه رجل غني، وقد أفصح عن ذلك ضوء المصباح المتأرجح الذي يحمله أحد خدمه. إن الخطى تترك صداها، ويتسرب عبر بعض الأبواب المفتوحة صدى خافت لأصوات أناس يتسامرون، ومن فوق الأسطحة تتراخى إلى آذاننا أنغام موسيقى وغناء أسرة تحيي فرحة عرس. وفي نهاية الزقاق توهج نور أصفر مشوب بالحمرة، يوهم بأنه يضيء من مكان قصي، ذلك أن الوضوح منعدم إلى درجة يجعل تقدير المسافة صعباً.

لقد أغرانا بالسير نحوه، وأخذ يقترب ويقترب حتى صار بجانبنا فجأة في هيئة مصباح زيت منخفض، بالكاد يضيء محتويات الدكان، إنه بقّال كان يجلس مع بعض أصدقائه على كراس صغيرة دون مساند ويتداولون فيما بينهم فنجاناً صغيراً من القهوة.

وعلى مقربة من البقال ترصدنا كلب سمع وقع خطواتنا، بينما شرع كلب ثان بالنباح. وبعد خطوات رأينا كلباً ثالثاً يطوف أسطحة المدينة. وأمام مخزن تاجر كبير كان ثمة حارس يشخر مستلقياً على الأرض متدثراً ببرنسه، ربما كان غارقاً في أحلام سعيدة، وهو يمسك بعصاه الغليظة إذ لم يكن نباح الكلاب ولاصفارات دورية الشرطة كافية لإيقاظه من النوم.

على جانب شارع البحر وفي المقاهي قرب سوق الثلاثاء يسهر الرجال

صيفا وقت متأخر من الليل يستمتعون بعد قيظ النهار بنسمات البحر ويشربون الشاي الساخن والقهوة وقلما يتناولون الليمون المبرد بالثلج أو عصير الرمان بل يدخنون النراجيل الطويلة الذراع، يتسامرون ويضحكون ويلعبون.

إن شارع البحر يبدو تحت ضوء القمر وكأنه ملفوف بحولي أبيض.

في الشتاء تجسّد طرق المدينة الشرقية انعدام الراحة تجسيداً حياً فالأرض الترابية لهذه الطرق تنقلب إلى وحل داكن بعد المطر. أما البرج الغربي فينشر رذاذاً في الأزقة صادرة عن العواصف، وتصفر الرياح في أزقة المدينة الضيقة. مامن شخص يجرؤ على مفارقة دفء البيت، وحتى الكلاب تفضل الانسحاب إلى زاوية آمنة.

5 معالم طرابلس

فلننظر إلى المدينة القديمة من الخارج. نحن نريد أن نغض النظر عن الشاطىء الشمالي حيث يوجد بقايا أكمات صغيرة تقوم على إحداها الأساسات المدورة لحصن منهار وتبرز منها أشكال مهشمة باتجاه شاطىء المدينة المتآكل خارج السور قرب المكان الذي يرقد فيه الموتى من المالطيين واليونانيين والايطاليين على أنغام ارتطام الأمواج بالشاطىء، ويمكننا أن نمر أيضاً بمثلث الشاطىء المستوي الواقع شمال الجمرك، حيث تعد الأضلاع البيضاء لتصبح سفينة شراعية وقد وضعت إلى جانب البطون السوداء للزوارق المعطوبة وإلى جانب حقل من الجرار الجرباوية التي لم تسترع نظرنا.

ها نحن، إذاً نوجه خطواتنا نحو السور الجنوبي للمدينة حيث الثقل الأعظم السراي رابضة مثل أسد أشهب، إن الناظر إلى جدرانها يلاحظ أنها قد شيدت على أسس عسكرية بحتة، وإنها تبدو بمتانتها الفائقة تبعث إحساساً بالجمال لولا أن الخطوط الأصلية تشوّهت بالرقع والإضافات خلال الفترات اللاحقة.

في الركن الجنوبي من السراي يبرز من زاوية الحائط نتوء حاد يشبه مقدمة باخرة عملاقة ويمتد باتجاه إحدى الحنفيات العامة من جهة[١] ونحو مبنى نادي الضباط من جهة أخرى. وفي حديقتها العالية توجد على الأرجح دزينة من التماثيل الرخامية المأخوذة من لبدة، ويعتقد أن الانجليز سرقوا رؤوسها ربما قبل نيف وعشر سنوات، وإلى جانبها دزينة من الحناطير (كروسة) وهي حناطير جيدة ورديئة من النوع اللانداوي والڤيكتوري والمالطي.

---

(١) حتى قبل حوالي 15 عاماً كان يوجد هنا باب (الصورة في كتاب لودفيغ سلفاتور) وكان قبل حوالي نصف قرن الباب الوحيد للمدينة وهذا ماشاهده بارت مثلاً.



اللوحة 8-1 سوق الثلاثاء. أخذت الصورة في الاتجاه الشمالي الغربي مع النظر إلى الجانب الشرقي من المدينة الجديدة.



اللوحة 8-2 في سوق الثلاثاء. إلى اليمين فزاني يلبس الحولي وصدرية أوربية وسود يبيعون عرانيس الذرة، وإلى اليسار عسكر سوسه وراءهم المرفأ.

إذا ماسرنا جنوباً ودرنا حول الزاوية فإننا نشاهد وسيلة النقل الأصلية في

طرابلس، إنهم الحمير، البعض منها يقف أمام العشب الأخضر ويأكل، والبعض الآخر يستلقي على الأرض ويمرغ ظهره بالتراب وينظر متأملاً الغبار الذي أثاره. وهاهي فرس تتحرك بعنف وتضرب الأرض بأقدامها، ومإإن شاهدها جواد أدهم عاشق مقيد في العنان حتى كشر عن أسنانه الصفراء. ومن يرد مركوباً يستأجر من هذا الموضع حماراً لقاء 0,80 مارك حتى مارك واحد لنصف يوم، ولقاء ماركين حتى 2,5 لليوم الكامل.

سيف طارقي ويتكون الغمد من جلد ماعز مصبوغ بالأحمر ومضغوط على القالب، والشفرة ملبسة أيضاً بالجلد. كما يلبس المقبض الذي يبلغ طوله 7 سم بالجلد الأسود. ويبلغ طول السيف 90 سم ويتراوح سعره بين 5 و8 ماركات.

حين يتجاوز المرء موقف الحمير يدخل ميداناً مكشوفاً تتفرع منه عدة شوارع ويدعى هذا الميدان سوق الخبزة (انظر اللوحة السابعة الشكل 127)، تسوده في كل وقت حركة نشيطة. عند الحائط الشرقي بجوار المقبرة يجلس تحت أشعة الشمس القائظة ظهراً وعصراً شحاذون يرتدون الخرق ويفلون رؤوسهم من القمل الذي يرمونه عوضاً عن أن يقتلوه، وهنا يجلس باعة المقرونة (انظر الشكل الصفحة 127)، وفي المكان نفسه ينشر بعض باعة الأسلحة سلعهم المضحكة (انظر الصورة أعلاه).

حتى 1906 أو 1907 كان المدخل إلى المدينة هو باب المنشية، وقد أزيل الآن لكونه ضيقاً ويعيق حركة المرور، إلا أنه كان مزخرفاً وأمامه إلى اليسار

كان ثمة طاولات لمجموعة من الباعة الذين يتاجرون بالرصاص والخردة والمسامير والبارود، إلا أن هذا الأخير كان يباع سراً ويدعى في الغالب (كسكس) تحاشياً للفت الأنظار، بينما يبيع الآخرون، وهم في الغالب من بلاده السودان الغربي جميع أنواع العطور، وزيت الورد المقلد، والخيوط والإبر وماشابه ذلك على أن زبائنهم في العادة من سكان الريف.

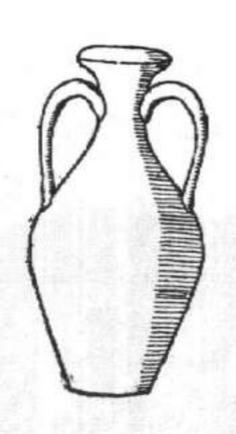
وفي الدكاكين المجاورة تعرض سلع مجدولة من أوراق النخيل جدلاً رديئاً يجعلها سريعة البلي، كما تباع هنا الجرار الفخارية والشيت المطبع والبيارق الحمراء والصفراء التي توضع على المزارات، والمحاريث الخشبية) وميازيب فخارية توضع على سطوح البيوت بحيث يجري فيها ماء المطر من السطح عبرالجدران إلى الصهريج، وتباع أيضاً سلع أخرى مخصصة لاستهلاك سكان القرى والبدو.



اللوحة 8-3 في سوق الثلاثاء فلاحون من الواحة يبيعون البطاطا والطماطم والبصل



اللوحة 8-4 صورة من سوق الثلاثاء



برادة وهي جرّة فخارية غير مشوية

تتمثّل النقطة المركزية في الحنفية العامة التي تستمد ماءها من بير بومليانه وتدعى (ماشين) حيث تحتشد حول صهريجها مجموعة من الحمير مع أصحابها من الشباب الذين يشربون أو يملؤون جراراً فخارية يباع فيها الماء في الطرقات (انظر أعلاه). وإلى جانب هؤلاء يقف مزاحموهم وهم رجال يرتدون ملابس خفيفة يملأون جرارهم أو صفائحهم التي يعلقون كل اثنتين منها على خشبة توضع على الرقبة. ومن الصور الطريفة التي تمثل بيع الماء صور السقائين الذين يتجولون في شوارع القاهرة ودمشق وبغداد ومعهم قُربٌ جلدية مليئة بالماء يوزعونه في طناجر نحاسية في الأزقة، إلا أن هذه الصورة معدومة في مدينة خليج سرت الكبير.

وعلى مقربة من الحنفية تجلس نساء سوداوات تحت ظل قبعة كبيرة من الحلفاء لابل تحت مظلات رمادية ويبعن من سلالهن البنية الغامقة أرغفة خبزٍ لا تبعث على الشهية، بينما يقف حوالي ستة من أبناء طرابلس الفاتحي اللون أمام طاولات يضعون عليها أرغفة من الخبز ويعلنون عنها بأصوات عالية فيتغلبون على منافسة الجنود العثمانيين الذين يبيعون جزءاً من نصيبهم من الخبز طلباً للربح.

إلى جانب هؤلاء يبسِّط بعض الليبيين من أهالي الواحة ويسعون لبيع حصر صفراء اللون نظيفة تماماً إلا أن حبكتها خشنة وقد طرحت بعضها في الرمل وهي ملفوفة وبعضها حزمت جيداً ووضعت وهي قائمة.

على الجانب الغربي والجنوبي من سوق الخبزة تقوم بعض المقاهي المنخفضة التي يصطف بعضها بجانب بعض ويجلس فيها عرب وليبيون من النموذج البربري يتأملون صخب السوق الجذاب. إن من يعرف مناطق واسعة من الشرق يستطيع أن يلاحظ مدى تأثير الموقع على البحر المتوسط، وبالتالي تأثير الغرب على طرابلس في بعض النواحي، لقد أصبحت الآن الكراسي الصغيرة المنخفضة نادرة في المقاهي، حيث يجلس عليها المرء ورجلاه مرفوعتان حسب العادة الشرقية. إن جميع الناس، بمن فيهم سكان الدواخل النائية الذين ربما لم يسبق لهم أن شاهدوا من قبل كرسياً يتوجب عليهم أن يجلسوا في مقاهي طرابلس اليوم على الطريقة الفرنجية. أما في المدن الداخلية التي ظلت بعيدة عن هذه الأجواء حتى الآن، تجد العادات الشرقية مازالت ثابتة إلى يومنا هذا، كما هو الحال في كل من دمشق وبغداد.

فإذا ماتوجهنا إلى سوق الخبزة اليومي بجوار سور المدينة، شاهدنا إلى اليمين صالة الجزارين العامة (المسلخ) وهو حيز مغلق في جانبه يبيع القصابون المسلمون لحم الضأن المرغوب إنهم يضعون الرئة وتوابعها المستخرجة من الذبائح حديثاً على طاولات خشبية، وعلى رف تحتها يضعون الكبد والأمعاء. أما الرؤوس المقطوعة فيلقونها على الأرض، فإذا ماقليت هذه الأشياء بالسمن أعطت وجبة محببة. وكلّما ازددنا قرباً ازدادت الغيوم كثافة، إنه الذباب الأزرق وقد تجمع على الدم. وتحت الشمس يستلقي أربعة كلاب أو خمسة يبدو أنها كانت تتمرغ في دم الخراف قبيل ساعة، إنها صالة سوق طرابلس.

وخارج المسلخ، عند خندق تصريف الدم وملحقاته، يقدم رجال سود وسخون لهم مواضع قارة أو متحركة أرخص أنواع اللحم، أي الأحشاء التي يشوونها على فحم الخشب أو الروث قطعاً أو على أسياخ سوداء، وعلى الرغم من أنهم يعلنون عن بضاعتهم الساخنة بشفاههم العريضة وأصواتهم الضخمة، إلا أنني شاهدت كيف يتأفف منهم فقراء أبناء البلد ويشيحون بأبصارهم عنهم.

وإذا ماتتبعنا السور وتجاوزنا هؤلاء الشوائين شاهدنا فيه آلاف الثقوب التي أحدثتها الرياح وعوامل الحت، وبعد ذلك نصل إلى قرية عجيبة مكونه من عشش

تعيسة وموضع الكراكيب ويدعى بالعربية سوق التركة (انظر اللوحة السابعة الشكل 129) تتألف حجرات هذه السوق من خشب قديم أو صفيح التنك أو من حصر حديثة ثبتت إلى بعضها بمسامير حسب مقتضى الحال. وحول كل من هذه الحجرات جدار من الأغراض المتروكة وقد جمعت من كل مناطق طرابلس فيوجد هنا خناجر صدئة وسيوف ومسدسات للارهاب ومطارق، وصور ملطخة بالعفن إلى جانب أكوام من الثياب الرديئة، والمسامير، والقناني وعلب المعلبات الفارغة فوق أكوام من الجرار الفخارية، مراتب القش البشعة والطاولات ثلاثية الأرجل، والخيام المثقبّة، وباختصار، كل ماليس له قيمة في أي مكان، ويحتفظ بها هنا بحيث تغدو شيئاً له قيمة وذلك من مبدأ وجود مشترٍ لها في وقت من الأوقات إنه جو غريب في سوق التركة. وما إن يقترب المرء منه حتى يشاهد ويسمع أن هذا السوق موطن البراغيث والقمل فهم يسودون سوق الكراكيب مع أنهم ليسوا أصحابه القانونيين، فهؤلاء يأوون ليلاً إلى جحورهم بحيث لاتنهب ثروتهم النفسية.

سيف السودان (سفيف) وتتكون النصلة من قشرتي خشب يسحب فوقها جلد ماعز وأما الشفرة فهي من صنع سولنجن بألمانيا، آيات قرآنية السعر 12 ـ15 مارك

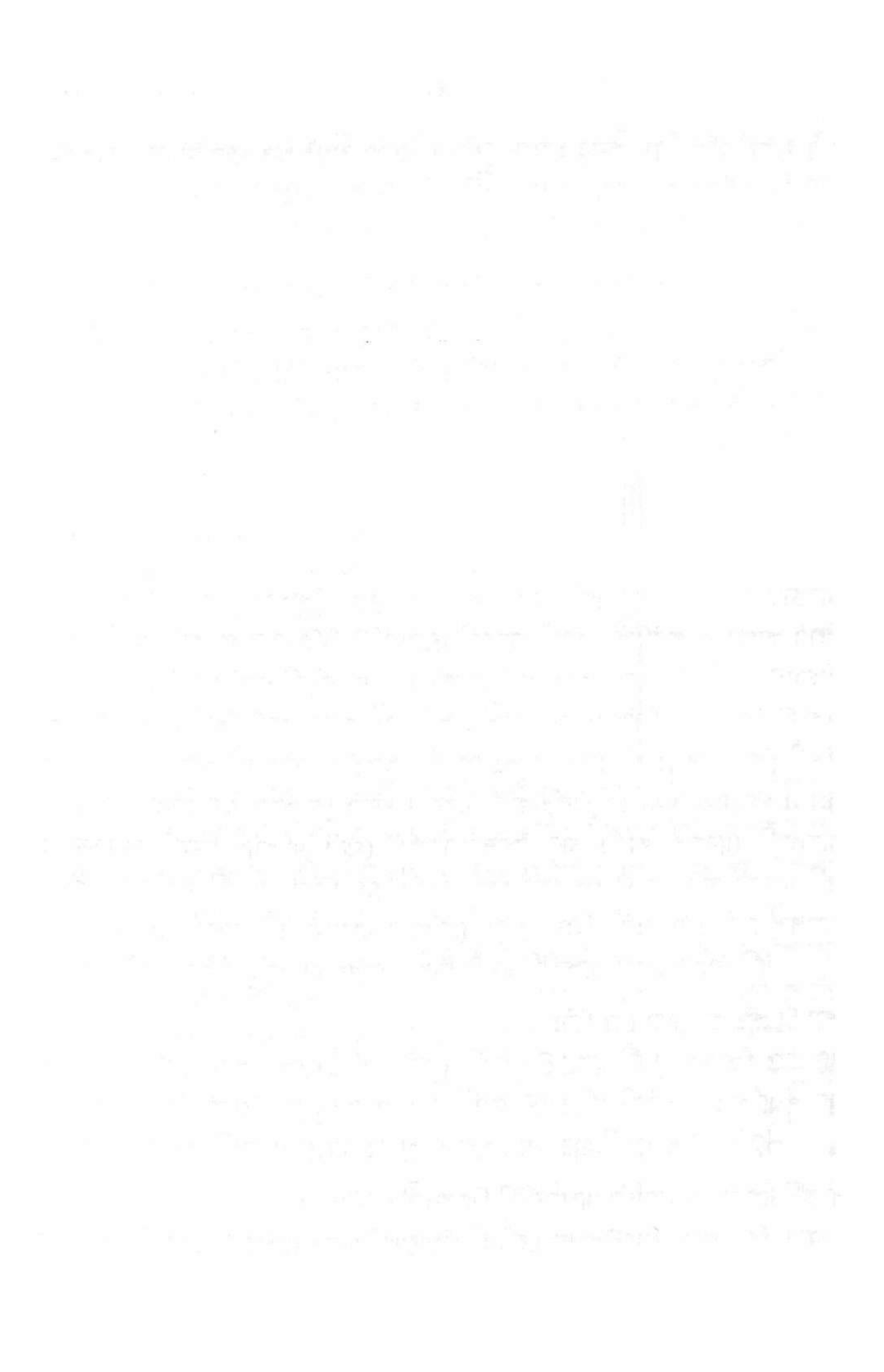
وإذا مانظرنا نحو سور المدينة فإننا نجد زاوية أظرف إذ توجد في الأرض الرمادية حفرة صغيرة إلى جانب حفرة أخرى كان فيها أو حولها أشخاص من ألوان متعددة ها نحن نشاهد بدوياً يذهب إلى هناك، ثم يقرفص على مرأى الجميع، والآن تعرف أن هذه هي المراحيض العامة لطرابلس العثمانية.

إن مجموعات البيوت الواقعة مباشرة جنوبي سور المدينة ليست أبنية سكنية بل فنادق. ويتكون الفندق من مربع جدرانه الخارجية عديمة النوافذ تماماً، بينما يتوسطه فناء واسع تحيط به غرف صغيرة تنفتح على جهة واحدة أو

أكثر، وفي هذه الفنادق تحط القوافل فيخصّص الفناء للجمال والحمير والخيول لتبقى الغرف من نصيب المسافرين والبضائع.

إن فنادق طرابلس تتألف من جدران مطلية باللون الأبيض وتخلو من جميع أنواع الزخرفة. وليس من فنادق تقلل الزخرفة بعضاً من رتابتها إلا في المدينة القديمة وحدها. وفي المشرق العربي (آسيا الغربية) نجد خانات مزخرفة تقدم صورة حية عن ألف ليلة وليلة.

إلى جانب السور الجنوبي الذي يبلغ ارتفاعه 12 متراً توجد أرض مموجة السطح ليس فيها نخيل وتغدو مكاناً للنزهات المسائية في معظم الأحيان. إنها في الغالب بقايا خندق ماء قديم وهو مردوم الآن ويبدو أنه في عشرينات القرن الماضي (التاسع عشر) كان يحيط بالسور (ذكره الرحالة بيتشي ,Beechy Proceedings P.18)، وتقوم غربي المدينة هضبة أصبحت الآن تستغل حقولاً، وهي أيضاً منفصلة عن السور نتيجة تعميق الخندق، وتقوم من جهة البحر هضبة أخرى ربما كان ارتفاعها عن سطح البحر يبلغ عشرة أمتار وهي أيضاً مفصولة بخندق خاص بها، كما توجد حفر أسطوانية، لها أقواس صغيرة وربما هي أيضاً بقايا خندق أو صهريج. ولعل القنصل الإنجليزي وارنجتون قد عثر هنا في هذا المكان إبان عشرينيات القرن التاسع عشر على أوعية زجاجية فينيقية قديمة.



6 ـ المدينة الجديدة[١]

إن الأبنية التي شيدت خارج سور المدينة لم تكن حتى سبعينات[٢] (القرن الماضي) تتعدّى بعض الفنادق والحجرات التي كانت في الغالب تقوم في موضع سوق الخبزة حالياً أو في المنطقة المجاورة له. وقد استمر هذا الوضع طيلة مدة بقاء طرابلس ذات باب واحد عند الزاوية الجنوبية من السراي، وإن مايدل الآن على وجوده السابق هو اسم فم الباب الذي يطلق على الشارع الذي يمر جنوبي نادي الضباط. إلا أنه منذ عشرين عاماً ضاق الحيز الذي كان يفرضه السور القديم على المدينة التي لم تعد راضية عن تواضع الآباء فتوسعت جنوباً حيث يوجد حقل رملي أجرد، أغرى الناس بالبناء عليه.

في البداية كانت تسود بعض فنادق ذات جدران أربعة جرداء، وتبعاً لحاجة القوافل التي كانت تحط هنا فقد تتالى تشييد حجرات خشبية للناس الذين يقوم رزقهم على مايحصلونه من القادمين من الدواخل. فقد بنيت الثكنة العسكرية ثم انسحب العديد من الضباط بعد بنائها إلى خارج المدينة القديمة. وبعدئذ وجد كثيرون أن تحمل الصيف القائظ خارج السور أيسر مما هو عليه الحال في الأزقة الضيقة من المدينة القديمة. وعلى هذا الأساس سرعان مانشأت المدينة الجديدة في طرابلس حوالي نهاية القرن التاسع عشر.

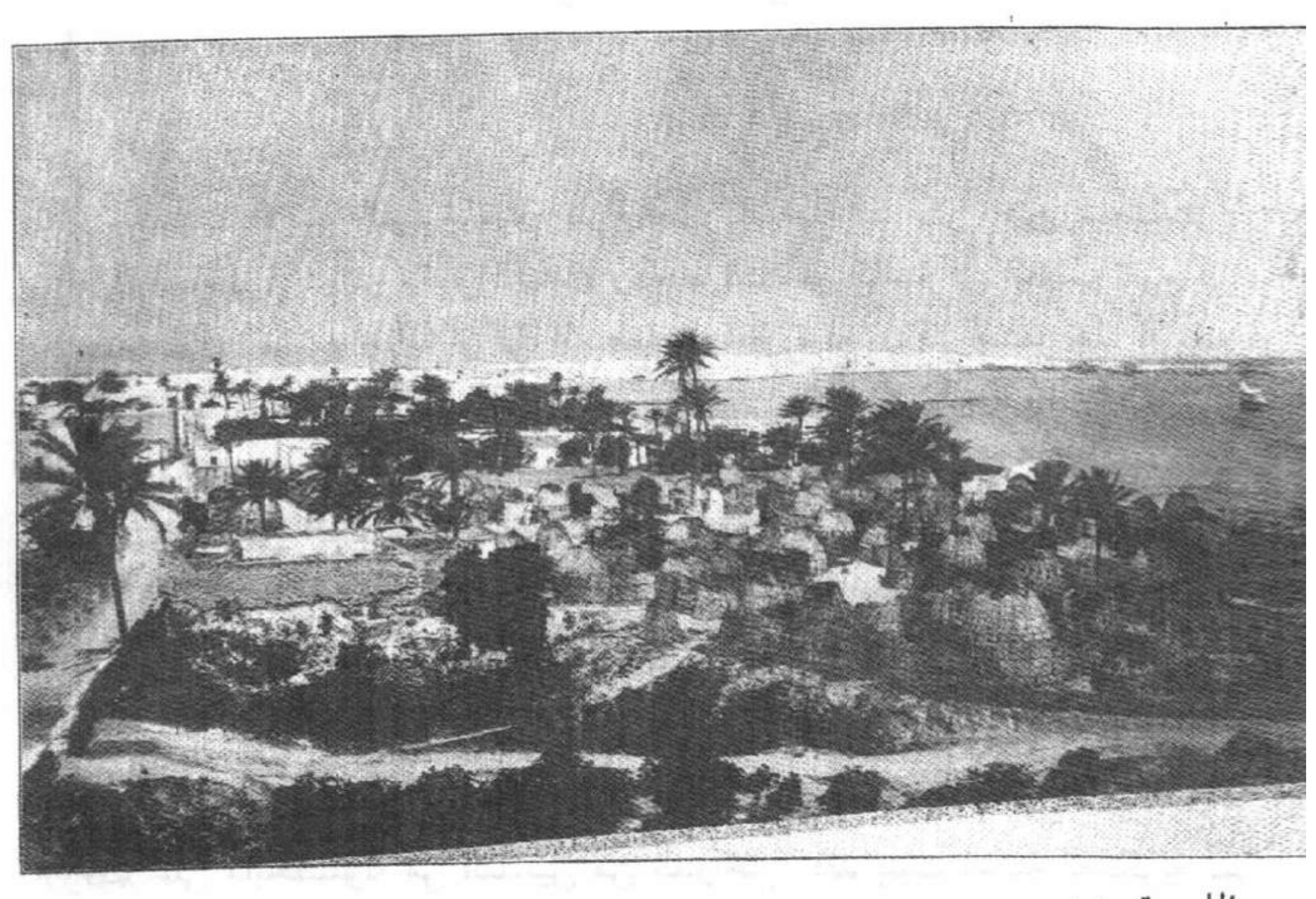
وتتكون المدينة الجديدة من مجموعة شوارع طويلة تنطلق من سوق الخبزة إلى دواخل الواحة، وهي ترتبط فيما بينها بعدد من الطرق الضيقة.

---

(١) ويقصد بذلك ماكان يطلق عليه وقتئذ المنشية.

(٢) Ludwig Salvator, Ein Yachtreise, P. 82.

الحجر الصحي الجمرك السراي



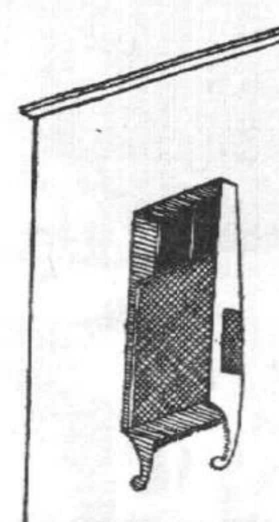
اللوحة 9-1

المنظر من أعلى الظهرة باتجاه الغرب والشمال الغربي مروراً بقرية السود ذات الأكواخ من القصب وحوض الميناء نحو مدينة طرابلس.

إن وضع مخطط لها، لايريد أن ينسجم تماماً مع الصورة الخارجية المغلقة للمدينة القديمة ولامع صورتها الداخلية المبلبلة، فالمدينة الجديدة تتوجه على شكل مدك مسماري نحو المدينة القديمة.

ولذلك فإن طابع المدينة خارج السور يختلف اختلافاً هائلاً عنه داخل السور. (انظر اللوحة السادسة، الشكل 2 ص114) فهنا خارج السور توجد شوارع عريضة يسرى الغبار عبر صفوف بيوتها التي تلفحها الشمس الوهاجة، وهنا أيضاً تبحث دون جدوى عن ظل لطيف وقوس ظريف وزوايا. إن البيوت الكبيرة تفتح

كثيراً من الأبواب والنوافذ على الشارع ناسية بذلك حشمتها الشرقية المغرقة في القدم، وهي لاتخجل من مدّ شرفات صغيرة (قلالية) نحو الأمام. وعلى كل حال فما تزال توجد حتى الآن بعض أزقة فرعية تسكنها في الغالب أسر ضباط وموظفين عثمانيين، وتوجد على نوافذ بيوتها مشابك خشبية (مشربيات) (انظر الصورة) وهي على نسق شبه الأقنعة البندقية.



المشربية وهي شبك خشبي أمام نوافذ الحريم التركي

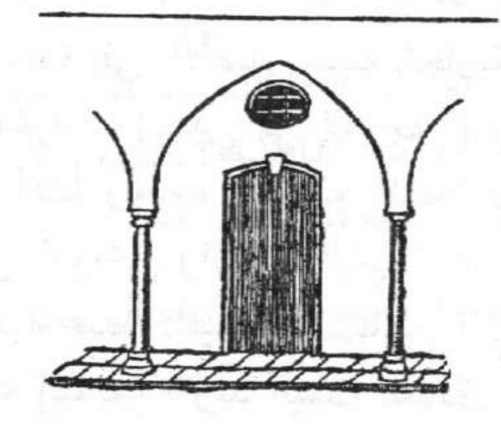
وتجعلك هذه المشربيات تتخيل وكأنك تتجول في إحدى مدن الأناضول الغربي لو أن السطوح المستوية تنقلك إلى الشرق الأفريقي. وتستطيع أن تشاهد أمام هذه البيوت بنات صغيرات بشرتهن صفراء بلون الشمع، وترتدي الواحدة منهن سروالاً كثير الثنايا وصدرية حريرية، وتلعب مع غزال مربوط. إنك لاتعرف من يجدر بك أن ترقب بإعجاب، أهي عينا البنت الصغيرة السوداوان الكبيرتان، أم عينا هذا الحيوان الصغيرة اللتان هما أوسع؟!

ليست المدينة الجديدة في الأصل مدينة تجارية، توجد في شوارعها دكاكين تجتذب الناس للشراء، بل هي في الدرجة الأولى مكان للناس الذين ينشدون أن يعيشوا حياة أهدأ وأمتع، وموضع للمخازن والفنادق. وفيما عدا ذلك فإنها تُتخذ معبراً بين الدواخل والمدينة القديمة. وعلى كل حال فإن هناك على مقربة من سوق الخبزة عدداً كافياً من الدكاكين التي تختلف في تصميمها عن الدكاكين داخل المدينة القديمة. وقد أقيمت الفنادق هنا محاطة بمجموعات من الأعمدة، تطل عليها حجرات مستطيلة جعل بعضها دكاكين وأكثرها ورشات (انظر الشكل) ولكي نتعرف عليها تعرفاً أفضل يجدر بنا أن نقوم بجولة صغيرة.

اللوحة 9-1

سوق الجمعة: الصورة مأخوذة من الغرب.

في المقدمة نشاهد حجرات الحدادين المسودة وأمامها تقف خيول فلاحي الواحة والدرك في انتظار تبديل نضواتها الصغيرة بنضوات مدوّرة مثقبة.



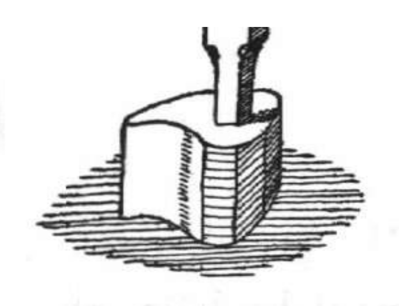
مقطع واجهة نموذجية لفندق من الخارج

ويقابلها في بلادنا (ألمانيا) نعال الخيل، وبعد ذلك لفتت أنظارنا قطع جلدية صفراء وحمراء وضعت جانباً لتجف في الشمس، وفي ظل الورشة يجلس بعض الليبيين ويطرقون على سندان صغير (ارتفاعه 10-15 سم) جلد ثور عليه شعر ليصنعوا منه نعلاً لأحذية جلدية صفراء تستعمل حذاء وبلغة هوذا سرَّاج علّق على حائط دكانه كثيراً من مصنوعاته. وتلك هي جلود الماعز المدبوغة باللون الأحمر الواردة من بلاد السودان وقد طرزت عليها نماذج هندسية بالصوف الملون والخيوط الفضية ولا يحط من قيمته الفنية إذا ما اعتبرناه بالغ التطريز.

عبوة البارود (توبية) وهي صناعة طرابلسية. جلد ماعز أحمر اللون طرز على الوجه بالفضة وخيوط الصوف الملونة، ويعبأ البارود في التوبية (قطرها 10 سم) وأما الكيسان الصغيران منهما مخصصان للخردق.

هنا أيضاً تجد محفظات النقود، وعبوات البارود (انظر أعلاه) والمسدسات وذخيرتها وغلاف زناد البنادق، والنطاق العريض (سبتة) لحمل البنادق، والجزمات النسائية (صباط) التي تلبس فوق البشماك (نوع من الشبشب)، وجزمات الأطفال والبلغات الرجالية المطرزة بالفضة (كندرة)، وهكذا فإن هؤلاء الحرفيين هم في الوقت نفسه سرَّاجون وإسكافيون (يصنعون الأحذية البيتية فقط)، ويتألف مقعد الواحد منهم من صندوق عليه حجر رقيق، وعلى هذا المقعد يقومون بجميع عمليات معالجة الجلود المبعثرة في كل مكان.

على الجانب الآخر من الشارع العريض تختبىء تحت الأعمدة المتسخة فتحات مظلمة لحجرات حدادي الأسلحة (الأسطى). إن في داخلها فوضى مريعة ـ على الأقل كما تبدو لأعيننا وهي أكوام من أخماص البنادق الخشبية، والبنادق القديمة المكسَّرة أو الموصَّلة، والمسدسات ـ الخناجر والعلب والمقاعد وقضبان الدك الخشبية والحديدية ويجلس الأسطى شبه عار على الأرض يدق فوهة بندقية طويلة وقد وضعت على سندان صغير وثبتها بين رجليه الممدودتين وفي الوقت ذاته ربطت السبطانة بخيط يتدلى من السقف بحيث يحافظ على نفس الارتفاع، وهناك في أحد الأركان طاولة مثبتة على قضيب قلاووظي وعليها سبطانات بنادق ومسدسات جديدة.



سندان حدادي الأسلحة وقد غُرس رأسه الحديدي في قطعة خشبية مثبتة في الأرض. ارتفاعه بين 25-30 سم.

في الزاوية الخلفية علّق الأسطى على الجدار منفاخاً طوله متر ونصف المتر، يتولى تشغيله على نحو مستمر كل من ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً وصانعه. وفي فتحة الباب يجلس معاونه وهو منهمك في لف سلك (تيل) حول سبطانة مسدس ويستعمل في ذلك بالتناوب سلكاً نحاسياً وآخر من الخارصين. ولهذا الغرض يحمي إبهام قدمه اليسرى بلفها بخرقة سميكة وقد لفَّ حولها قدراً كبيراً من السلك ومن هناك يسحبه إلى سبطانة السلاح، بأن يدورها حول محورها. إنهم يلفون هذا السلك حول كل سلاح ناري محلي، والغاية من ذلك تقوية النصلات الرقيقة وكذلك زيادة بريقها الخارجي. إن التيل هو مايدعى في الكتب السياحية بنادق محلاة بالفضة. أما في الواقع فإن هذا النوع من البنادق نادر ندرة كبيرة. إن الأشكال السابقة توضح بعض الأسلحة الطرابلسية

بهذه الدكاكين تنتهي مجموعة ورشات المدينة الجديدة الجذابة حقاً، أما شوي لحم الأحشاء فقد تعرفنا عليه خلال جولتنا في سوق الترك، كما أن أكشاك البيع لم تعد غريبة علينا، إنها شبيهة بتلك المعروفة لدينا في سوق الخبزة، ففيها تباع منسوجات سعف النخيل، والجرار الفخارية، وميازيب الماء (الحلقوم) التي يصب عبرها ماء المطر من سطوح البيوت الخالية من الصهاريج إلى الطرقات، والكانون، والطناجر، والمكبات التي تصنع من سعف النخيل، والحصالات الفخارية وأوعية البارود الخالية من الزخرفة. وقطران لمان وضع في طنجرة كبيرة

قرب نهاية الطرف الجنوبي للشارع الذي يحمل اسم رجل الأعمال الثري ريكاردو كسار تطل الواجهة الطويلة للمبنى الذي أسسه العثمانيون كمدرسة للفنون والصنائع (انظر اللوحة السادسة، الشكل 2). في هذه المدرسة يقوم معلمو حِرَفٍ متخصّصون بالإشراف على تعليم الشباب صناعة الأحذية، والنجارة والحدادة، وفي بعض الحالات يتولى ضباط مهمة تعليم الصنعة. إن الأعمال المنجزة كانت بالغة الدقة، وعلى ذلك جرى تصليح قفل بصورة لطيفة، في الجانب الجنوبي الشرقي من المدينة الجديدة تظهر المدخنة الحديدية لمكبس الحلفا، ولكن على مسافة بعيدة فوقه يرتفع بناء المطحنة الإيطالية الضخم التي أنشئت عام 1909 ، وقد خيل لي في البداية أنها حصن، سيما وأن موقعها يطل على الثكنة.

7 سوق الثلاثاء (التلات)

يمكن مشاهدة سوق الثلاثاء من مبنى السراي على أفضل وجه، إن شكله شبيه بمغرفة إنه يمتد أمامك ويفصل مياه حوض المرفأ ، الزرقاء في الأماكن العميقة والخضراء حيث الماء ضحل، عن فنادق المدينة الجديدة البيضاء هنا يتدرب جنود المشاة العثمانيون كل صباح، ويبدي الفلاحون والبدو دهشتهم لعظمة السلطان التي تتجلى في هذه التدريبات، وفي الطرف الشمالي الضيق يمكن شراء بعض السلع الخضراء البسيطة مثل علف الحيوانات. إن شمس الشرق المشرقة تتجول تدريجياً فوق السطح الأصفر ومامن أحد يرغب بالسير بعد ذلك فوق الرمل، أما الحنفية العامة التي أنشئت في 1906 فإنها تجمع حولها باستمرار بعض الجيران العطشى. وعلى الشاطىء يصطف أهل المجون من أبناء القرى والجنود وأبناء المدينة للثرثرة، بينما تشي هيئاتهم بما يجول في خواطرهم. تلك صور من الحياة اليومية، وهي لاتستحق النشر لولا أنها تلقي ضوءاً على وضع شاذ، ففي أحد أيام الأسبوع، وعلى وجه التحديد يوم الثلاثاء، يتغير المشهد بين الساعة الرابعة صباحاً والساعة الثانية بعد الظهر إلى درجة قلما تستطيع معها التعرف عليه، عندئذ تجد هنا نصف سكان منطقة طرابلس، طالما أن أحدهم قادر أن يحضر خروفاً أو طماطماً.

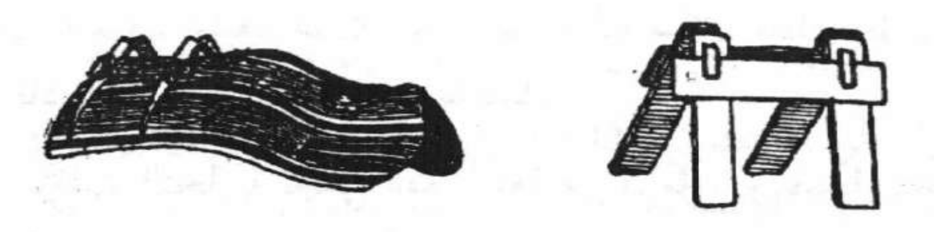
إن المواعيد التجارية تجعل هذه البقعة من الرمل، ولبضعة ساعات الزاوية الأكثر حيوية، والأكثر تنوعاً والأكثر عبرة في كل خليج سرت. ولايستطيع الأجنبي هنا أن يحس بنبض الحياة الاقتصادية في ليبيا إحساساً مكثفاً وفي أسرع وقت دون أن يضطر لتحمل مشاق السفر في البادية والصحراء لعدة أسابيع.

فلنشاهد أولاً سوق المواشي، على جدار الحديقة العامة يقوم سوق الخيل (حصان ـ فرس) تبعاً للعادة القديمة وهي تلوح بذيلها الطويل باستمرار بحيث تطرد الذباب المزعج عنها ويوضع على ظهرها المعقر في الغالب ركاب السرج هنا تجرب فرس وهناك تصهل الأمهار بين البطون وقد اجتذب نظرنا بين العديد

من ألوانها الفرس الأشهب المبرقع.

على شاطىء البحر ومقابل سوق الخيل تقع سوق الجمال (الجمال والمهاري)، إنه تلاطم أمواج حقيقي، ثمة أسنمة بنية مائلة إلى السواد، وأسنمة أخرى بيضاء، وبين تموجات هذه وتلك يتراءى الحولي الأبيض والطربوش الأحمر، بينما يجلس تحت الرقاب المحنية وعلى سروج قديمة وأكوام العشب الأخضر بعض الباعة وهم يمسكون بالحبال الرؤوس المربوطة. إن مشتري الجمال يشد الجمل من ذيله الكثيف الشعر على الجانبين، وذلك امتحاناً لقوة الحيوانات، فإذا مااستسلمت للشد متراجعة أثبتت أنها ليست قوية بالقدر الكافي. وحيثما تدير نظرك تشاهد أشداقاً تجتر وعيون كبيرة سوداء مبتلة تتساقط منها أحياناً دموع كثيرة.

وأمام رصيف الميناء حيث تشحن بالات الحلفا الصفراء والخضراء، تحشر في الشمس مجموعة البقر الذهبية اللون. إن قلة ارتفاع قامة الأبقار (أقل من متر)، والظهر المحدب الزوايا والخواصر الضامرة تشكل فوارق بين البقر الطرابلسي وأبقارنا (في ألمانيا). وهنا يلعب اليهود دوراً رئيساً. هاهم يظهرون في معاطفهم السوداء، يكاد الواحد منهم يسقط من الضحك لمشهد بعض الثيران الصغيرة التي تثب وقضبانها المدببة منتصبة على بقرات لاتبدي حراكاً.



الكِتَبْ

الحوية الطرابلسية

إلى الغرب من سوق الخيل تمتد سوق الحمير. هنا يجري المشتري فحصاً دقيقاً لأسنان الحمار الصفراء وكذلك لبقايا الجروح على ظهره. وعلى مقربة من هذا المكان تقف حمير تجار السوق مربوطة بحبل مثبت بوتد في الأرض، الظهر مقابل الظهر والرأس بجانب الرأس، وكما هو الحال دائماً،

فالصورة تعبر عن الرضوخ إلى مالابد منه.

بجانب جدار الحديقة الأصفر بذلت جهود شاقة في نصب خيمة ضخمة مصنوعة من القماش المشمع وتقوم على أعمدة خشبية، وهي بمثابة مقهى يلجأ إلى ظله الناس من مدنيين وفلاحين وبدوٍ وضباط، فيجلسون جنباً إلى جنب يمتعون أنظارهم بما في حركة السوق من طِرافة وتشويق.

أما باعة البيض فقد اتخذوا مكانهم على الطريق المؤدي إلى الثكنة، حيث يعرض اليهود البيض في صناديق صغيرة معبأة بالحبوب، بينما يجعله الفلاحون في صرر رخوة وهنا أيضاً تباع الحصر، بمختلف الأحجام، وتسمى الكبيرة خطية والصغيرة حصير، كما تباع هنا الفراريج والحمام وأرانب مصر، ونادراً مايوجد الأرنب البري. وفي الخريف يعرض السمن في علب طويلة قليلة الارتفاع وغطاؤها من قماش يمكن ربطه وفكه بيسر. وأمام السمَّانة تقف جمال عليها تبن وربطات قصب ويجلس أصحابها إلى جانبها فيبدون وكأنهم أكوام من القماش الأبيض (انظر اللوحة الثامنة).

في وسط السوق تنتشر أكوام الخضار وأكشاك بيعها صفوفاً، وتختلف أنواع هذه الخضار باختلاف الفصول (انظر الشكل 3-4 من اللوحة الثامنة) والسلعة الوحيدة المتوفرة دائماً هي الليمون (الليم القارص) والبصل والثوم والبقدونس والبطاطا والبطيخ الأحمر (الدلاع). على أن الأخير يطاف به في الشوارع محمولاً على الحمير ويباع (بالعلاَّم) حيث يكون للمشتري الحق في أن يشق (يرشم) الدلاعة للتأكد من حمرتها.

في الشتاء، فصل انتظار الخضار، تبدو سوق الخضار صغيرة، فخلال الفترة الممتدة من نوفمبر حتى أبريل يشع البريق من قفف البرتقال (ليم حلو، وليم برتقال) والمندرين (تلفظ مندولين) تجاورها كميات تمر جاف من موسم الخريف. ولاتعود السوق إلى حيويتها إلا في الربيع بعد انقضاء موسم أمطار الشتاء، عندئذ تنبسط الألوان الزاهية على حصر فلاحي الواحة. فيختفي البرتقال تدريجياً ويفسح المجال لبروز رؤوس القنبيط البيضاء وحزم السبانخ الخضراء والبازلاء والفاصولياء، جنباً إلى جنب مع الفجل والجزر، وأخيراً تظهر قشور

اللوز الخضراء الرمادية، والمشملة ذات الخدود الرقيقة الصفراء، والطماطم القانية الحمرة التي تستمر حتى بداية الخريف، والمشمش الذي يقترن موسمه مع بداية الصيف ذي الأشهر القائظة التي تجعل الفواكه الماوية تنضج وتغير لونها. وهناك التوت بنوعيه الأبيض والأسود، ويجب أن يؤكل في يوم قطافه، لأن ثمرته سريعة الارتخاء والعطب، أما مايعرض من البطيخ الأصفر (القلعاوي) والعنب الذهبي والأسود، فإنه يفوق في كمياته وجودته ماتجده هنا من التفاح والإجاص (أنزاص).

وتجد بين هذه الفواكه خضاراً موسمية مثل القنبيط، والكوسا (قريعة) والملفوف، والخس والبامية التي هي نوع من الخضار يصبح لزجاً غير مقبول إذا ماطبخ، وقرون الخروب اليابسة، والدراق (الخوخ) الفاخر، والتين (الكرموس) في شهري يوليه وأغسطس، وعرانيس الذرة الصفراء التي تحتل مكاناً كبيراً في غذاء الفقراء خلال الصيف والخريف (اللوحة الثامنة، الشكل 2). وفي الخريف تكثر ثمار الرمان الأصفر والأحمر فيصنع أهل الحارة من بعض تلك الثمار دبساً للشرب ومن بعضها الآخر خمراً. كما يكثر الفلفل الأحمر بقرونه الثلاثية الوجوه التي شوتها الشمس والذرة والبطيخ والطماطم. إلا أن الفاكهة الرئيسية الآن هي التمر بنوعيه البلح والرطب، إلا أن كلا النوعين ضئيل الجودة هنا في طرابلس، ولذلك يستوردون في الربيع من تونس أنواعاً من التمور للأكل. ولكن إذا ماحفظت في الخل مدة معينة أصبح لها طعم الجعة (البيرة).

غربي سوق الخضار تقوم هياكل دكاكين الجزارين المسلمين حيث تعلق الأغنام التي ذبحت لتوها في فندق مجاور، ويقوم رجل هناك بربط أرجل الخروف ويثبتها على البطن ثم يذبحه بسكين حادة ويلقيه جانباً ريثما يسيل دمه، والمسلم مثل اليهودي لايأكل سوى لحم الحيوانات المذبوحة، إنه قانون يطبق أيضاً على حيوانات الصيد.



اللوحة العاشرة

اللوحة 10-1 المنشية، طريق تحف به الجدران الطينية (الطوابي وفروع أشجار الصبار (الهندي) وفي الوسط شابان ليبيان زوج وزوجة.

في الركن الجنوبي من سوق الثلاثاء اتخذت جماعة منفّرة سيئة السمعة موضعاً لها. وهناك جرار فخارية كبيرة على طاولات مبلولة، وصفائح نفط مليئة بزيت الزيتون الذي يبل المارة أصابعهم فيه بغية تذوق طعمه، فيجدونه رديئاً ويمضون إلى تاجر مجاور. وتغلى زبدة الغنم في حلل كبيرة على نار فحم الخشب لكي تغدو سمناً وتتجمد بعدئذ بلونها الأبيض المائل إلى الصفرة، لكنهم

يسيلونها بهدف تكييلها. وقد أدخل أحد التجار يده في هذا السائل ذي الرائحة المقززة، واحتفظ بيده فوق وجهه بحيث يسيل السمن في فمه، وشرع يصيح إنها أحلى من عيون فاطمة، وأرطب من دراق (خوخ) الجبل.

خلف جدران من القماش ينفصل التجار بوجاهة عن عامة الشعب وقد اتخذوا الحولي الأبيض وسجاد جربة والبرنس المقصب بألوان بنية صفراء وعادة مايرتدى في فصل الشتاء فقط. ثمة في الجهة الغربية من الثكنة رجال ونساء من البدو ينصبون أعمدة عالية لبيت من الشعر منشور فوق الرمل، وأمام هذا البيت نساء سوداوات جئن من سوق الخبزة بأرغفة بنية داكنة اللون. وهناك جماعة الصرافيين اليهود يديرون ظهورهم إليهن، ويتنعمون بفيء المظلات أو السقوف الصغيرة التي اتخذوها من الخرق، إنهم منهمكون بأعمال حسابية بسيطة يؤدونها لحساب غالبية التجار من المسلمين الذين يلجئهم الطلب الكبير عن الفراطة (الرقاق) إلى تبديل قطعهم الفضية الكبيرة بخسارة.

هاهم نساء ورجال ينادون على نوع من الحلوى البيضاء أو الملونة بالأحمر وعلى فستق العبيد المحمص (الكاكاويه) وعرانيس الذرة والتمر، وعلى قطع حديدية قديمة، وأزرار وزجاجات صغيرة يفترض أن يكون محتواها عطراً.

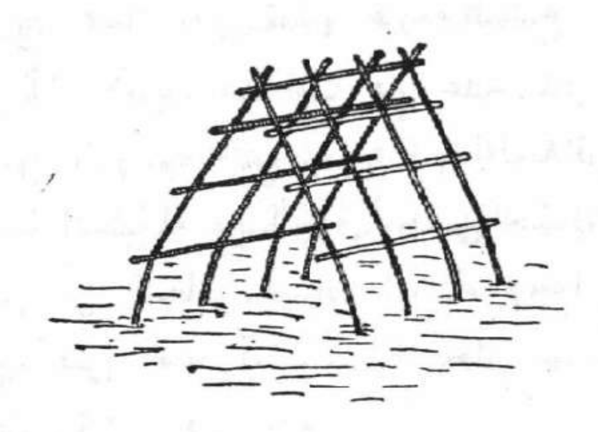
وهاهم اليهود بنظرات متوثبة يعرضون الكتان والخيوط والإبر والطرابيش وما يشبهها. بينما تقعد نساء خلف مناديل من نسجهن، وسلال (قفة) رائعة الجدل متباينة الأشكال، ومراوح مدورة لنفخ نار فحم الخشب في الموقد، ومكانس يدوية من القصب إنهن يسندن أذرعهن العارية المدورة على ربطة من القصب، ويظهرن براعتهن أمامك.

وهنا أيضاً توجد أقفاص الدجاج المصنوعة من سعف النخيل، ومناخل ذات إطار خشبي، وجذور نباتات طبية، وأعشاب طبية عجيبة، وشاي أخضر. كما يجلس بعض الناس تحت خيمة صغيرة (زريبة) يتكون هيكلها من أغصان النخيل ويغطى ببعض الخرق أو خيش الأكياس (انظر الشكل وكذلك اللوحة الثامنة (الشكل2)



اللوحة 10-2

المنشية : المقبرة الاسلامية وقد خربها 1904 الوادي، إلى اليمين الطريق الناشيء عن الفيضان والمؤدي إلى بومليانة. وفي الوسط ثلاث أشجار نخيل ضخمة ذكر (دكّار) الصورة مأخوذة بالاتجاه الجنوبي الغربي.



الزريبة، هيكلها من أغصان النخيل تستعمل كخيمة للبيع

في هذه المنطقة نصادف سوق المواشي على شاكلة مغايرة، وفيها دائرة غارقة بالكآبة، يتوسطها عدد من كلاب مقيدة بسلاسل حديدية تفوق طاقتها كثيراً، بينما أجسامها مكتظة بالقراد. هاهو أحدها ينبح غاضباً، فيشد الثاني قيده الحديدي بامتعاض، ويكشر الثالث عن أنيابه استعداداً للنهش، عندما أراد أحد المشترين أن يكشف عن عيوبه المخبأة. إن العيب العام الذي يبدو أن أحداً لايلاحظه، هو أنها جميعاً تكتظ بالبراغيث التي تسري في الجلد الأبيض. فعندما اشتريت كلباً من نوع كلاب الرعاة وعمره مابين ثلاثة وأربعة شهور وأخذت أغسله وأمشطه وأفليه لمدة ثلاثة أيام بلغ عدد البراغيث التي وقعنا عليها 930 برغوثاً. أما براغيث الكلاب الكبيرة فإن عددها يبلغ الضعف بكل سهولة.

إن المواشي الصغيرة تتصرف بصورة أرق، فإن الماعز (الصغير يدعى جدي، والمتوسط العمر، برشني، والكبير براشين) ذا الظهر الأسود والأبيض يحشر نفسه ملتصقاً بظهور الغنم ذي الصوف (وتسمى نعجة، كبش، خروف أو غنم).

و الغنم في ليبيا هو من النوع ذي الإليه، ومن خلال الإلية (ليه وتدعى في فزان طرباقة) يتضح ماإذا كان الخروف جاهز للذبح، ويقبل المشترون إلى الغنم ويرفعون نصفه الخلفي ويمسكون بصدره ويلمسون خاصرته بحيث يتأكدون من نوعية اللحم، وإذا ما اختلف اثنان وتحوّلت الملاسنة إلى معركة كلامية بين كثيرين فجأة واجتمع عدد كبير من أصحاب الحولي وهم يقذعون في الكلام، كان في وسعنا ألا نقلق لأننا نعلم أن ذوي الرؤوس الحامية سيجلسون بعد بضعة دقائق بسلام تحت خيمة القهوة يدخنون ويثرثرون، إن الجنوب يحب البهرجة الخارجية، والغضب السريع، فتلك أمور تمليها طبيعة المناخ.

إنهم رائقون، ولو أن الأمور أهدأ مما هي عليه لدى المنافيخ الصغيرة تحت تلك المجموعة من الزرائب التي يقوم فيها الحلاقون بأعمالهم، أو يجلسون خلف هذه الخيمة المشكلة من الخرق يجلس حسّان متربعاً على قطعة حصير وإلى جانبه حوض من النحاس أو من الميناء ووعاء صفيحي فيه ماء عذب، وأمامه يقعد بدوي أحنى رأسه وأسلم شعره ليحلق بموسى رخيصة لاتبقي منه إلا جديلة متوسطة الطول تتدلى على الظهر..



برادة، وهي جرة فخارية رمادية من طين غير مشوي

في الطرف الشمالي الغربي من سوق الثلاثاء تباع حبال بنية وخضراء وصفراء مجدولة من الحلفا، وجرار رمادية وحمراء (انظر الصورة) يرشح الماء من مسامها فيصبح أبرد من حرارة الهواء[١]، وفيما خلا ذلك توجد طناجر من الفخار المشوي وقرب غدامسية من جلد الماعز، ومحاريث (انظر تفصيلات عنها أعلاه ومساند خشبية لسروج الجمال ومايوضع تحتها من أكياس تابعة للسرج .

ويعرض يهود قذرون من سكان الجبل قرباً جلدية صغيرة وكبيرة تستعمل في سحب المياه من الآبار، وجلود الماعز مدبوغة باللون الأحمر، وجلود بقر ومهراساً خشبياً طويلاً ودقيقاً تستخدمه النساء في دق الفلفل الأحمر بمدقات دقيقة. وفي هذا الموضع نزلت بعض أسر الحدادين اليهود من قرية العمروس أو من المدينة ذاتها، وحدادون يصنعون شلف المحرات الحديدي، ومناجل تعيسة لحصد الأعشاب، ومعازق يستعملها فلاحو الواحة في قلب الأرض إنهم يحافظون على اشتعال النار محصورة بين أحجار على الأرض بوساطة منفاخ، يقوم على تشغيله أحد الأولاد اليافعين (انظر اللوحة الثالثة عشرة، الشكل 2). وقلما تكف المرأة عن العمل، فهي في العادة تحمل الولد الأصغر على ذراعها وتحضر القهوة أو أي نوع من الأطعمة. وإذا ماألقينا في الختام نظرة عابرة على الذين يجلسون تحت زرائبه فإننا نقف على الروح التجارية العريقة لدى أبناء طرابلس، وهذه الحقيقة لم تعد تشكل السر

(١) إلا أنه لايبرد كالثلج مثلما يحلو للسائح أن يكتب.

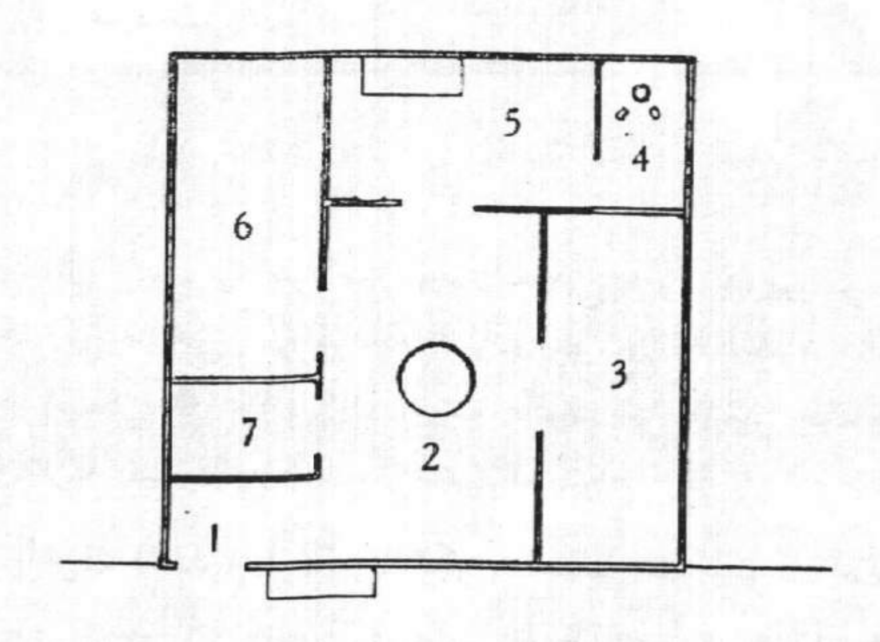
الوحيد بالنسبة لنا.

سبق أن وصفت سوق الثلاثاء، وقد استمرت على النحو نفسه حتى الاسبوع الأخير من سبتمبر 1911 . فقد كان يتوافد عليها من جميع نواحي البلاد فلاحون وبدو يجيئون حاملين على الجمال والحمير ثمار نشاطهم، وغالباً ماكانوا يستغرقون ثلاثة أيام في الطريق ويمكثون يوماً كاملاً في مدينة طرابلس العالمية يجلسون في المقاهي ويشربون ويدخنون النرجيلة. ثم يسيرون أو يركبون لمدة ثلاثة أيام أخرى عائدين إلى البيت لإعداد بضاعة جديدة ينطلقون بها إلى المدينة ثانية. وهم في أغلب الأحيان لايكسبون من هذه الرحلة التي تستغرق سبعة أيام أكثر من مارك واحد، والآن أصبح الوضع مغايراً في سوق الثلاثاء.

إن البلاد أصبحت مغلقة والواحة مدمرة. والقسم الأعظم من المواد الغذائية لايأتي من البلاد بل من خارجها، وفي سوق الثلاثاء يصدح صوت صفير القاطرات التي تسير حتى عين زاره، وصفير جنود البرساليبري ذوي القبعات العريضة والقبضات القاسية، نعم، نعم إن المدينة تتقدم.

8 ـ البيت الطرابلسي

إن البيت الطرابلسي (الحوش) يؤدي غرضاً مزدوجاً، فينبغي أن يحمي سكانه من لهيب الشمس، التي يمكن أن تكون حتى في أيام الشتاء شديدة الحرارة، كما ينبغي أن يتلقى مطر السماء وأن يخزنه. وعن هاتين الوظيفتين ينتج شكل البيت البارز نحو الخارج، ويتألف من أربعة حيطان مجردة وسطح مستو (فوق الحيط) وبذلك فإن الحيز الذي تسقط عليه أشعة الشمس صغير نسبياً، ويجري تخفيض قابليته لتخزين حرارة الشمس بوساطة طليه بالجير الأبيض. إن حجم الباب والنوافذ (الروشن) صغير أيضاً (أصغر مما يمكن أن نتصور) وهذا ينطبق على البيت الطرابلسي القديم، الأمر الذي لم يعد يراعى في الأبنية التي نشأت في ظل التأثيرات الأوروبية.

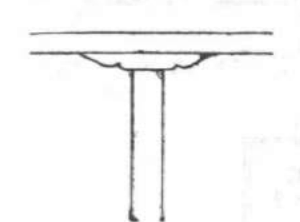


مخطط البيت الطرابلسي (الحوش)، 1ـ الباب والممر. 2ـ الفناء (وسط الحوش ـ سقيفة) 3ـ حجرة رب الأسرة (دار) 4ـ دورة المياه (الكنيف، بيت الراحة، بيت الماء) 5ـ المطبخ الموقد والصهريج 6ـ الحريم 7 ـ حجرة الخدم، إلى جانب مدخل الباب دكة حجرية للجلوس.

إن فناء البيت (وسط الحوش، السقيفة) لايستعمل فقط في تطوير حياة أسرية دونما إزعاج، بل أيضاً من أجل تهوية حجرات السكن أثناء الليل، وهذا

الأمر ضروري في المدينة إذ أن ضيق الأزقة والأبنية المتراصة تقلل من تسرب طراوة الليل. إن الأفنية مبلطة دائماً ببلاط حجري، ويتوسط الفناء مصرف للماء إذا كان صغيراً، أما إذا كان كبيراً فيسوّر بجدار حجري تتوسطه شجرة نخيل وأشجار أخرى أو بعض الشجيرات التي توفر الظل.

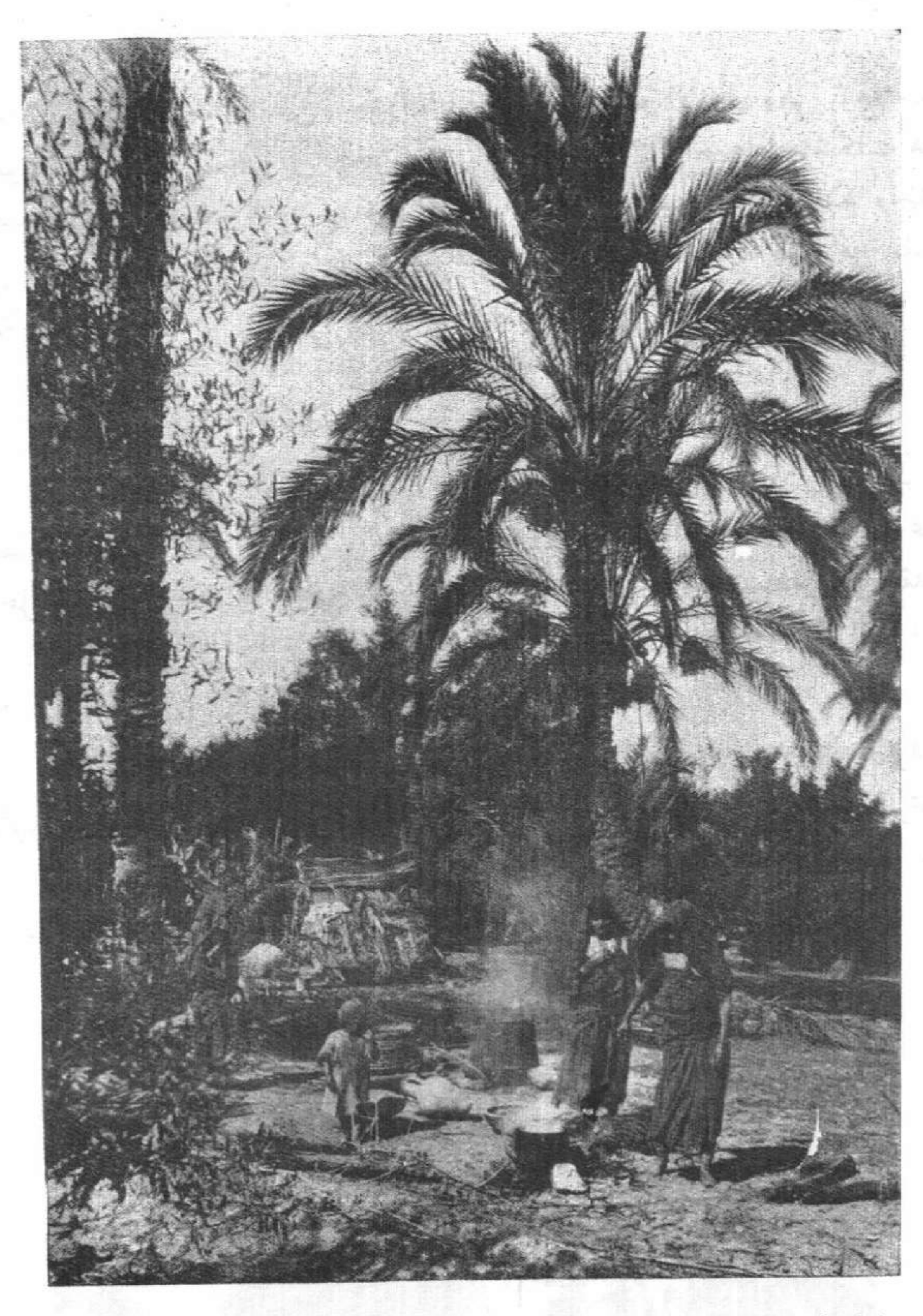
لاتوجد في أي مكان ينابيع جارية، إذ أن القوة الدافعة للسواقي الجارية غير موجودة على الإطلاق، وعلينا أن ننتظر حتى المجلد الثالث كي نتكلم عن حكاياتها اللطيفة. إن جدران الفناء مغطاة ببلاط ملون يكون في العادة أزرق اللون (زليز) ذي أصل إيطالي، ويحيط بها مجموعة من الأعمدة الخشبية (عرصة ـ أنظر الشكل) أو أقواس حجرية يمكن أن تتسلق عليها نباتات خضراء.



العرصة: وهي عمود خشبي نمطي
لفناء البيت الطرابلسي

في الوقت الذي ينفتح فيه سرداب البيت المتعرج على الطريق من جهة (انظر المخطط)، يوجد في مدخل آخر كوتان للبير وصهريج ماء للشرب (ماجن انظر اللوحة الثامنة ـ الشكل **4**) وإذا كان البيت مكوناً من طابقين فإنه يشيد فوق الأعمدة السفلية شرفة خشبية في الغالب تدعى المستراح.

إن جميع الغرف (الدار) طولانية الشكل، تستغني عن النوافذ أصلاً، وذلك بأن تفتح إلى الفناء. ويبدو أن التأثير الأوروبي أحدث تحولاً في هذا المجال أيضاً، مثلما أثر في بناء الشرفات (القلالية)، وقد كانت هذه غريبة عن البيت الطرابلسي على عكس النماذج المعهودة في الشرق الآسيوي. وأما الأرضية (اللوطة) فإنها تتكون من تربة خام فيها الكثير من الصدف، ونادراً ماتكون من البلاط الذي يمتاز أن البراغيث لاتعيش فيه مثل الأرضية الترابية، وفي الصيف تنتشر طراوة لطيفة إذا مارشت ببعض دلاء من الماء، وهي الطريقة المعتادة هنا في التنظيف.



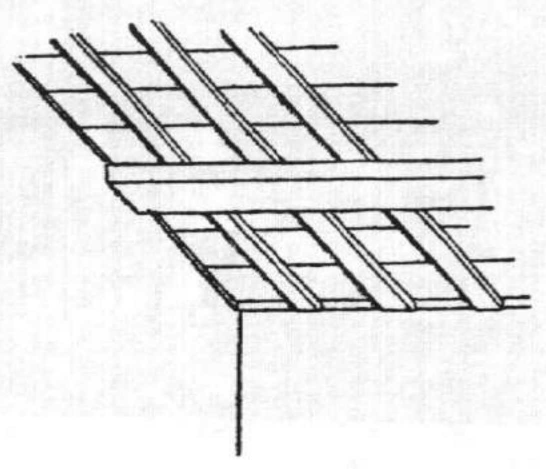
اللوحة 11-1 نجع بدوي في الواحة، في الخلف قريبى وهو كوخ من قصب وحصر ويتدلى من اشجار النخيل عرجون التمر الناضج

وتتطلب ظروف الشتاء فرش عدد من الحصر والسجاجيد بغية تخفيف

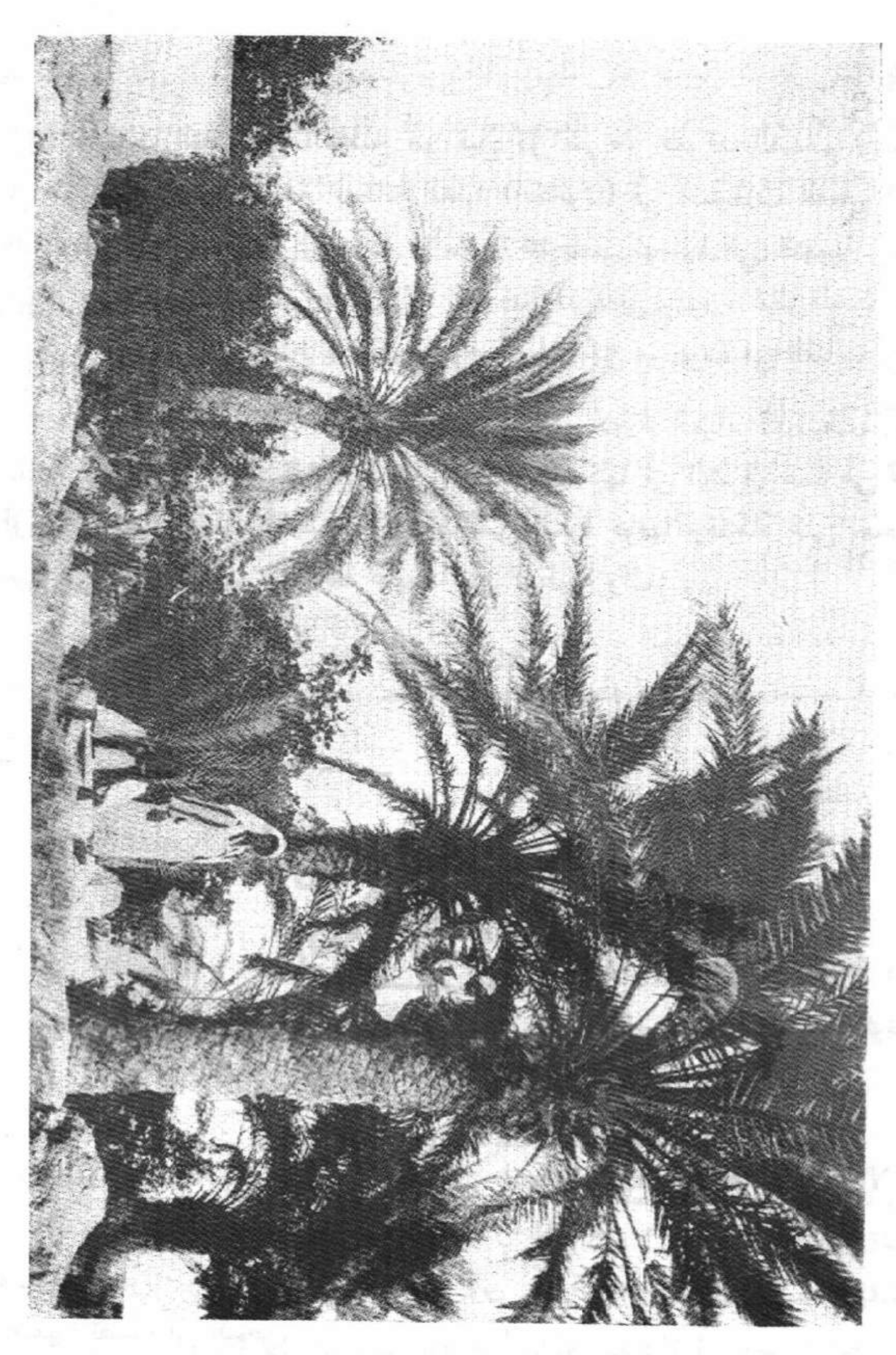
البرودة بعض الشيء. وتطلى الجدران باللون الأبيض أو الأزرق وهي ترفع سقفاً (السرير) من ثلاثة أنماط من الخشب من الدعامات والألواح وإذا ماشكلت هذه السطح في آن واحد، فتوضع فوقها طبقة من التراب يبلغ سمكها قدم واحد. وفي بعض الغرف، وعلى وجه الخصوص في البيوت القديمة، تقوم في القسم الخلفي من الحجرة مصطبة خشبية تكون مزخرفة أحياناً وتدعى السدة أو الناموسية (انظر ص 106) يستعملها شخصان بمثابة سرير للنوم (فراش)، أما الفراغ القائم تحتها فيستعمل لوضع المفارش والأغطية الصوفية.

إن ماتبقى من الأثاث يتكون أصلاً من الحصر والسجاد والمساند أو المقاعد. وفي الجانب الأدنى من الحجرة وضعت ألواح خشب مدورة على أرجل قصيرة يتراوح ارتفاعها بين 10-20 سم لتشكل طاولة تستعمل في تقديم الطعام، كما توجد صناديق العرس الملبسة بالنحاس والمزخرفة بالألوان، وفي الحجرة تلاحظ أيضاً كنارات مزخرفة وخزائن في الزوايا.

ونتيجة للتعامل البحري الدائم مع أوروبا فقد أدخلت الطاولات والكراسي الأوروبية وغالباً مانجد لدى اليهود الكومودينو وعليه المصابيح، وعنبرية البرتقال الملونة والكؤوس. وباقات الزهر الاصطناعي، وأما غرفة الخدم فإنها تضم عادة مضجعاً خشبياً مع حصير أو فراش من القش.



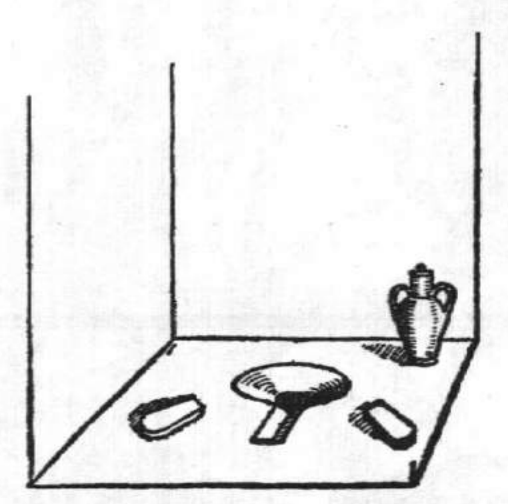
سقف حجرة طرابلسية (السرير) وهي تتكون من ألواح ودعامات خشبية طليت باللون الأبيض



اللوحة11-2 في الواحة: في اليمين الصعود إلى شجرة النخيل بحبل (الوصلة) يربط حول الجسم. في الوسط أسرة فلاح من الواحة.

إن مايلفت النظر في المطبخ هو قبل كل شيء، الموقد الضخم (الدكانه الشكل ص 109) وتستخدم فتحاته العليا (الكانون) في استيعاب الفحم الذي يستخدم عادة كوقود وأما الفتحات الأمامية فتنحصر مهمتها في التهوية. بينما تتسرب الروائح والدخان عبر قوس إلى المدخنة (وتدعى بابور، انظر الشكل ص 60) وفي أحد الجدران تفتح كوة الصهريج إذا لم تكن موجودة في الفناء.

إن القسم الأخير من البيت الطرابلسي هو دورة المياه (الكنيف، بيت الراحة، بيت الماء) (انظر الشكل) التي تختلف فتحتها في الشرق عما هي عليه في أوروبا. فهي ليست للجلوس بل يقرفص المرء فوقها وقدماه على حجرين مرتفعين عن الفوهة بحيث يحافظ عليهما من الرطوبة والبلل.



الكنيف: إن الحجرتين اللتين ترتفعان حوالي إصبع عن الفوهة تستعمل لوضع القدمين، إذ أن الوضعية السائدة في الشرق هي القرفصاء

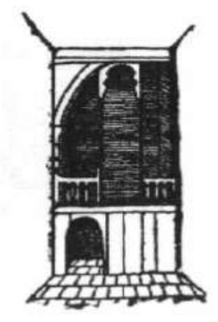
لاشك أن هذا النوع من الوضعية أكثر طبيعية وأنجع مما هو لدينا، إلا أنه يجدر بالمرء في البداية أن يعوِّد عضلات رجليه على هذا الأمر الجديد وهم يصبون الماء من جرة فيسيل مع مايجرفه إلى حفرة بجانب البيت أو يجري عبر قناة صغيرة تصب في البحر.

فلنصعد الآن سلّماً حجرياً أو خشبياً (دروج) أو سلماً عادياً إلى السطح (فوق الحيط)، والغاية من هذا السطح هو تلقي ماء المطر ونقله إلى الصهريج

الذي يبنى تحت البيت عبر أنابيب فخارية تسمى (الحلقوم). إنه لمزعج صوت الدلاء ليلاً وهي تلقى في الصهريج فارغة. ويرتبط الصّهريج مع المطبخ عن طريق فتحةٍ متوسط قطرها 30 سم، ومن خلالها يلقون بالدلو مربوطاً بحبل.

ولما كان المطر لايسقط إلا في الشتاء، والمصاطب الصغيرة لاتكفي لملء الصهريج فإن ماء الشرب ينفد في معظم البيوت وعادة مايكون ذلك في شهر مايو أو يونيو، وعندئذ ينبغي الانتظار حتى الشتاء التالي كي يمتلىء، ولذلك يلجأ المحتاجون إلى شراء ماء الشرب طوال الصيف. وهكذا فإن أصحاب الحمير الذين وجدناهم قرب الحنفية في سوق الخبزة يطوفون في شوارع المدينة بحثاً عن مشتر لمحتوى جرتين أو ثلاث جرار من الماء مقابل ثلاثة أو أربعة متليك (بفنيغ 12-16).

وتحتفظ ربة البيت بالماء على ارتفاع قامة رجل، وفي أدنى المطبخ خوابي فخارية تستند إلى زاوية المطبخ، إن حساب الماء يمكن أن يعني مادياً كلفة ملموسة إذا ماانحبس المطر ستة شهور أو سبعة. ويمكن أن يعادل (في ألمانيا) نفقات التدفئة المعدومة تماماً في طرابلس.



السرير الجداري ويدعى الناموسية أو السدة، وهو مصنوع من الخشب ويوضع في الحجرة الطرابلسية.

أثناء الصيف يوفر البيت الطرابلسي إقامة ملائمة تماماً، فهو مهيَّأ لصدّ الحرارة نوعاً ما. أما مدة البرد التي تستمر شهرين أو ثلاثة أشهر فإنها تأتي بما لايمكن تصور ماهو أسوأ منه. إذ في الخارج يتساقط المطر وتوحل الطرق بحيث لايمكن التفكير بنزهة طوال أسابيع. أما في الداخل فيهيمن برد مزعج، حتى أن مؤشر ميزان الحرارة لايتعدى طيلة أيام عشر درجات مئوية.

- ليس هناك مدافىء ونار الفحم الخشبي المكشوفة تسمم الهواء. لايزورني أحد، وأصابعي متجمدة لاتستطيع الكتابة، وهكذا يجلس المرء

متدثراً بالأغطية الصوفية، يتمنى عودة أيام الصيف القائظة.

عند مغادرة البيت، وجدنا على الباب بعض الأشياء التي يجب ملاحظتها ونريد أن نغض النظر عن مفتاح الباب الذي يبلغ طوله ربع متر، الذي اعتاد الأهالي أن يربطوه بشريط ويلقوه على ظهورهم عند مغادرة البيت، وذلك ربما كي يظهروا للعموم مدى قوة المفتاح، كلا.

لقد أثار انتباهنا الحنّاء الأحمر على يد فاطمة التي يجب أن تدفع بها الشر، وكذلك السمكة الزرقاء، وهي علامة مسيحية مازالت سائدة هنا وهي علامة تجلب الخير. وإن أيادي الأولاد العابثين وسخت الجدران برسومات تمثل في كل مرةٍ باخرة ومسافرين يمتازون بأوصاف كانت معروفة في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. ومن الغريب تفضيل الأعمدة القديمة ووضعها في أركان البيوت، إذ يسود الاعتقاد أنها تدعم البيت.

9 ـ المناسبات

الطهور والختان

بينما يجري الطهور لدى اليهود في اليوم السابع من عمر الولد، فإن هذا التحديد الهام متباين لدى المسلمين. إن الأولاد الصغار يكبرون في رعاية النساء ثم عادة ماينخرطون مابين سن السابعة والتاسعة في جماعة من أفراد المجتمع ممن لهم اعتبار، ويقوم الأب بذبح خروف بالمناسبة، وتخبز الأم عدداً كبيراً من أرغفة الخبز، ويستطيع الضيوف أن يأخذوا منه ويستجدي الفقراء وينالون، وتقدم الشاي والقهوة، بينما يقلب الكسكسي والمحمصة والدويدة والرشدة في قصعات خشبية كبيرة، يطبخ الأرز، ويشوى لحم الخروف على أسياخ صغيرة. وتحضر النساء اللواتي يزغردن بصوت عال، وينتشون بتناول اللاقبي والبوخة.



الدربكة (دربوكة) وهي نوع من الطبل يوضع تحت الذراع الأيسر ويدق باليد اليسرى أو بالمضرب باليد اليمنى.

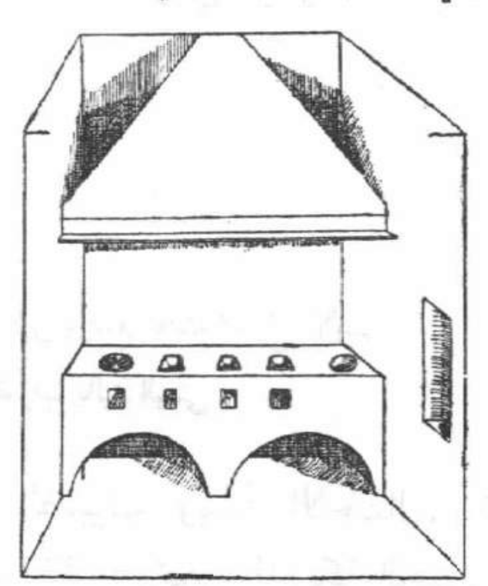
عند الظهر يدخل الضيوف ويبدأ الاحتفال، فتصدح موسيقا القرب والمقرون (انظر الشكل ص 33) وتهدر الدربكة الكبيرة التي تعلق تحت الذراع وتضرب بالمضرب باليد اليمنى. وفي الأثناء يرقص الرجال، ويثرثرون كثيراً ويدخنون ويشربون أكثر، ويخرج الأتراك بالاحتفال إلى الشارع فيجعلون الطفل المحتفى به على ظهر حصان، ويتقدم وتبدو عليه إمارات الخوف. ويرافقه واحد أو اثنان من رفاقه على الخيل، تتبعهم موسيقى وشباب وبنات في عربات مليئة.

وأخيراً عند الساعة الحادية عشرة نهاراً أي ساعة واحدة قبل غروب الشمس يقع الحدث الذي يحتفل به. فيظهر المطهر كي يكسب ليرة مجيدية

3,60 مارك)، يعرى الولد ويقف ويمسك رجلان يديه ورجليه، ويلف وجهه بمنديل، ويحني الجراح (المطهر) ركبتيه والولد المرتعش يصرخ بأعلى صوته «مانبي أووك علي يابيي»، فيربط المطهر الجلده المسحوبة أمام رأس قضيب الولد بخيط (صراته) ويمرر فوقها قطعة خشب رفيعة (فرارة) بحيث تقطع قطعة من الجلدة الأمامية.

إن معنى الاحتفال يقع في هذه العملية البسيطة، ويقوم المطهر بقطع الجلدة بالموسى ويرش على الأطراف الدامية بودرة سوداء مؤلمة (صبر) وبينما يتحمل بعض الأولاد الألم يبكي البعض الآخر ويصرخون، وقد يحدث أن يبولوا في وجه المطهر، وهذا أمر مزعج لخادم الواجب الديني التطهيري.

وبعد العملية مباشرة يتحول الانقباض العام إلى حديث سار ويتناول الولد ثلاث أو أربع بيضات سلقت حتى تجمّد صغارها ويعطى خبزاً دهن بزبدة الغنم وتدعى صرفوسة وبعد الاحتفال ينبغي أن يبقى الولد في البيت سبعة أيام تحت الرعاية.



موقد طرابلس (دكانه) في الأعلى شفط الدخان (القوس) أربع فتحات (كانون) ومواضع للتنظيف من اليمين. في الدار الجانبي كوة الصهريج

عسكر سوسه:

وفي حالة الأولاد الفقراء يكون الاحتفال أكثر بساطة، بالطبع، إلا أن

الختان يظل لديهم مرحلة حاسمة في الحياة. وإذا ماكانوا قبل ذلك يقعدون في الشمس ويتسولون فتات الخبز، فإنه من حقهم الآن أن يحددوا تطلعاتهم في الحياة، ولما كانوا عدميين ويشعرون أن عليهم أن يقوموا بأود أنفسهم فإنهم يعتزلون العمل المنتظم ويدورون في كل مكان تربصاً لأية مناسبة، أو عمل بالصدفة، ومنهم من يسعى لتأمين نساء جميلات لرجال يبحثون عن المتعة لابل يبحثون عن ذلك لأنفسهم، أو يسرقون، ويحصلون من السواح الوجهاء على بخشيش، ويسخرون بعد ذلك منهم، والآن يتجسس بعضهم لصالح تاجر غني لدى تاجر آخر تم يقر بذلك فيما بعد بحيث يتضاعف دخله. وفي الليل ينام هؤلاء في صحن جامع ويسرقون في اليوم التالي أحذية المصلين، مامن أحد يهتم بهم، كل واحد يضربهم، ولاينتظر الإحسان إليهم من أي جانب ولذلك فإنهم ينتقمون بالطريقة التي تناسبهم.

هذا نموذج من نماذج عسكر سوسه (انظر اللوحة الثامنة الشكل 2) وهم موجودون في مدننا [الألمانية] من سن السادسة عشرة ثم يصبحون فيما بعد مزعجين وخطيرين يبزون في ذلك الأشكال المضحكة لعسكر سوسة في الشرق.

الموت:

إن صناعة الطب في طرابلس ليست على قدر من التطور، وعلى وجه الإجمال فإن نسبة الوفيات ليست بالغة، سيَّما وأن الهواء النقي الذي يهب من البحر والواحة، وكذلك طريقة الحياة يجعلان آثار النظافة الضئيلة حيادية إلى حد ما. وغالباً مانسمع في الشتاء بحوادث وفيات لأن الناس لايمكنهم حماية أنفسهم من برد الغرف بدرجة كافية، وعادة ماتقرن حوادث الوفاة مع كلمة حمًى. كما أن جرس الكنيسة الكاثوليكية الصغير يقرع يومياً عدة مرات.

وإذا مازهقت روح أحد منهم، وضعوه في حجرة وأغلقوا عليه الباب، ويجتمع أقرباؤه ومعارفه، ويقرع المعزون الباب دون انقطاع، وفي جميع الحجرات تجرى معانقة ذوي المتوفي ثم يجلسون مستندين إلى الحائط.

إن أفراد أسرة المتوفي تبكي وتولول ثلاثة أيام بأصوات مخيفة، لأنهم

ينغمون ندبهم على أغنية حزن قديمة، وينتشر العويل في جميع جنبات البيت.

وبعد فترة قصيرة يغادر المعزون وهم يرددون كلمات العزاء: البركة في رأسك، مايدوم كان وجه الله[١] ومايشبه ذلك من العبارات.

في اليوم ذاته يقوم شيخ بغسل الجثمان بالماء الساخن، ويرش عليه عطر حنوط[٢]، ثم يكفن ويوضع في تابوت خشبي غير مدهون يستعار من الجامع. وتوضع قطنة على كل عين وتطرح فوق التابوت قطعمة قماش خضراء تتدلى من الجانبين. إذا ماكان المتوفى رجلاً وضعوا طربوشاً فوق التابوت من جهة الرأس. فإن كانت امرأة وضعوا باقة من الورد الفواح فوقه.

بعد ذلك يرفع الرجال التابوت على أكتافهم، ويحملونه بحيث يكون الرأس نحو الأمام، ويسيرون به عبر الأزقة، وخلال ذلك لاينقطع المشيعون عن المؤاجرة بحمل الجثمان. إنها عادة وجدتها لدى المالطيين أيضاً ويتقدم شيخ موكب المشيعين يتبعه الرجال في نسق عريض وهم يرددون العبارات المناسبة بصوتٍ واحد وإيقاع واحد. وأخيراً يأتي الطرف الرئيسي في العزاء.

بجانب المقبرة (الجبانة) يوضع التابوت في المصلى في جهة القبلة ثم يصلى عليه. وفي المقبرة يرفع الجثمان من التابوت ويمدد في قبر يتراوح عمقه بين ثلاثة أرباع المتر وحتى متر ونصف، ثم يهال عليه التراب، ويتوجه الرجال إلى البيوت بحيث تقوم النساء بالبكاء والندب إلا أن هذا لايحول دون أن يقمن بإعداد طعام بمناسبة الوفاة (مسح أو قصعة تلفاس Messh, Gassaatifass). وبعد أن يتم الدفن يتفرق جمهور المشيعين.

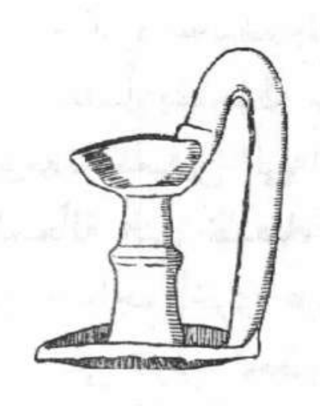
---

(١) وردت في الأصل «مايدوم كان وجه الله» وكلمة كان في اللهجة تعني هنا الا الاستثنائية.

(٢) الحنوط والحناط وهو كل مايخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك ودريرة وصندل وعنبر وكافور (المعجم الوسيط، ص 202).

المقابر:

في المجلدات القادمة، في آسيا الصغرى سنتعرف على مقابر، لايوجد على الأرض سوى نماذج قليلة من حيث فرط العناية بجمالها.



الشمعدان، مصباح فخاري أصفر أخضر، يملأ الحوض الأعلى بزيت يغذي فتيلاً مجدولاً من الصوف والقطن، وتحمل مثل هذه الشمعدانات إلى المقابر أسبوعياً وتتجمع تدريجياً، وهي مستوردة من تونس. القياس 20-25 سم السعر 20-30 بفنيغ

وأما حول خليج سرت الكبير فإن الأمر على عكس ذلك، إذ مامن شيء يضاهي مقابر المسلمين واليهود بتعاسته وانعدام شاعريته. إن تلك المقابر في العادة أرض جرداء تماماً وعلى شيء من الارتفاع تبرز فوقها مئات من القبور الطينية المبعثرة ويبلغ ارتفاع القبر حوالي القدم أما طوله فمتر، وهي موجهة نحو القبلة (اللوحة الثالثة عشرة الشكل 2) وفيما بينها تنتصب هنا وهناك بعض قباب نادراً مايزيد ارتفاعها عن متر، وهي تخص المرابطين أو الوجهاء. فوق كل قبر أو إلى جانبه تثبت في الغالب غضارة (وعاء فخاري) يضعون فيها للميت شيئاً من الماء أو الطعام بين الحين والآخر. كما يقوم مصباح زيت (شمعدان) بتأمين شيء من الضوء من وقت إلى آخر، وبذلك تنتهي واجبات البر بالميت.

وتتحرك تحت الأرض جرذان سمينة تلتهم الطعام الشهي، وأما العشب الذي ينبت فوق الأرض المجدبة فيرعاه الغنم والماعز والحمير. إن الدروب تتشعب في المقبرة إلا أنه نادراً مايشاهد من ذوي المتوفى من يجلس نصف ساعة فوق القبر.

عندما قدمت طرابلس في 1906 ، كان من بين مادونته في برنامجي أن أقوم بقياس الجماجم، ولما كنت لاأعلم مدى الصعوبة التي تجابه من يريد أن يقوم بأخذ قياسات إنسان في بلد إسلامي، توجهت منذ الاسبوع الأول رفقة زوجتي إلى المقبرة القديمة (سيدي الشعاب) في شرق المدينة. لقد حفرت أمواج البحر أجزاء من هذه المقبرة وجرفتها تماماً، وهكذا وجدنا عدداً من القبور مفتوحة. وقد بدأت العمل على الفور بفأس الجيولوجي كي أخرج جمجمة كاملة. وبعد فترة سحبت جمجمة ممتازة عملت الجرذان والديدان على تهيئتها، ولما رأينا أناساً يتقدمون من مسافة وهم ينوون أمراً خبأت الجمجمة تحت معطفي وعدنا سعيدين إلى المدينة. لقد مر ذلك كله على مايرام، أما الآن فقد برزت المسألة التي تهددنا، وهي كيف يمكن أن تمر هذه الجمجمة ومانأمل جمعه من جماجم أخرى عبر الجمرك العثماني عندما نقرر إرسالها إلى ألمانيا؟ إن الدائرة التي تتولى تحصيل رسوم التصدير لن تسمح بإرسال الجماجم على الإطلاق بل ربما توجه إلينا إتهاماً بالقتل. ومالعمل الآن لو انتشر خبرٌ بأن كلباً نصرانياً يدنس حرمة المقابر الإسلامية؟

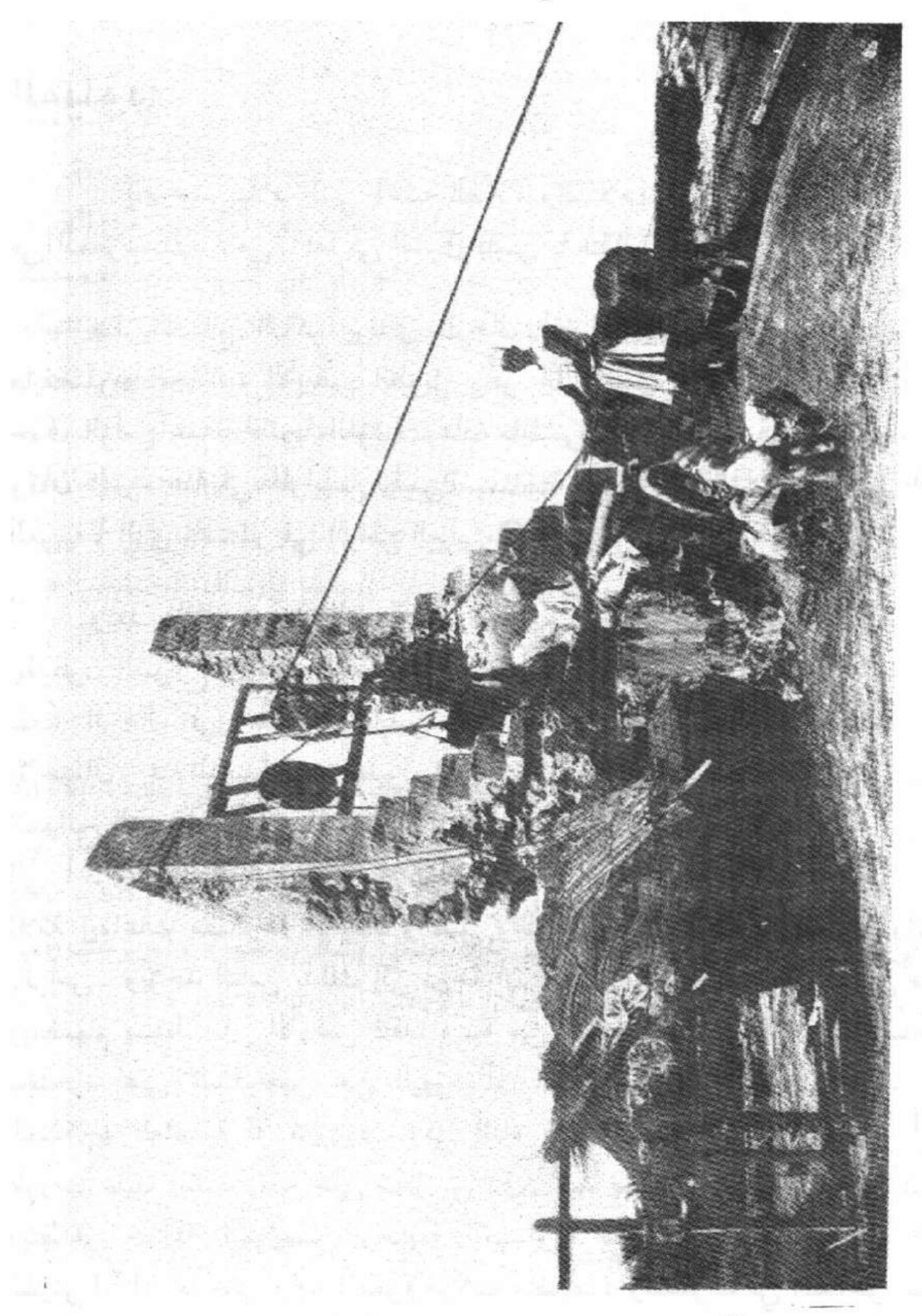
وهكذا فإن من السهل تزويد الباحث بالاقتراحات النظرية في بلده، إلا أنه من أصعب المهام أن يقوم المرء برحلات علمية. لاشك أننا أوقفنا البحث عن الجماجم. إن ماوجدناه هو من النموذج الليبي البربري المعروف، وكانت تلك الجماجم موضوعة فوق رف كتبي، ثم أخذ خدمي يشكون منها، ولم يرغب فيها أحد. وفي 1907 أهديتها إلى تاجر ألماني ولاأعلم أين هو الآن.

الميلود:

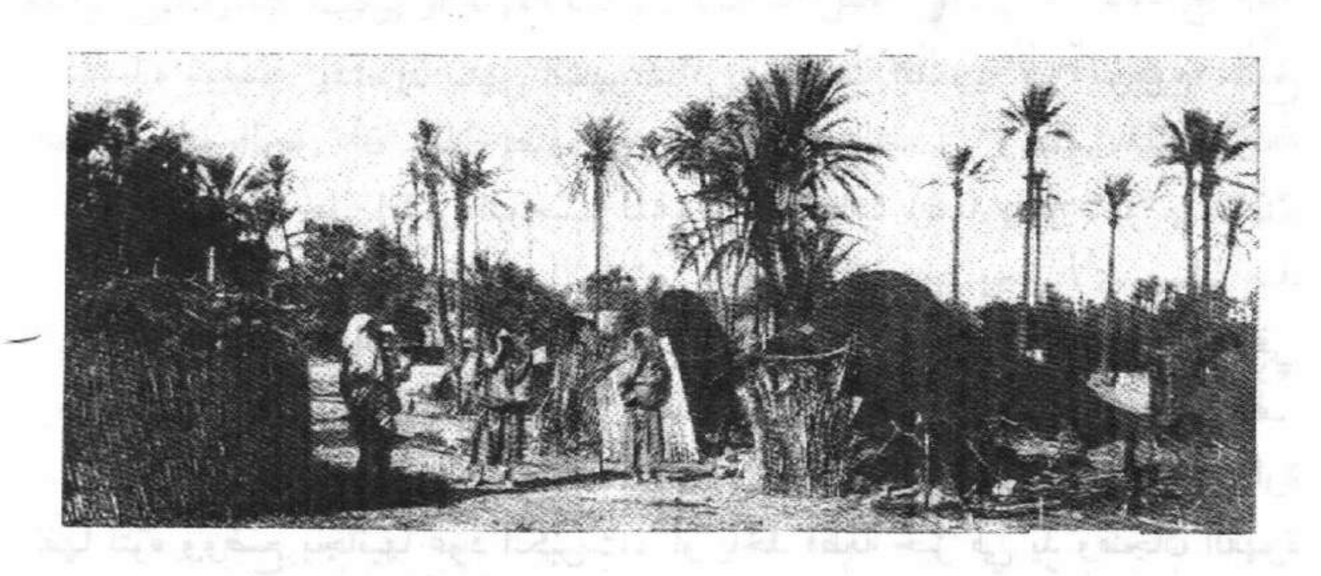
إنه عيد ميلاد النبي [عليه الصلاة والسلام]، ويبدو أنه احتفال متوارث في المغرب الإسلامي. أما في الشرق فليس باحتفال مميز.

منذ الصباح الباكر يرتدي الرجال أفضل مالديهم من ملابس، وغالباً مايفضلون الجلباب الأبيض الطويل وهو على نسق مايلبس في مصر. وتعقد حول الرأس عمامة فاتحة اللون، وعادة مايلبس ذلك في الشرق الآسيوي. ويبدو وكأن المرء هنا في طرابلس يلبس، بمناسبة هذا العيد الذي جاء من الجزيرة العربية، الزي المنتشر في الوطن العربي الكبير.

وبعد ذلك يتجمع الناس في الجوامع، وكثير منهم يخرجون من هناك يطوفون الشوارع، وتنظر النساء إلى المسيرة الاحتفائية من فوق الأسطح. بينما يقف الرجال في صفين متقابلين أو يشكلون حلقة يقف في وسطها رئيس الاحتفال. عندئذ يبدأ قرع الطبول الصغيرة أو التصفيق بالأيدي ويترافق ذلك مع المدائح النبوية والأغاني الدينية، وأثناء ذلك يجري الرقص بنقل الحركة من رجل إلى أخرى وفي الوقت ذاته يحركون الرؤوس نحو الأمام والخلف بحيث تنجم ثلاثة إيقاعات مصدرها الإنشاد والطبل والتصفيق والرقص وهز الجسم والإيماء بالرأس. ويؤخذ الناس بذلك إلى درجة أن الرغوة تظهر على شفاه كثيرين منهم، وبعضهم يسقط على الأرض فاقداً وعيه من النشوة، وقد ينهال أحد الساخطين بخنجره على المتفرجين من اليهود أو النصارى، ولذلك فإن حشد القوة العسكرية العثمانية له مايبرره. وفي أثناء ذلك تحمل الرايات، وتنشر أقمشة طرزت عليها آيات قرآنية على شكل سرادق. كما يسيّرون جمالاً مزينة بالأكاليل، ويتظاهر جماعة المرابطين وطريقة العيساوية بتجريح أنفسهم بعنف (ضرب الشيش). إلا أنه على وجه العموم موكب منضبط، وستتعرف في المناطق الشيعية على المواكب الدينية التي تسيل فيها براميل من الدم على الأرض (انظر المجلد الثالث من مجمل المؤلف).



اللوحة 12-1 سانية في واحة طرابلس



مضرب خيام الأعراب الذين يأتون إلى الواحة عند قطاف موسم التمر على سطح الخيمة عراجين التمر التي قطفت لتوها وتنشر في الشمس حتى تجف.



درس الشعير على الحصان، إن الرجل في اليمين يمنع الحصان بقضيب حاد دون تناول الزرع. في الخلف البادية

شهر رمضان:

إنه موسم. إذ ماإن ينتهي الشهر الثامن من السنة القمرية في آخر يوم يسمح فيه للمسلم الحق أن يملأ بطنه فيه عند شروق الشمس ويستمر ذلك أربعة أسابيع، حتى يدخل الشهر المحبب للنفوس والمهاب أيضاً وهو شهر رمضان، ودفعة واحدة يتغير وجه العالم الإسلامي تماماً، فلا يعود يحق لأي مسلم منذ حوالي العاشرة من العمر أن يأكل أو يشرب بين الفجر وغروب الشمس وفي وقت متأخر بعد العصر يشرع الناس بإعداد وجبة الإفطار الرئيسية، وقبل نصف ساعة من الغروب يصبح الجميع عصبيين، فثمة من يغلي القهوة ويهيء سيجارة لفّها لتوّه ووضع بجانبها عود الكبريت، أو يأخذ قطعة خبز في يدٍ وفنجان القهوة المملوء في اليد الأخرى، بينما يترقب الجميع طلقه المدفع كي تعلن أن أسفل قرص الشمس قد لامس البحر وأن نهار الجوع والعطش قد انقضى. وخلال دقائق تسيطر على المدينة وحشة مخيفة. بم بم!!

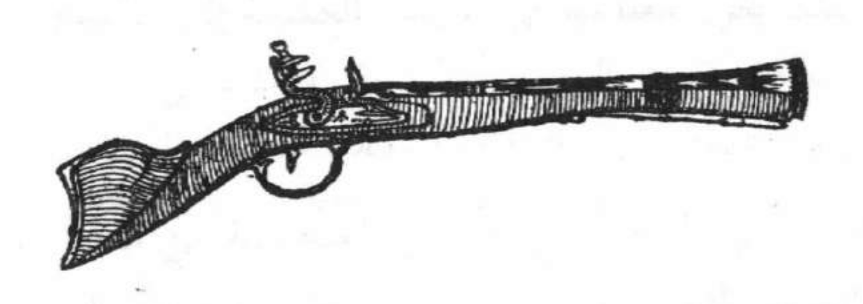
كل واحد ينقض على طبقة المفضل، ثم ينصرف بعدئذ إلى وجبة الإفطار الحقيقية عقب ذلك يبدأ تبادل الزيارات وشرب الشاي والتدخين، ويكف الناس عن التقيد بما كان مفروضاً في النهار، حيث تستمر هذه الحرية حتى السحور الذي يحل بعد منتصف الليل بفترة طويلة. إن من يعيشون وحيدين قد يغلبهم النوم فيكتفون عندئذ بوجبة واحدة خلال أربع وعشرين ساعة.

وطبيعي أن يعمل المرء أثناء النهار على مضض، ويقضي ساعات العمل بتوجيه فكره إلى طعام الإفطار. وأما الخدم فإنهم يظلون خلال رمضان مصدر إزعاج. والتجار إما غير موجودين أو هم يتعاملون بعصبية. وباختصار فإن مجمل الحياه الاقتصادية في الشرق تعاني عطلاً وضرراً ملحوظين ومن المؤكد أن دور رمضان في تخلف الشرق ليس ضئيل الشأن. فما من شخص مستعد للقيام بعمل صغير، ومامن شخص قادر على النهوض بالأعمال الكبرى.

وماإن ينقضي رمضان بعد لأي، ويظهر هلال شوال حتى يسود الفرح والابتهاج، إذ يحتفل الناس خلال أيامه الثلاثة الأولى

(بيرام)[١]. ويقوم رب البيت بذبح خروف سمين أمام باب بيته، بحيث يشاهد الجميع ذلك[٢]، ويلبس أفضل الثياب، ويركب العربة أو يركب حماراً إلى الواحة ويتسلى في المراجيح العامة. ويزين التجار دكاكينهم بالورق الملون، وتستهلك كميات كبيرة من الحلوى، ويحصل الخدم على بخشيش مجز من سادتهم، وهو مايجعل عيونهم تدور في محاجرها.

رمضان يارمضان، إننا نشتاقك وأنت بعيد، ونعافك عندما تضمر الأمعاء ويجف الحلق، رمضان يارمضان.



بندقة قصيرة (قرابيل) على الأغلب مأخوذة من قربينه الأخمص والزناد مصنوعان في طرابلس. إن الخشب الخام يمسح بزيت الزيتون فيضفي عليه لوناً داكناً. وأما مزقد النصلة (الخرج) والقوس فهما من النحاس. وأما النصلة فإنها محلاة بالفضة، ولاتصنع في طرابلس وأما العبوة فإنها تتكون من أربعة أصابع بارود وحبتين خردق وقليل من الملح، الذي يقوى صوت الانفجار، وكبسوله الطول نصف متر، السعر 4-6 مارك.

---

(١) كلمة تركية تعني العيد.

(٢) لاشك أن المؤلف يخلط هنا بين عيد الفطر وعيد الأضحى إذ ليس من المعتاد الذبح في عيد الفطر.

10 ـ الواحة «المنشية»

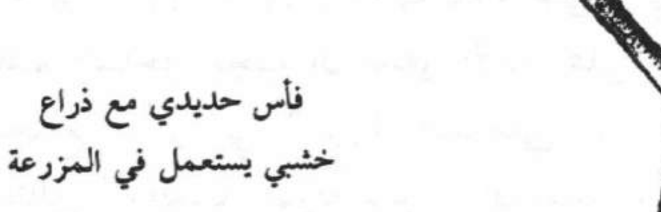
لو لم يختط شمالي منطقة طرابلس الشريط الجبلي (الجبل) الذي يصل ارتفاعه إلى حوالي 900 م، لكان الشريط الساحلي شرقي وغربي المدينة أكثر جدباً وإقفاراً مما هو عليه الآن. فالجبال تصد الرياح البحرية الشتوية، وتجعلها تصب محتواها من الرطوبة على سفوح الجدار الجبلي المنحدر بحيث تجري من هنا شرايين المياه نحو الشمال. إلا أن أقل كمية منها وأضألها نفعاً يسيل على سطح الأرض بينما يغور معظمها في الأرض الكلسية إلى الأعماق، وتسير كمياه جوفية لاتظهر للعيان باتجاه البحر، وعلى مقربة منه، في الساحل، يغدو الماء أقل عمقاً إذ يتراوح عمقه بين 4-8 أمتار ويستفاد منه عن طريق الآبار.

ولما كان المطر لايسقط في الأماكن المنخفضة من منطقة طرابلس خلال فصل الربيع بكميات كافية لنمو الزرع، فإن زراعتها تقوم على الري الاصطناعي. وفي المنطقة الواقعة خلف الساحل يجب أن تحفر الآبار على عمق لايقل عن عشرين متراً، بينما لايحتاج الأمر في الشريط الساحلي إلا إلى أمتار قليلة للوصول إلى الماء. وبالتالي لايتطلب جهوداً كبيرة، إن انخفاض مستوى البحر وارتفاع مستوى المياه الجوفية المرتبط به هما السبب في كون الشريط الساحلي في شمال منطقة طرابلس مزروعاً بالواحات الكثيرة، وإن امتدادها الطولاني يتعلق بطبيعة سير الشاطىء.

تعتبر واحة طرابلس التي تعرف أيضاً بالمنشية أي المكان المعمور وتتبع هذا الشريط من الجواهر الزمردية الخضراء. لنتأمل في البداية الطريقة التي حل بها الفلاح الطرابلسي مسألة الري الاصطناعي. فإذا انطلقنا من أن منطقة طرابلس فقيرة بالموروث الحضاري نلاحظ أنها وجدت منشأة معقدة وتتطلب الكثير من الجهود، يدرك من خلالها الأهمية المهولة لهذه المسألة.

في كل حقل في المنشية بئر كبير (السانية انظر اللوحة 12) وتتدرج جدران

السانية والدعامتان الجانبيتان المطليتان في الأصل باللون الأبيض بالارتفاع لتشكل درجات وعادة ماتشيد في ظل شجرة اتل أو تين وتوضع بين الذراعين الخشبيين الواصلين بين الدعامتين بكرة واحدة أو بكرتان ونادراً ماتكون ثلاث بكرات خشبية يدور حولها عدد مقابل من الحبال الطويلة، وفي نهاية الحبل تعلق قربة جلدية واسعة الدلو، قطرها حوالي متر مع استطالة على شكل أنبوب يبلغ طوله متراً واحداً ويرتبط بالحبل الآخر حيوان، هو في الغالب ثور يسير على مستوى مائل نحو حفرة طويلة ويسحب بذلك القربه الجلدية من البئر. وتظل القربة تزداد ارتفاعاً إلى أن تصب محتواها على جذع شجرة عرضاني ويفرغ الماء فى بركة خلف البئر. وإذا مارجع الحيوان من الحفرة، فإن القربة تنزل إلى عمق البئر وتمتلىء من جديد، ومن البركة يسيل الماء إلى الحقول التي تقسم بحاجز ترابي ارتفاعه حوال 20 سم ويدعى تقيف إلى مربعات طول ضلع كل منها حوالي المترين، ويتدفق الماء من مربع إلى الآخر أو يترك في واحد منها حسب الحاجه وبعدئذ يفتح الحاجز بفأس حديدية (انظر الشكل)، أو تسد به ثغرة في الحاجز الترابي [١].



فأس حديدي مع ذراع
خشبي يستعمل في المزرعة

لاشك أن السواني تعكس صورة المنشية في كل مكان وكل وقت، نهاراً تلمع في وهج الشمس بخضرتها الكثيفة مثل رجال الثلج وقد شكلوا من جديد، ليلاً تقوم في ضوء القمر مثل أعمال فنية جهزت من قوالب السكر. وفي الربيع والصيف عندما يبلغ الافتقار إلى المطر ذروته، فإنها تمنح النباتات الحياة، إذ تدور البكرات الخشبية بصوت رفيع مثل قيظ الظهيرة وعتمة أدكن الليالي.

---

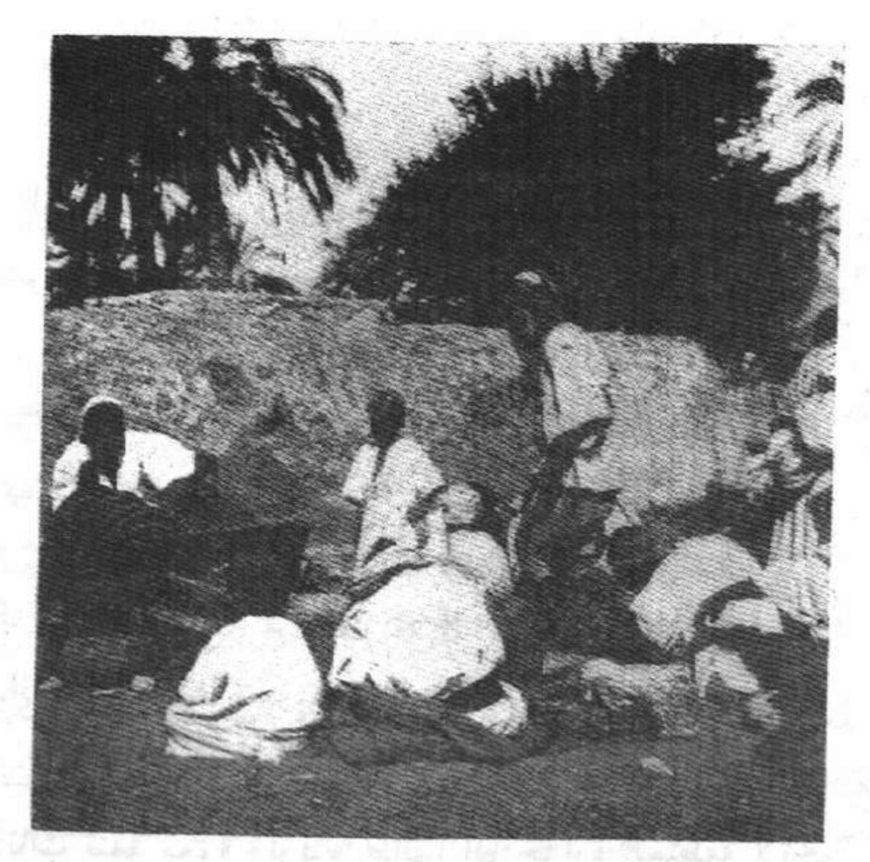
(١) إن هذه الطريقة في جر المياه التي تسود منذ قرون طويلة، فإنها تعكر بمواد الزنك وكذلك بالغبار الذي تحمله رياح القبلى، وقد أثر ذلك في أن معظم بساتين المنشية تقع على ارتفاع متر أو مترين عن طرق المواصلات التي تفصلها والتي يصل ارتفاع الوحل فيها إلى نصف متر.

وتتشكل تربة الطبقة السفلى في الواحة من كلس فاتح من العصر الثالث الحديث ويبرز في بعض النواحي على وجه الأرض، ومن طين يبلغ سمك طبقته في أقصاه 3 أمتار تخترقها عروق رملية رقيقة، ومن أحجار رملية بيضاء، وتقوم فوقها طبقة سطحية من التربة الخصبة يبلغ سمكها في بعض المواضع عدة أمتار ولونها برتقالي شاحب بسبب أوكسيد الحديد، وتمثل بلورات التربة الناعمة القسم الأعظم منها ويتراوح قطر الواحدة منها بين نصف وعشر مم، كما توجد أجزاء من الكلس ذي حمض الفحم والطين حيث تتراجع أمامها بقايا النباتات اليابسة.

عندما تكون هذه الأرض في حالة جفاف يسود انطباع أنه يتعذر نمو النبات فيها إلا أنه يكبر بمساعدة الري الصناعي وبخاصة في المناطق الخالية من الملح. إن جميع النباتات تنمو نمواً وارفاً، طالما أن حرارة المنطقة لاتحول دون ذلك. إنها منطقة ذات أرض خفيفة جداً ويفترض أن تكون ذات بنية قلوية إذ أنها دون سماد كاف لايمكن أن تعطي هذه النتائج الباهرة.

نتيجة لذلك ولما كان الفلاح جاهزاً لتصحيح توزيع الأمطار حسبما يرغب، فإن استثمار الأرض المحروثة يعتبر أكثف مما هو عليه الحال لدينا (في ألمانيا) كل قطعة أرض في الواحة (المنشية) تتكون من ثلاثة أقسام زراعية فهي حقل زراعي وبستان.

في القطعة الأخفض تقوم الزراعة الحلقية وإن نباتاتها تقوم فقط على الماء الذي يصلها من الأعلى إذ أن جذورها ليست عميقة بما فيه الكفاية، شعير وذرة وقمح وذرة صفراء (سبول) هي التي تسيطر على مزروعات هذه القطعة عامة. ومن الخضار نجد السبانخ، والفاصولياء الخضراء، والبصل، والثوم، والبامياء، والفجل، والبقدونس، والقنبيط، والبطاطا، والطماطم، والفلفل الأحمر، ويعد ضمن هذه المزروعات البطيخ الأحمر (الدلاع) والشمام والقرع، والبرسيم (صفصفه) والفقوس والتبغ. وتكتمل قائمة المزروعات الحقلية بالخرنوب، والورد، وورد إبرة الراعي التي يستعمل زيتها الأثيري في الشرق لتقليد زيت الورد النفيس.

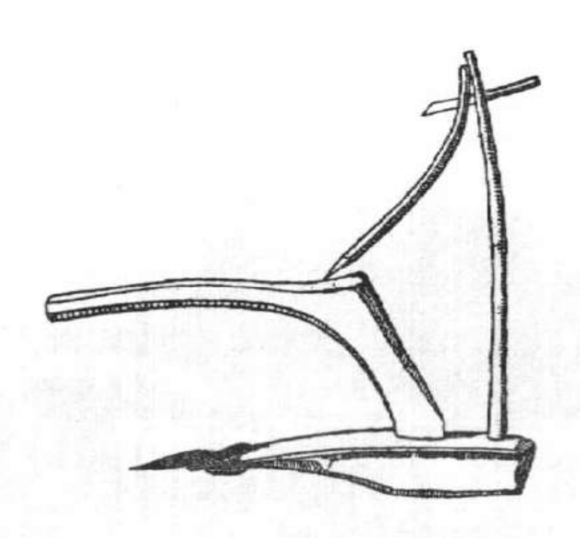


اللوحة 13-1 حدادون يهود من العمروس إحدى قرى المنشية والمنفاخ إلى يسارهم.



اللوحة 13-2 جامع ومقبرة اسلامية.

لئن كان التسميد لايمثل سوى جانب ضئيل في العمل فإن المحراث ذا استعمال زائد فهو يتكون (انظر الشكل) من هيكل خشبي بسيط يربط أمامه الثور، بينما يضع الفلاح يداً على الصمد ولايفعل شيئاً سوى الموازنة والضغط بحيث تنزل السكة في الأرض. ومن الواضح أن السكة لاتنزل في الأرض أكثر من 10 سم وأن هذه الأداة لايمكن أن تستعمل إلا في أرض رملية مخلخلة. وأبسط من ذلك الطريقة تستعمل في درس الحبوب بعد نضجها (اللوحة x12 الشكل 3 . لهذا الغرض يسوق المرء بعض الحيوانات، خيول على سبيل المثال بحيث تسير جيئة وذهاباً فوق الحبوب المطروحة على الأرض إلى أن تصبح السنابل فارغة، ويجهد الفلاح أن يمنع الحيوانات من أكل الحبوب المدروسة، بأن يضربها على فمها بقضيب مدبب.

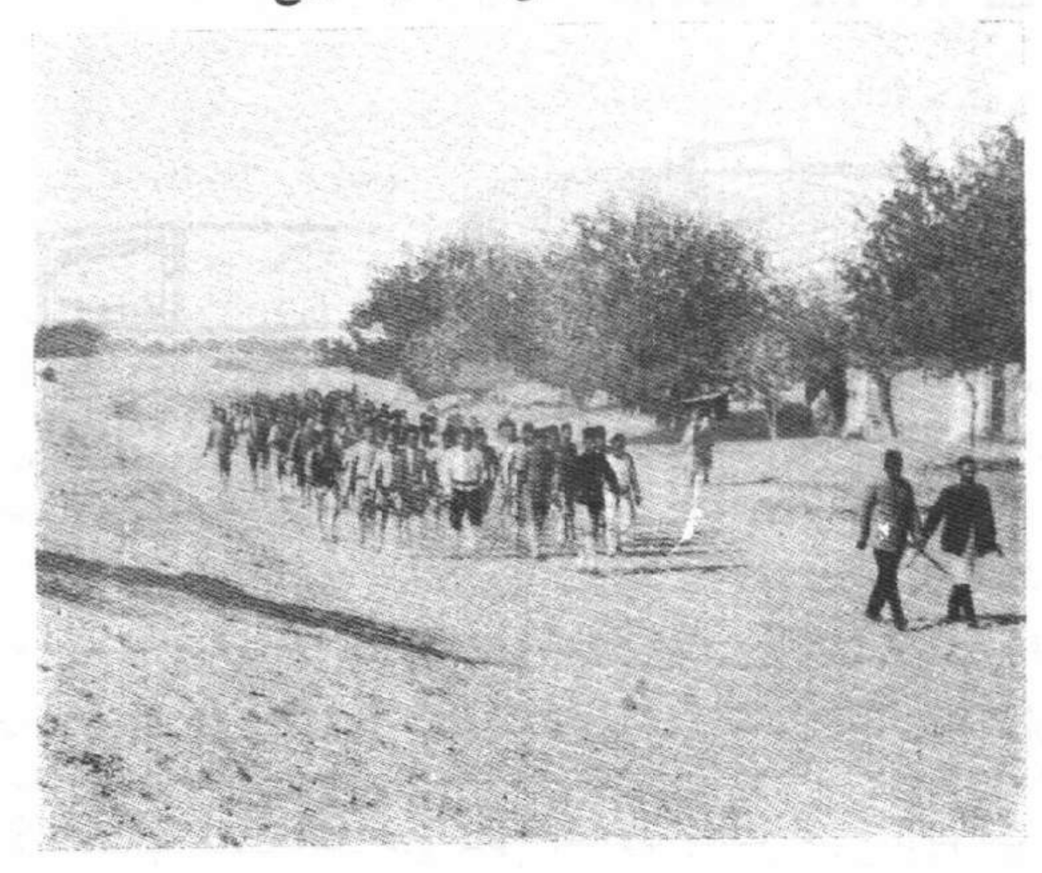


المحراث ويصنعه فلاحو طرابلس، ارتفاعه ثلاث أرباع المتر القطعة التحتية من خشب الزيتون، السكة مدببة من الحديد، تقلب الأرض على عمق يتراوح بين 5 و 10 سم فقط في نهاية الذراع المقوس (المرسك يربط حبل حيث يكدن ثور أو حصان أو حمار ويمسك الفلاح بالجزء الأعلى يدعى الصمد وهما قضيبان عموديان وهو يتحكم من خلالهما بالمحراث السعر 1,75 حتى 2,50 مارك

مابين الشعير وغيره من المزروعات الحقلية تنتصب نباتات الطبقة الزراعية الثانية (انظر مثلاً اللوحة العاشرة، والحادية عشرة، والثانية عشرة الشكل2) إنها أشجار الفاكهة التي جعلت هذه الأرض الزراعية واحة من بساتين، إنها جميعاً من نباتات البحر المتوسط تقريباً، وهي محصنة بأوراقها الطويلة النحيلة ضد حرارة الصيف الجافة. وأفضل من يمثلها هو شجرة الزيتون. إن أوراقها الناعمة تنشر في كل مكان ظلاً كثيفاً، واقتصادياً هي أهم شجرة في الواحة وفي البلاد عامة إلا أنها لاتسمح بقيام مزروعات منتجة في ظلها الكثيف الواسع. وفي الخريف ينتظم جني موسمها بضرب فروعها، وبعد ذلك يجري استخراج الزيت منها، وتستخدم لهذا الغرض طريقة تعود إلى العصر القديم (انظر الشكل) وعادة ماتمتلك كل مجموعة بيوت في الواحة معصرة (قرقابه) توضع عادة على ملتقى عدد من الطرق الهامة.



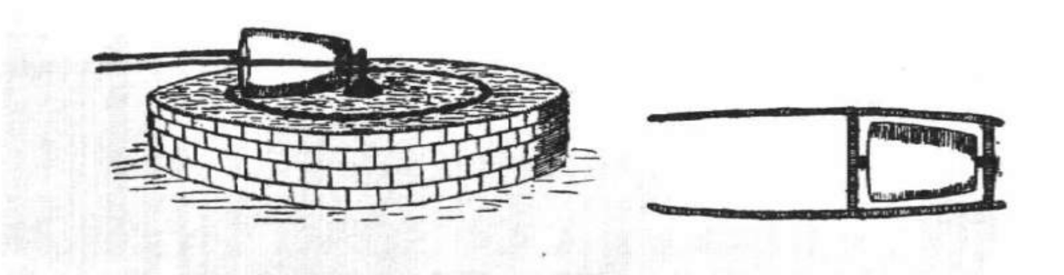
اللوحة 13-2 بدويتان: الأم من النموذج الليبي البربري والبنت من النموذج العربي تظهر خلاف البنت الكوة حيث يرفع الماء من الصهريج.



اللوحة 13-4 فصيلة من جنود المشاة العثمانيين في طريق عودتهم من التدريب.

وتتكون المعصرة من جدار مدور يتراوح قطره بين 2 و 2,5 م وارتفاعه أكثر من نصف متر. ويدخل فوق عمود حديد في الوسط نوع من الذراع تشد خرزة مدورة ويربط أمام الذراع حيوان أو إنسان ويدورها باستمرار حول محورها، بحيث تقوم الخرزة بعصر الزيتون الذي ألقي في وسط السطح المدور ويتراجع نحو الطرف.

ثم يجمع الزيت الكثيف جداً والمخلوط بشحم الزيتون ويملأ في عدة قرب توضع فوق بعضها وتحتها برميل ثم يصفى الزيت فيه.



معصرة الزيتون (القرقابه) في منطقة طرابلس، إلى اليمين الخرزة حجر طحن الزيتون

أما مسألة النظافة في هذه العملية فهي ليست موضع اهتمام ولذلك لايتمتع الزيت الطرابلسي بسمعة جيدة. إنه قليل القيمة وهو صالح لصناعة الصابون أكثر من صلاحيته زيتاً للطعام. وعلى كل حال تراجع عدد أشجار الزيتون كثيراً في ظل الادارة العثمانية. لأن الفلاحين كانوا يتفادون بذلك عبء الضرائب التي تجبيها الإدارة عن كل شجرة مما دفع الأهالي إلى قطعها ليصنعوا منها فحماً، الأمر الذي كان يقدم لهم آنياً دخلاً جيداً.

ويعد التين بين أشجار الواحة وشجرة التين بأوراقها المدورة المسننة المتدلية على الأغصان الرمادية لايمكن أن يخلو منها أي بستان. وأهم الأنواع التي تمثل عالم الأشجار المثمرة في منطقة طرابلس هي: البرتقال والليمون الحامض والمندرين والمشمش والدراقن واللوز والعنب والرمان والتفاح والإجاص والفستق والتوت، والجدير بالذكر أن شجرة التوت لاتستغل هنا في تربية دود الحرير. وبين هذه الأشجار تزهر شجيرات الياسمين أزهاراً ذات لون أبيض وأصفر وهي مرغوبة في الشرق بسبب رائحتها العبقة. وغالباً ماتشاهد أوراق شجيرات الحنه الصغيرة الداكنة. وتقطف باليد أو بالمنجل المسنن وتنظف مما يعلق بها من فروع ووسخ ثم تعرض للشمس حتى تجف ثم تسحق باليد حتى تغدو دقيقة مثل الغبار. وإذا ماخلط دقيق الحنة بالماء ووضعت طبقة من هذا الخليط على اليد أو القدم ولفت بخرقة لمدة ست ساعات تغسل بعدها بالماء، فإنه يبرز بعدئذ لون الحنة الأصفر المائل إلى الحمرة ويظل لونها واضحاً حوالي أربع عشر يوماً. وتعتبر الحنة لدى نساء المشرق من مواد التجميل المفضلة.

والشجرة السامقة في الواحة تتمثل في ذلك النوع من الشجرة الأرشق في شكلها وهي النخلة. وإن جذورها العطشي تتوغل في أعماق الأرض، وتتجاوز في عمقها جذور أشجار الفاكهة الأخرى، وتظل تمضي في الأعماق إلى أن تصل طبقة المياه الجوفية، وبذلك فإنها تستقل بعناء عن الري الاصطناعي.

وتنتصب ساقها دون فروع مثل سارية العلم ويعلوها تاج من الريش. إن انحناء سعفها وإيماءاتها الظريفة عندما يلفها الهواء الحار، وكذلك حفيف غصن يابس متدل والحرباء داكنة اللون المتمسكة بالقشور الخشنة حيث تستقر بعض الفضلات المتساقطة، كل ذلك يمثل صورة آنية تضعها أمام ناظريك النخلة وحدها.

في الصيف يبدأ نضج التمر وتبدو عراجينة متدلية وتكتسب تدريجياً اللون الأصفر وتمنحه حرارة الشمس عروقاً حمراء. وفي الخريف يحين وقت القطاف عندئذ يأتي البدو إلى الواحة وينصبون بيوت الشعر فتنتشر خيامهم في الحقول التي يجرى قطافها. (انظر الشكل 2 اللوحة 12).

ويتسلقون جذوع النخل بالاشتراك مع الفلاحين ويستعمل في ذلك حبل

يربطه المتسلق حول جذع النخلة وحول جسمه ويصعد تدريجياً بأن يرفع الحبل بكلتي يديه خلف الجذع. (انظر اللوحة 11 الشكل1).

هذه هي عناصر النباتات في واحة طرابلس والاعتناء بها، وهي تمتد على مسافة 12 كم طولاً و4 كم عرضاً في الشرق والجنوب من المدينة وعلى الجانب الآخر من سبخة الملاحة تتداخل مع واحة تاجوراء التي تشبهها في بنيتها.

وتنطلق من المدينة عدة طرق إلى دواخل البلاد (انظر الخريطة) وتتقاطع عدة مئات من الدروب مع هذه الطرق وترتبط مع بعضها البعض أو تنتهي إلى بستان حيث تتوقف أمام باب منهار في العادة. كل رصيف أو طريق يحف به جدار يبلغ ارتفاعه قامة رجل وقد يبلغ سمكه عند القاعدة حوالي المترين وثلاث أرباع المتر في أعلاه ويحمل دائماً سياجاً من أشجار الصبار، وتدعى هذه الشجرة الضيفة القادمة من وسط أمريكا (الهندي بالأحرى الهند الغربية)، وانتشرت انتشاراً واسعاً يلفت النظر في واحات الشمال الأفريقي. وتحمل فروع الصبار دفوفاً ذات أشكال بيضاوية خضراء اللون يبلغ سمكها مابين 1-2 سم وذات بنية تحتوي سائلاً في داخلها وتعلو دفوف الصبار أشواك قاسية ومدببة. ومن خصائص الصبار أن دفوفها تتقاطع وإذا مابلغت سنتين أو مايزيد تنقلب إلى مايشبه الخشب، وهكذا ينشأ سياج متداخل يصعب إزالته أحياناً بالبلطة.



رحى يدوية تتكون من حجرين تقوم النساء بطحن الحبوب مابينهما.

إن هذه الجدران والسياجات جابهت الايطاليين أثناء غزوهم الواحة وشهدوا هنا أعنف مقاومة. فقد وفرت للمجاهدين أفضل حماية وقد توجب أن يتم اقتحام كل منها بمفرده. إن أزهار الصبار ذات لون أصفر وثمارها ذات شكل بيضوي وعندما تنضج تصبح ذات لون أصفر مائل إلى الحمرة وتؤكل بعد إزالة أشواكها الدقيقة وهو مايفعله الخادم.

وإن طابع زراعة الواحة أنها تقتصر على حيز محدود تحيط به أراض قاحلة. لذلك فإن البساتين تتاخم بعضها بكثافة ولم يتبق مكان خاص لقيام مراكز سكنية فيها. فالبيوت لم تبن إلى جانب بعضها بحيث تشكل قرى بل شيد بيت في كل بستان ولهذا فإن حجم المبنى يتعلق بمساحة ملكيته من الأرض. ولذلك فإنه يصعب توضيحها على خريطة لأنه يقتضي تثبيت وتسجيل كل مبنى. وعادة مايتم التعرف على مركز سكني بوجود جامع صغير ذي قبة أو دكان أو دكاكين غالباً ماتكون مغلقة تبيع الكبريت والتبغ والسكر والشاي والخبز وبعض الفواكه، ومعصرة زيت وأما بقية البيوت فإنها تختبىء في ظل أوراق الأشجار.

إن جميع سكان الواحة هم من الفلاحين وهم من العرق الليبي طوال القامة جسيمون تبرز عضلاتهم نتيجة للعمل الزراعي وهم غامقو السمرة بسبب الشمس وهم صحاح الجسم ومعاندون ويشكلون نقيضاً لأبناء المدينة الشاحبين النحيلين. ونتيجة للتعامل الكثيف مع المدينة حيث يبيعون انتاجهم الزراعي ويحصلون على حاجياتهم من منتجات الحرف والسلع المستوردة فإن فلاحي المنشية الذين يبلغ عددهم حوالي 15000 نسمة، ليسوا منقطعين عن الحضر مثل سكان الدواخل بل هم جسورون متطاولون في نفوسهم شيء من التعصب الديني.

لقد درج أبناء الواحة أن يسيروا مسلحين ببندقية أو سكين، وحافظوا على ذلك حتى بداية 1912 ، وقد أثبتوا للقوات الإيطالية معنى ذلك بمافيه الكفاية.

إن عمل الفلاحين يتمثل في الدرجة الأولى في زراعة حقول بساتينهم إلا أن بعضهم يقوم إلى جانب ذلك بعمل مافي الصناعة، فبعضهم يصنع من الفخار جراراً وكذلك طناجر ومواقد ويشوونها، وبعضهم يعقد الحصر أو يجهز الوقيد لإشعال النار، وتقوم النساء بحياكة أقمشة بسيطة أو يصنعن ملاعق خشبية فيما يقوم آخر بانجاز مصنوعات جلدية وهي قرب للماء في أغلب الأحيان ،ويقوم غيره بتصليح الأحذية، ويصنع ثالث المحاريث.

ويمتلك تجار المدينة الأغنياء أو الإقطاعيون أقساماً كبيرة من المنشية فيستثمرون أراضيهم بالحصة وتتولى أسر الفلاحين ذلك. ولعل أكثر من نصف سكان الواحة أجراء على هذا الوجه ويعمل على أساس مصير الفلاحين القدماء.

جولة في المنشية:

إنها الخامسة صباحاً، تنساب الطراوة من زرقة البحر الوادعة عبر النوافذ المفتوحة. في الزقاق الظليل نسمع جلبة حمير الركوب. نهضنا بسرعة وركبنا على السرج الجلدي غير المتناسق ووضعنا عصي النخيل جانب العمود الفقري وأخذنا نشق غبار طرق الواحة.

لقد لاحت لنا البيوت الفاتحة في ضاحية الضهرة وهي تنهض من نومها بينما بدت قرية السود التي تقع وراءها بأكواخها الرمادية، ماتزال غير مكترثة بشيء (اللوحة التاسعة). وفي أول مجموعة بيوت من المنشية التي تدعى باسم الزاوية، زاوية الدهماني، وجدنا أمامنا حركة أنشط، فقد جثا صانعو الحصر إلى أعمالهم، وجلس بائعو الخبز خلف سلعتهم الصفراء وراح أبناء فزان ينشطون في مخابزهم



اللوحة 14-1 ضريح قبر مرابط منهار في المنشية.

لقد قادنا الطريق الشمالي للمنشية إلى القبتين البيضاويتين حيث ترقد تحتهما

قبور الأسرة القرمانلية، كما مررنا ببيوت وڤيلات الأوروبيين في شارع الشط. وخلف هذه البيوت يطالعنا الطابع الحقيقي للمنشية، لقد غمرتنا في زهوة طراوة الندى بجاذبيتها الآخاذة. ولما كانت غالبية نباتاتها لاتنفض أوراقها الخضراء، فإنها توفر على نفسها مرحلة صورة الشتاء، ولكنها لاتزدان على الإطلاق بجاذبية ربيعنا المتألق، كل شيء فيها ناضج وينظر إليك باعتداد وتحد أكيدين ومع الوقت يمكن أن يكون متعباً. وفيما خلا ذلك تأبى إلا أن تأخذ إحدى الخواص المخيبة للآمال على وجه مزعج. فإذا مااقتربت من واحة نخيل وجدتها تثير من بعيد لديك الانطباع أنك أمام غابة طويلة من أشجار الصنوبر الكثيفة. وبعد رحلة على متن دابة عبر البادية تحت أشعة الشمس اللاهبة، يظل ذلك الانطباع شعوراً جميلاً، إذ أنه يخفي في حناياه الأمل باستراحة رطبة في الظل. ولكن إذا مادخلت الواحة راكباً، فإنك عبثاً تبحث عن زاوية ظليلة أو مواضع طحلبية لطيفة. ففي كل مكان يظهر نور الشمس الوهاج، وفي كل مكان تنساب الأرض الرملية الجافة تحت خطواتك كل شيء مزروع ومسور، وتمضي ساعات من السير قبل أن تصل البيت، وبإيجاز فإنك إذا ما رغبت في أن تمتع عينيك بمشاهدة مجموعات بالغة الجمال وأشكال من رونق النباتات الشرقية كان عليك أن تمتطي دابة وتسير عبر المنشية وبالأحرى واحة طرابلس. وإذا مارغبت أن تمضي الوقت في ظل غابة رطب فلتبق في ألمانيا ولتستمتع به. أقول لك بأنك لاتدري، كيف يمكن أن يحلم المرء في واحة رائعة، بعزلة الغابة الألمانية.

إلا أن ساعة الفجر تذكر بها، والشمس المنخفضة تلقي بظلالها الطويلة التي تؤجل الأنوار الوهاجة التي تصدر في الساعات اللاحقة، بحيث تهب نسمات تحت ظلال النخيل والتقينا بمسافرين إلى المدينة، إنهم يحيوننا بكلمة مرحبا مع شيء من اللطف ويلقون السلام على خادمنا من فزان بقولهم السلام عليك، ومن على الجدران الطينية تنبح على الغريب كلاب بيضاء إنها من النوع المنتشر في جميع أرجاء منطقة طرابلس، نوع كلاب الرعاة المتوسطة الحجم، وهي يقظة جداً، ونباحها عال، وعلى الرغم من حدة طباعها إلا أنها قلما تعض بينما يحميها اللون الأبيض من حرارة الشمس، فإن جلدها السميك يقيها برد الشتاء والليل.

إن الذكور أجمل وأحسن هيئة من الإناث اللواتي يتميزن برأس طويل كرأس الثعلب وبذيل كثيف الشعر. وهي على نقيض كلاب المدن فى غرب آسيا المختلطة الجنس إذ أن كلاب منطقة طرابلس نقية الدم. ولاتشكل الكلاب بالنسبة لطرابلس نفسها أية مشكلة، ولعل ذلك عائد إلى أن القائمين على المخابز فيها هم الذين يتولون جمع القمامة كاملة.

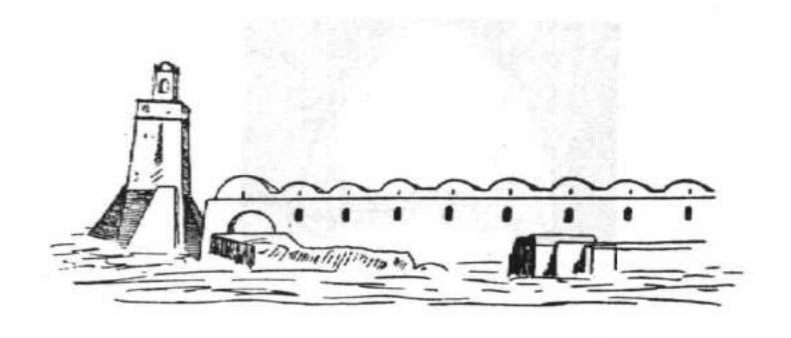
هنا نباح كلاب يترامى إلينا من وراء شجرة تتدلى فروعها فتصل الأرض وعليها برتقال ذو لون ذهبي أحمر. ماأكثر ماتخفي الواحة من أشياء جديرة بالملاحظة وتلفت النظر تلك الخطوط التي تحيط بجذع نخلة وكأن أحداً كان قد شرع يقطع ذلك الجذع ثم غير رأيه. إنها جروح خلفها استخراج اللاقبي منها آخر مرة. فهنا يجرحون جذع النخلة لاستدرار نسغها وتجميعه في جرة تظل معلقة لهذه الغاية حتى تمتلىء بعد ثلاثة أيام بعدئذ يضيفون جرحاً جديداً بجانب سابقه ويضعون تحته جرة أخرى وهكذا دواليك إلى أن تتكون حوالي الجذع هذه الندبة الدائرية التي تلفت النظر، أما السائل المجتمع فإنهم يخمرونه ثم يشربونه برغوته أبيض اللون كالحليب وهو مشروب مسهل ومسكر ويسمى اللاقبي.

خلف الطرف الشرقي من المنشية تنفتح أرض واسعة فيها الحلفاء الخضراء الداكنة والنباتات الملحية وفي وسطها السبخة. إن مثل هذا المستنقع الملحي ينشأ نتيجة وجود أرض طينية لاينفذ منها ماء المطر في الشتاء فيجتمع في موضع راكد ويأتي هواء الفصل الحار جافاً ويبخره مخلّفاً ترسبات ملحية. ويخيّل للناظر من بعيد وكأن ثلجاً طرياً قد تساقط وشرع يلمع مثل المكسر الجديد لفلز الفضة، وفي بدايات الصيف كانت الحكومة العثمانية ترسل الجيش إليها ليقوم بحراسة أعمال جمع الملح الذي تقوم الريجي (إدارة الحصر) ببيعه. إنه ملح ذو حبيبات كبيرة مخلوطة بالتراب ولذلك يتوجب تذويبه أولاً بالماء ثم وضعه في زجاج كي يجفف في الشمس وبعض الفالحين يأخذون لهذا الغرض زجاجة كان قد وضع فيها نفط ويبدى استغرابه من ذلك الرومي العجيب الذي يمتلك أنفاً ولساناً حساسين، بحيث يشم ويتذوق طعم النفط على الفور.



تاجوراء: جامع قديم، ربما هو الوحيد في منطقة طرابلس الذي يمتاز بمئذنة بنيت على نمط الجيرالدا.

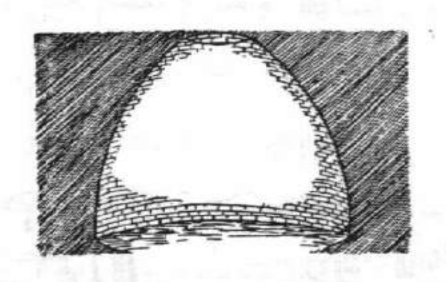
وعلى الفور بعد السبخة شرقاً تبدأ واحة الملاحة وتتلوها واحة تاجوراء ويوجد فيها جامع قديم جداً وحسب معرفتي فإن مئذنته هي الوحيدة المبنية على طراز الجيرالدا في منطقة طرابلس (انظر الشكل)، إن مشهد الواحتين مشابه لما هو عليه الحال في المنشية.



1-10 المنشية: قرب الطرف الشمالي الغربي، بجانب قبر المرابط النظرة نحو الجنوب والجنوب الشرقي، القافلة تسير باتجاه الغرب والجنوب الغربي نحو قارقارش.

وفي طريق العودة وصلنا سوق الجمعة (انظر اللوحة التاسعة، الشكل 2) وهو نظير لسوق الثلاثاء، ولكنه قليل الأهمية ويلبي حاجات الفلاحين والبدو المجاورين وفي شماله قرية العمروص وهي الوحيدة في الواحة التي تلفت النظر ببنائها الضيق المتلاصق. ويعود السبب إلى أن سكانها من اليهود فقط (بضعة مئات) وقد استقروا على مقربة من المركز التجاري للواحة وهو سوق الجمعة. بحيث يمتهنون هنا صنع الحاجات التي يلح الفلاحون في طلبها، وعلى وجه الخصوص مهنة الحدادة التي يزاولها القسم الأعظم من السكان الوسخين في هذه القرية ذات الطرق الضيقة القذرة.

حوالي 1906 شيد جنوب غربي السوق مبنى كبير أبيض كان يفترض أن يستخدم كمركز لشيخ البلد وهو يدعى في بعض الخرائط قصر الهاني. ويقع في وسط فجوة من الواحة على هضبة جرداء وقد وقع صراع مرير وطويل حوله في 1911 ، ويحيط به أكليل من أشجار الزيتون الخضراء الداكنة التي تبرز من وراء الجدران الطينية الذهبية البنية وبيت أبيض وخلفه تنتشر في دائرة أوسع أشجار النخيل، وقد بدت أغصانها تتضارب مع بعضها بعضاً كأمواج البحر. أما في الجنوب خلف خط الواحة الخصب فتبرز الكثبان ذات اللون الأحمر الشاحب وهي تتاخم خط البادية الداكن. وأخيراً يتعلق النظر بخط الجبال الأزرق ذي الانحدار العمودي والشعاب الصخرية التي يمكن تبينها في الأفق.



صهريج حبوب في واحة طرابلس

هو ذا النهار يدنو من نهايته، وتتزايد روائح الروث المزعجة منبعثة من البساتين والقمامة المحروقة التي يطبخ عليها الفلاحون في الشرق طعام العشاء،

وفي تذكرها المقرف الأخاذ أجد شيئاً مايشدني إلى الشرق لايقاوم، وإلى جانب الطريق تنفتح هنا وهناك فتحات كبيرة يمكن بواسطتها أن نأخذ فكرة عن صهريج مسور (انظر الشكل ص 196) تعود نشأته إلى العصر القديم، ويستخدمه أبناء الواحة في تخزين الحبوب وفي الفترة الأخيرة كانت السنوات مجدبة إلى درجة أنه لم يستخدم في التخزين. وهذا مايزيد من فرص التصدير ومن ورود البواخر.

وفي الأطراف تندر مجموعات بساتين الواحة، وتتباعد أشجار النخيل بعضها عن بعض (انظر اللوحة الرابعة عشرة الشكل 2) وتفقد أشجار الفواكه جمالها. فتبرز الكثبان بلونها الأصفر ذي الحمرة الواضحة، وأخيراً تفصل بعض حقول الشوفان الجدار الطيني الأخير عن البادية الفقيرة أو عن عالم الكثبان الميت.

في أبريل 1912 قرأت في جريدة نمساوية أن الإيطاليين قد قطعوا معظم أشجار المنشية لأن الهجمات المكشوفة والغارات السرية قد كلفت جيوشهم خسائر كبيرة. ولكن ماذا تعني طرابلس دون واحتها[١]. !

---

(١) انظر دراستنا عن طرابلس ومنشيتها في مجلد:

Petermanns Mitteilungen 1908, H.3,4 P. 49-59, 78- 85.

11 البادية والكثبان الرملية

إن التربة تحت قشرة الأرض في منطقة طرابلس تتكون من الكلس والحجر الرملي وتتآكل بفعل مطر الشتاء والرياح وتغير درجة الحرارة بين النهار والليل وتنقلب إلى طين بني شاحب تشويه مسحة من لون وردي أصفر، إنها تتصلب تحت حرارة الصيف ويغدو كتلة جافة قاسية يصعب كسرها، بينما تصبح في الشتاء سهلة التفتت.

إن فعالية التآكل الناجمة عن الأمطار تجعل القشرة الطينية التي يبلغ سمكها وسطياً بضعة أمتار تنقسم إلى هضاب وأحواض تعلوها تموجات بسيطة ليس من الغريب أن تخترقها وديان صغيرة. وهي تبدأ عادة - على عكس وديان الحت المعتادة - بانكسار عمودي وجدران مفاجئة وزوايا حادة وتسير مسافة قصيرة في الأرض بحيث تتوقف فجأة.

بعد الأمطار الأولى تنبعث من الأرض الوردية نباتات الربيع بفروعها القصيرة والخشبية في الغالب وجذورها الطويلة التي هيأتها للصراع مع الجفاف الطويل والحرارة. ونتيجة لهذين السببين فإن تلك النباتات لاتغطى وجه الأرض على شكل سجادة محبوكة، بل هي تنتشر كل حزمة وحدها متباعدة عن جيرانها بالمقدار الذي تؤمن فيه الماء الكافي لنموها. إلا أن ألوان الأزهار تشكل منظراً بهيجاً في بلاد لايبرز فيها فصل الربيع مثلما هو عليه الحال لدينا (في ألمانيا)، من جميع النواحي ينبعث ضياء أحمر وبنفسجي وأزرق وأصفر وأبيض، وتعبق الأزهار بروائح أصلية تصدر عن روحها الشابة إذ أن فصل الأمطار القصير لايمنحها قوة كافية لمقاومة جفاف الصيف.

وماهي إلا أسابيع قليلة حتى تسقط رؤوس الأزهار وأما الفروع الخضراء فإنها تذوي وتيبس فتصبح صفراء ويتغير شكلها وتتصلب الأرض وتتشقق من الجفاف، وتزيح بلونها الأصفر ألوان النباتات الصغيرة، بحيث يصعب التعرف عليها. ثم تنشر شمس الصيف بوهجها الأبيض فوق البادية، فلايبقى فيها من النبات سوى أعشاب صلبة مدببة، مثل الحلفا والرتم الشوكي وأما السحليات

الصفراء فإنها ترف فوق الأرض المستوية، ويلتصق في أحد فروع النبات بوكشاش (حرباء) رمادي وينتظر ممدود اللسان ذبابات غير حذرة ويمكث ساعات كثيرة أو عدة أيام في نفس الموضع. وعلى مسافة بعيدة ظهر قطيع غنم، وما خلا ذلك لايشاهد أي شيء آخر سوى السماء المتوهجة وربما البحر الأزرق الداكن الذي يلوح على الأفق.

في أماكن كثيرة من ضواحي طرابلس البعيدة تحتجب البادية وراء مرابض كبيرة من الرمال التي تجعلها الرياح تتخذ شكل كثبان ويلاحظ في المنطقة المحيطة بالمنشية وتاجوراء جنوباً منطقة كثبان رملية يبلغ عرضها مايزيد عن عشرين كيلو متراً وتطوق بكثافة المناطق الداخلية. ولاتعبرها سوى عدة طرق قوافل نحو الداخل، ولايدع المدينة ويتوجه عبر جدار الرمال المتحركة العميقة إلا من له عمل ضروري في الدواخل.

إن الكثبان الرملية تتشكل من ذرات ذات لون برتقالي فاتح. ويتراوح حجم الذرة مابين عُشر وعُشْرَي مم وهكذا فإن الرمل يتسرب من بين الأصابع مثل الزيت. إن مصدر الرمل الرئيسي هو الصحراء الواسعة وبالأحرى صحراء طرابلس وفزان، إذ تحملها رياح الجنوب من هناك وتضعها أمام جدار الواحات الساحلية فتتجمع على شكل هضاب يصل ارتفاعها إلى عشرين متراً.

في كثير من مواضع منطقة الكثبان الرملية وجدت أطلال بيوت من العصر القديم وجذوع نخيل وآبار وفي ذلك إشارة إلى أن هذه المنطقة لم تكن منطقة كثبان في العصر القديم، فإما أنها لم تكن موجودة إطلاقاً أو أن وجودها كان أقل اتساعاً مما هو عليه الآن.

وفي الوقت الحاضر تتقدم الرمال تدريجياً في الواحات، ونتيجة غزوها المستمر تهددها أن تطمرها، وهكذا فإننا نشاهد بعض الكثبان جنوبي المنشية. وإنه من حسن الحظ ـ إذا لم يتدخل الإنسان ضد زحف الرمال ـ أن واحة غير مسكونة وموحشة مثل عين زارة توقف الرمل المتطاير مثل كاسر الأمواج.

تمثل عين زارة النهاية السفلى لواد هابط من الجبال، ينساح هنا في

منخفض مستو ويموت تحت الحلفا وبعض أشجار النخيل المبعثرة.(١)

تابعنا سيرنا سالكين بقية الطريق الذي يمر بالثكنات وهو حوض وادي المجينين المستوي وفيه بعض الكثبان الرملية، وعندما تسقط أمطار غزيرة على الجبال فإنه يتدفق أحياناً عبر المنشية وهذا ماحدث مثلاً في 1904 عندما أوقع دماراً كبيراً (اللوحة العاشرة الشكل 2) وصب في حوض المرفأ عند نادي الضباط، ولايمكن تحويل كمية المياه في مثل هذه الحالات إلا بجهد جهيد وذلك بأن يحول جريان المياه إلى الطرف الغربي من الواحة عند محطة ضخ المياه الجوفية في بومليانه وبعد ذلك تصب في البحر.

إن طبيعة الكثبان الرملية ذات منظر أخاذ يصعب وصفه بألوانه البرتقالية ولون أكسيد الحديد المائل إلى الحمرة ومايصدر عنه من أضواء تتدحرج أمواجها في مجموعات طويلة يتداخل بعضها ببعض دون اتجاه مشترك. إن ضوء الشمس يكلل السطوح المتموجة بمختلف أصناف الألوان بدءاً من الأصفر حتى الذهبي، ومروراً باللون البني الذهبي الدافىء وصولاً إلى الأحمر البرتقالي القاني البنفسجي، وهذا الأخير يزين الكثبان الرملية قبل الغروب وأثناءه وبعده بقليل، ثم يتدرج إلى لون رمادي هادىء يخفت حتى يذوب في زرقة الليل الداكنة.

إن الصورة تتبدل تماماً مع رياح القبلي، فالشمس تختفي في حمرة ملتهبة وسماء أرجوانية وبنفسجية. كان الليل ضاغطاً رطباً وقائظاً. والناس يغادرون بيوتهم الحارّة منهكين، وفي الخارج لاتظهر القبة زرقة السماء بل يبرز تحتها جو ملبد كثيف الغبار. والشمس التي تسطع دائماً لم تعد مرئية، إنها مثل قرص معلق في الهواء دون أطراف واضحة، إنها كبيرة، كبيرة إلى درجة غير طبيعية، ولكنها خالية من الحياة والنار، إن قيظ الجو يضغط بشدة على الجسم، وكذلك على مزاج الإنسان. توترٌ كهربائي واغبرار غير عادي.

إن مايعانيه الجسم من إنهاك وتوتر يحرم الإنسان من ملاحظة فرح أبناء

---

(١) في مطلع 1912 احتل الإيطاليون عين زارة ثم تخلوا عن مواقعهم في أبريل وغدت السكة الحديدية التي مدوها عرضة للتخريب من جانب الأهالي.

الجنوب وحيويتهم هاهي عاصفة تهب على الكثبان فتحمل معها الرمال بألوانها، وقلما يتمكن المرء من الرؤية على مسافة عشرة أمتار، حيث مامن مكان يتيح رؤية واضحة. إن ثورة العاصفة العاتية وجدران الغبار، واللون الرمادي الأصفر ودوران كل شيء أمور تجعل الإنسان في حالة عصبية مدوخة، حتى يخيَّل أن الأرض فقدت توازنها وشرعت ترتخي وتنزاح من تحت القدمين، لم تعد الكثبان تتجمع إنها تطلق في الهواء أشكالها الجمالية وتنقلب إلى حجاب متغير وعلاوة على ذلك قيظ جهنمي يبلغ 50 درجة مئوية أو يزيد[١].

(١) انظر دراستي عن طبيعة طرابلس:
'Die Tripoliner Landschaf' Die Geographische Zeitschrift. 1908. 129-137.



اللوحة 15-1 بيت شعر ونساء في بادية الجفارة



اللوحة 15-2 نماذج من الليبيين البربر، إلى اليمين صبي من الدواخل مرتدياً القميص والمولى، وفي الوسط صبي من طرابلس مرتدياً القميص والسروال ثم إلى اليسار بدوية وأطفال.

12 ـ الشريط الساحلي

من وسط تونس حتى منطقة دلتا النيل يمتد شاطىء يتكون من تناوب بين شاطىء عمودي منخفض وشاطىء رملي مستوٍ، وفي منطقة برقة فقط يعوض عن ذلك بجدار جبلي (انظر اللوحة السادسة عشرة الشكل **1**). وقرب طرابلس بصفة خاصة يتشكل الشاطىء من حجر رملي لين، حديث جيولوجياً، تتداخل طبقاته فتكوّن سلسلة من كثبان رملية يمكن أن تدعى كثباناً رملية متحجرة.

إن هذه الحجارة تبرز كرؤوس في البحر وينشأ عن ذلك فصل بعض الخلجان الصغيرة عن بعضهم وكانت في السابق ودياناً للكثبان وقد غارت في البحر تدريجياً مشكلة شاطئاً رملياً مستوياً، وإن ريف الميناء يتكون أيضاً من كثبان رملية متحجرة انفصلت عن البر بانخفاض موضعي في حوض الميناء.

أمام هذا الشاطىء تندفع أمواج عاتية زرقاء داكنة. وفي الشتاء تكون هذه الأمواج خضراء بيضاء الزبد تتكسر مجموعات طويلة، فيتناثر رذاذها إذ تصطدم بأطلال دفينة ثم تتراجع وهي تزفر مثل عامل يتنفس بعمق لتغوص في البحر ثانية فتلتقي برفيقاتها وهن يتقدمن مرتفعات فوقها بأربعة أو خمسة أو ستة أذرع.

إن صورة (بوزيدون) الهيلينية، وهو يسوق جياد البحر، صائبة في تشخيصها هجمات البحر على البر. ويكون الهجوم على الرأس على وجه مغاير، هنا تنقسم كل مجموعة من الأمواج صفوفاً وتهاجم الخلجان المستوية هجمات أخف. إلا أن النواة المركزية لكل مجموعة من الأمواج يجب أن تندفع بقوة إلى الأمام نحو المصدّ الحجري للرأس المعاند المنحني نحو الأمام. وبعواء موحش تنقلب الموجة إلى جبل من الماء محاولة أن تخيف الأنف البري وتشب عليه مثل أسد يزأر وقد أنشب مخالبه في وجهه. مامن شك في أن المخالب تمزق اللحم وتأخذ منه قطعاً كبيرة، إلا أن الهجوم الكبير سرعان مايضمر ويتراجع متأففاً ولكنه يحمل معه جزءاً من الغنيمة.



اللوحة **3-15** ليبي من الدواخل مرتدياً القميص (السورية) والحولي.

إن عملية الحت التدريجي أدت إلى نشوء شاطىء جديد شديد الانحداد ملىء بالأخاديد والثقوب والانكسارات يتراوح عرضه بين 5 و 25 م (انظر اللوحة السادسة عشرة الشكل1) ويتراوح ارتفاع هذه الشواطىء المنحدرة بين 6 و 10 أمتار في غالب الأحيان بينما لايتجاوز أعلى شاطىء 25 متراً، وتظهر آثار الحت ملموسة من مستوى 5-6 م. وتتشكل في حافتها فتحة مغارة ناجمة عن الحت (اللوحة السادسة عشرة الشكل 3) تتبعثر أمامها الحجارة المجروفة. وتزداد قوة تأثير البحر نتيجة لوجود طبقات الحجارة الرملية من جهة البر وتقابل رؤوسها البارزة الأمواج مباشرة.

وإن نظرة عامة نلقيها على شاطىء طرابلس تجعلنا نعتقد أنه محكوم عليه بالموت. وتتوفر حقائق تشير إلى تقدم البحر على حساب البر، وهذا مايفسره المختص بأنه تخلخل إيجابي في المستوى. إن تآكل البر يستغرق وقتاً طويلاً جداً وهذا مانلاحظه من إحاطة البحر بالشعاب التي لايمكن أن تكون قد تشكلت إلافي البر نظراً لكونها كثباناً صخرية.

وعلاوة على ذلك فإننا نجد في حيز البحر أعمالاً إنسانية مختلفة. فهناك مثلاً على مسافة كيلو متر ونصف من باب الجديد (على عدة أمتار من الشاطىء المستوي) يوجد جرن حجري قطره متر وهو على الأغلب من بقايا بئر للسقي أو صهريج، وحتى 1850 كان بوسع المرء أن يسير دون بلل من الميناء إلى السراي خارج السور الشرقي لشارع البحر (Rohlfs, Kufra,. P.Leipzig 188 P89)، ومثل ذلك ممكن الآن في بعض أيام الصيف الجافة فقط. إن الشاطىء الشاطىء المسور بجانب سوق الثلاثاء أصبح الآن أطلالاً بعد أن كان في 1879 بالنسبة لرولفس يصعب عبوره.

وعلى كل حال فإن تآكل البر كان معروفاً منذ وقت مبكر لدى أبناء طرابلس، فقد تحدث عن ذلك ليون الافريقي (نقلاً عن:

Beechy, Proceedings in the Expedition to explore thenorthern cost y .Africa. London 1828, P.18-19

يعد مرفأ طرابلس من نوع المرافىء ذات الحوض الجداري الذي يحمي المدينة والشعاب من العواصف الشمالية الغربية. إلا أن الرياح الشمالية تدفع

الأمواج عبر ثغرات الشعاب إلى الحوض، ولما كان التيار يلامس الشاطىء من الشرق، فإن المرفأ يتعرض لزحف الرمال الشديد الأمر الذي يجعل الملاحة فيه غير آمنة ويمنع البواخر التي يزيد غاطسها عن ستة أمتار من الرسو فيه. ويقترن دخول المرفأ خصوصاً بصعوبة فائقة نظراً لأنه يتم عبر فجوة ضيقة جداً في الشعاب، ويعتبر عبورها أثناء غياب تيار قوي أمراً فائق الخطورة، وهذا مايجعل السفن تتحاشاه.

عندئذ تتابع سفن البريد خط سيرها وتأخذ على ظهرها الركاب والبريد والبضائع إلى المرفأ التالي وتفرغها في سفينة أخرى وتحاول ثانية تأمين نجاتها. إن ذلك يتكرر دورياً مرتين في كل شتاء فيمكث المرء في طرابلس مابين 8 و14 يوماً دون بريد مما يسبب حرجاً كبيراً لمن ينتظرون وصول نقود على وجه السرعة. إن تحسين المرفأ يجب أن يأخذ قبل كل شيء بربط الشعاب مع بعضها بسور وتوسيع فرجة الدخول إلى المرفأ بتفجيرات فعالة وبناء رصيف طويل يمتد في البحر في الجانب الشرقي من الميناء بحيث يخف زحف الرمل إلى حوض المرفأ. وهو إجراء يمكن دعمه بأعمال تنظيف منتظمة، ثم بإقامة منشآت الأرصفة وهي مازالت مفقودة تماماً.

يثير شكل شاطىء طرابلس الخوف في نفس الإنسان، إذ مامن مكان تتوفر فيه الشروط الطبيعية للمرفأ. ولذلك فإن مرفأ طرابلس يشكل شرطاً بالغ الوجاهة لاستمرار وجود المدينة، والجزر التي كان من الممكن أن تغري حركة الملاحة، منعدمة أيضاً، وإن دواخلها لاتنتج كثيراً، والشريط الساحلي ذاته مقفر طالما أنه لاتوجد واحة هنا وهناك إلا أن فلاحي الواحة لايأخذون البحر بعين الاعتبار.

وإن الحياة الحيوانية على الشاطىء فقيرة جداً وضئيلة، لأن المد والجزر في البحر المتوسط عديم الأهمية وفي طرابلس يتراوح بين 15-20 سم وهكذا ينعدم وجود منطقة تغذية غنية. وإن صيد الأسماك قليل وغير مجز ولذلك فإن أهالي شواطىء طرابلس لاينشطون في البحر، مما يجعل الموارد الغنية من الاسفنج قرب الشاطىء تستغل في كل صيف من جانب صيادي الجزر اليونانية، ليس الطرابلسي بحاراً، إنه يهاب البحر فهو فلاح أو بدوي. ومالشاطىء بالنسبة له ولعالم تصوراته إلا جدار لايستطيع ولايريد أن يبصر ماوراءه.

أثناء جولاتي على شاطىء البحر كان ينتابني شعور ذلك المقيد الذي لاأمل له أن يخرج منه ثانية، المرفأ الفارغ وإن وجود ثلاث بواخر في حوضه حتى العام 1911 كان يعتبر حدثاً غير عادي ولم أشاهد فيه سوى مرة واحدة تسع سفن في آن واحد والبحر الخالي تقريباً من السفن الشراعية التي تظهر على الأفق بأوشحتها الزرقاء السوداء أو الفضية، والبادية المجدبة، والكثبان الصفراء الميتة، والسماء المتوهجة قيظاً. نعم. إن طرابلس قد تبدو لأحدهم في بعض الأحيان مثل منفى، مثل سجن.

13 ـ طبيعة والحضارة

إن طرابلس بلاد مسطحة تندفع فيها الصحراء الوسطى حتى خليج سرت ولذلك لاتخضع لتأثير البحر المتوسط، وفي الداخل تنطلق خطوط من الانكسارات وتنخفض نحو خليج سرت الكبير بمنطقة واسعة، ومنطقة أضيق نحو خليج سرت الصغير، إن خط الشاطىء فيه وامتداده في البحر تعتبر من الصحراء. وتعود المنطقة إلى العصر الثلاثي. وقد شهدت انفجارات بركانية مازالت تشاهد في القمم العالية من الجبل. وإن الكتلة الرئيسية للجبل تتشكل من الكلس والحجر الرملي للتشكيلات الطباشيرية، ومنذ توضعها على أرضية البحر في ذلك الزمان مازالت تحافظ على الطبقات الأفقية.

وإن صورة الجبل لاتشاهد إلا من الشمال حيث الجدران العمودية وتتدرج نحو الجنوب تدريجياً ولذلك تشاهد من هناك وكأنها تموج بسيط في هضبة.

إن الأمطار الشتوية الشمالية الغربية لاتصطدم إلا بالجدار الجبلي وتنهمر عليها أمطار تزيد سنوياً عن 700 مم، ولذلك فإن الجبل ذو شقوق وشعاب كثيرة والوديان مازالت ضيقة بسبب حداثتها، ولايمكن عبورها نظراً لشدة المطر المفاجىء، ولذلك فإن المعابر التي تقدمها للربط بين الدواخل والساحل قليلة ورديئة.

ولذلك فإن كمية الأمطار الوفيرة والارتفاع المعقول (وسطياً 500 حتى 600 فوق سطح البحر) يسمح بنمو النباتات نمواً جيداً ولو أن استفادة الإنسان منها يمكن أن يتحسن فيما لو لم تترك المياه تجري في السهل. ويتكون السهل من أرضية سفلية تعود إلى العصر الثالث وقد اختفت صخورها تحت تأثير ماينجم عن حت مياه الجبل. وتتجه الوديان من طرف الجبل نحو البحر، وتجري فيها المياه في أيام المطر، إذ أن معظم أيام السنة ليست مطيرة، إلا أنه يجري تحت حوضها الجاف باستمرار تيار المياه الجوفية باتجاه البحر ويمكن الحصول على ماء عذب بعد حفر متر أو مترين.

إن مناخ طرابلس حار صيفاً ونهاراً بسبب موقعها في الجنوب وهو بارد ليلاً وشتاء، وخاصة في المناطق المرتفعة في الداخل قد يسقط الثلج لبعض الساعات فقط. وإن متوسط الحرارة في الصيف يرتفع (أغسطس 26,8) درجة، فإنها تهبط في الشتاء بشدة (يناير 11,9) درجة، ويصل الانخفاض إلى 7,9 درجة. وترتفع درجات الحرارة العليا في يوليه وتبلغ 42,8 درجة، فإن الحد الأدنى المطلق في يناير سجل 1,4 درجة. وإن المتوسط السنوي للحرارة في طرابلس 19,8 درجة. أي 11,3 درجة أعلى منها في ليبزيغ وإنني أذكر ذلك للمقارنة مع درجات الحرارة في ألمانيا

وفي معظم أيام السنة تبقى البلاد تحت سيطرة الرياح الشمالية والغربية، وفي الربيع والخريف الدافئين تستقبل لصحراء الهواء من المناطق المجاورة، وتسيطر الرياح الشمالية والشمالية الشرقية التي لاتحمل المطر إذ أنها تدخل من الحيز الأبرد إلى المنطقة الأدفأ ولذلك تبخر في المنطقة غير المرتفعة نسبياً ماتحمله من رطوبة. وبذلك لاتسقط فوق طرابلس سوى كميات صغيرة من المطر(أبريل 16,1 مم مايو 8,3 مم يونيه 1 مم، يوليه 0,6 ، أغسطس 0,3 ، سبتمبر 11,8 .

وعلى العكس من ذلك تقع طرابلس في الشتاء تحت تأثير ضغط رياح الأطلسي العالية التي تحملها العواصف الجنوبية الغربية، وتصب محتواها من الماء في كل مكان، بحيث تنزل في منطقة طرابلس الأمطار الكثيرة (أكتوبر 43,8 ، نوفمبر 62,5 ، ديسمبر 125,9 ، يناير 93,8 ، فبراير 51,2 ، مارس 23,9) ويبلغ متوسط كمية المطر 439,2 مم والنسبة في شمال ألمانيا 610 مم).

وهذا يعني أن منطقة طرابلس ليست فقيرة بالأمطار مثلما يعتقد على وجه العموم إلا أنها تعانى من أن الأمطار لاتتوزع توزيعاً متناسباً على مدى السنة. وإن الربيع على وجه الخصوص مهضوم الحق مع أن وقته حاسم في نمو عالم النبات. ولذلك تقتصر النباتات البرية بصورة رئيسية على نباتات البادية التي تنتشر على مساحة تبلغ 254000 كم مربع، ولاتبعد كثيراً عن حدود المنطقة التي تبلغ مساحتها 335000 كم مربع.

إن أعشاب الحلفا ذات اللون الأخضر الصفراوي القاسي والجاف يشكل أكبر أجزاء البادية، ويقوم البدو بحصده في الربيع والصيف ويصدر بعدئذ إلى إنجلترا بحيث يصنع منه الورق. لاتوجد غابة بالمعنى الحقيقي في أي مكان مالم

تؤخذ في الحسبان بعض الأحراش التي تنمو في وديان الجفارة البعيدة، بينما يلاحظ أن بعض أجزاء البادية صالحة للزراعة، فإن المساحة المزروعة حالياً ضئيلة جداً وتقتصر على الوديان وبعض مسطحات الجبال، وحيز ضيق عند سفوحها، وبعض مجاري الوديان المستوية أو قليلة التموجات. وخط من البقاع في الجزء الغربي، ولذلك لاتأخذ الزراعة حالياً الموضع في الشريط الساحلي. وعلى وجه العموم فإن مساحة الأرض المزروعة والصالحة للزراعة لاتزيد كثيراً عن 33000 كم مربع.



اللوحة 16-3 شاطىء انحداري من الحجر الرملي الحديث. نظره من جانب مكبس الحلفا باتجاه الواجهة الشرقية للمدينة، إلى اليسار جامع سيدي الشعاب وفي الوسط قبتا قبور الأسرة القرمانلية.

في هذه الأيام ينبغي على الزراعة أن تقتصر على الطرق البدائية، على المحراث التعيس وسحب المياه بالسانية اللاعقلاني، إذ يصبح حوالي 40% من الجهد المبذول سدى إذ أن مثل هذه النسبة تضيع عند سحب القربة وتسقط ثانية.

من أجل الوصول إلى أعداد أعلى، من الضروري أن يجري تقييم مزعج لمخزون المياه، ومن ذلك تخزين قسم من مياه الأمطار الشتوية في الجبل.

في العصر القديم أقيمت حواجز عرضانية على مجاري الوديان الجبلية، مازالت أطلالها قائمة حتى الآن، وكانت تهدف إلى تنظيم جريان السواقي الهائجة، وكذلك تخزين كميات من المياه بحيث يستفاد منها في الربيع والصيف في سقاية الحقول الجافة وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تقام الآن آبار ارتوازية، ورفع المياه الجوفية من الوديان بقوة الحيوان أو الرياح أو البخار.

وإلى جانب ذلك يجب أن يحدد مجال الكثبان الرملية بالزراعة وتحرير الواحة من الرمال التي تقذفها عليها. وإن فتح الطرق وبناء الاستراحات وبناء بعض الخطوط الحديدية حتى الجبل وخاصة تحسين ميناء طرابلس وبعض الأماكن الأخرى مثل زوارة وزليطن والخمس ومصراته، وأخيراً التخريط الطبوغرافي والجيولوجي للبلاد كل هذا سيكمل أول برنامج من أجل رفع شأن طرابلس إقتصادياً.

إذا ماجاء جاءت كمية الأمطار في إحدى السنوات أقل من المعدل وهذا ليس نادراً فإنه يحدث خوف كبير ويمنع على الفور تصدير الحبوب (على سبيل المثال 1905 و 1909) وفيما عدا ذلك تبقى أكبر كمية من المحاصيل الحقلية والفواكه في البلاد، وإن نسبتها في التصدير ليست بالغة. مثلاً في 1905 كانت النسبة 8% وفي 1908 بلغت 17% وأهم المحاصيل الشعير (فقد بلغت قيمة ماصدر منه في 1906 حوالي مليون مارك، وفي 1907 حوالي 3,2 مليون وفي 1908 حوالي 0.2 مليون) والقمح والزيتون والتمر، وقد حققت زراعتها المنتظمة نجاحات كبيرة، إلا أن هذا يشهد تجميداً جديداً نتيجة لإعادة تشجير حقول الزيتون التي اختفت من الجبل، وبذلك تعود منطقة طرابلس كي تصبح بلداً هاماً في تصدير زيت الزيتون. إن زراعة القطن مازالت غير موجودة حتى الآن، وقد يكون ذلك عائداً إلى الافتقار إلى الماء أكثر مما هو عائد إلى طبيعة الأرض، لأن شجرة القطن تكتفي بالأرض الرملية الفقيرة، وهي التربة المنتشرة في منطقة طرابلس. وقد يغدو ممكنا زراعتها فيما بعد في المناطق الواقعة عند سفح الجبل، إذ يمكن زراعتها بسهولة. على أنه لايمكن التوصل إلى مواسم ضخمة

كما هو الحال في مصر إذ يفتقر إلى المساحة اللازمة.

إن زراعة البرتقال ذات آفاق كبيرة وهي محل عناية حالياً وكذلك الليمون والبطاطا. وإن الأرض ممتازة لزراعة البطاطا على وجه الخصوص، وإن تصديرها في فصل الربيع إلى أوروبا يحقق أسعار عالية.

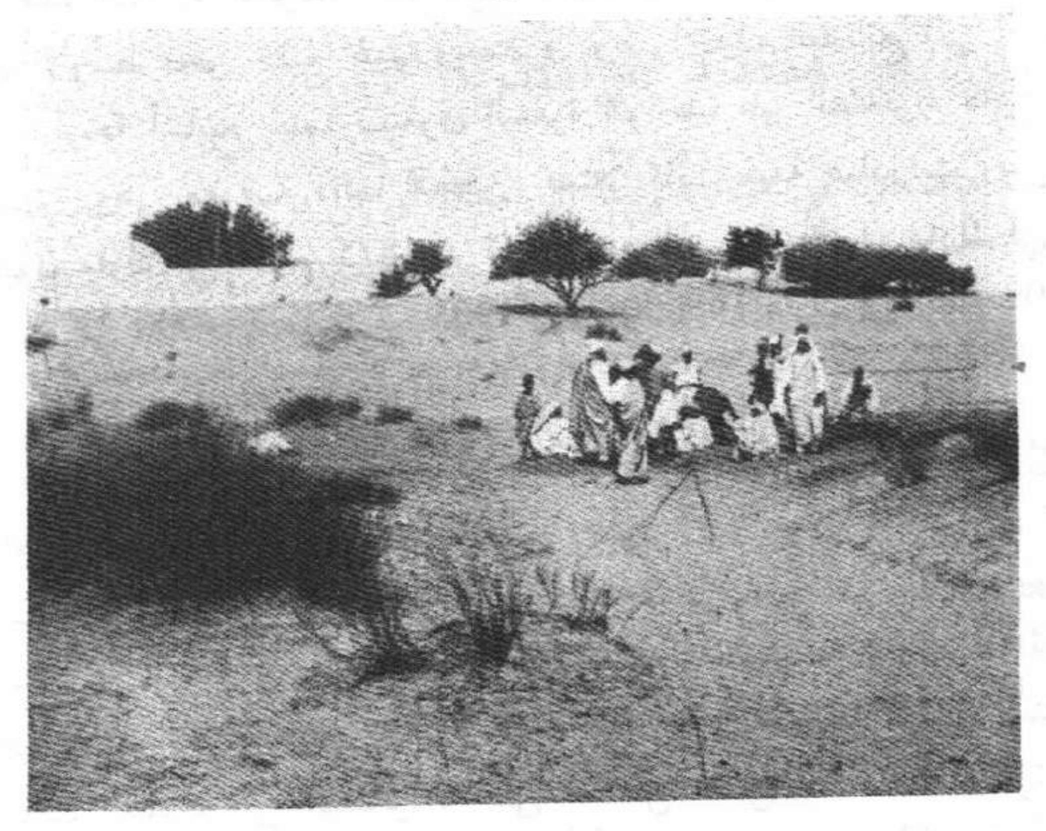
وأما تربية الحيوان فإنها تتمتع بظروف أفضل من الزراعة، إذ أنها لاتحتاج إلى أي نوع من العناية، وتوفر البادية العلف بصورة دائمة. وعلى كل حال فإنه تجدر الإشارة إلى أنه ليست جميع البادية صالحة للرعي لأن معظمها تشغله الحلفا التي لاتحتوي على قيمة غذائية تقريباً، ولذلك فإن الرعاة يجب أن يفتشوا عن الأعشاب، وعلى الرغم من ذلك فإن تربية الحيوان تشكل العمود الفقري لاقتصاد البلاد إذ أنه يساوي وسطياً مايزيد عن ثلث الصادرات توزع على منتجاتها: جلود وصوف وبيض وسمن غنم (مثلاً في العام 1905 بلغت النسبة 37% من الصادرات في 1908 بلغت 33%).

إن الغنم والماعز حيوانات ذات قيمة خاصة، كما أن الخيول والحمير ممتازة أيضاً، بينما البقر صغير وفقير باللحم. وإذا ماقيض لطرق المواصلات أن تتطور فتغني عن الجمل الذي يسيطر حتى الآن بوصفه واسطة نقل، إذ أن طرق القوافل هي السائدة حتى الآن، فإنه يجب أن توجه الأنظار إلى تربية الحيوانات الصغيرة التي تكون بالنسبة إلى الصحراء المقفرة أكثر ملاءمة من الخيل، وقد يكون المجال مناسباً في سهل الجفارة لإقامة مزارع كبيرة للنعام. ذلك أن تربية الدواجن حالياً مثيرة للانتباه، حيث برز تصدير البيض الطازج في قوائم الصادرات (مثلاً في العام 1905 بلغت قيمة البيض المصدر 390,000 مارك وفي 1904 بلغت 354000 مارك).

اللوحة السادسة عشرة



اللوحة 16-1 نموذج لشاطىء في طرابلس تعرض للحت مع مجرى قرب حصن الحميدية باتجاه الشرق والشمال شرق.



اللوحة 16-2 قرب بادية الكثبان الرملية، بجانب قبر سيدي عبد الرحمن المصري.

إلا أن التصدير أخذ في التناقص منذ سنوات لأن العرض هنا وفي الجزائر يزيد كثيراً عن الطلب في إنجلترا. وهكذا فإن الصادرات انخفضت من 2,43 مليون مارك في 1875 ، ومايزيد عن 2,5 مليون مارك في 1890 إلى 1,65 في العام 1905 ، و 1,15 مليون مارك في 1906 ، و 1,3 في 1907 و 1,03 في 1908 . ويعتقد أن الصناعة ستستغني مستقبلاً عن الحلفا، وإن كان عمر استخدامها لايزيد حتى الآن عن نصف قرن.

ومما تقدم يمكن الاستنتاج أن طرابلس لاتتكون من صحراء، ولكنها بحكم طبيعتها لاتستطيع أن تحقق آمالاً عريضة. وهي ستبقى بلداً من الدرجة الثانية أو الثالثة نظراً لأنها ليست غنية بالمياه، ولايمكن مطلقاً أن تكون عضواً لايستغنى عنه في التعامل الدولي، إنها بلاد ساحلية دواخلها قاحلة مقفرة غاية الإقفار وإن التجارة مع بلاد السودان (بصورة رئيسية جلود البقر والماعز وريش النعام والعاج) وقد وصلت خلال القرن الماضي في بعض الفترات إلى أسعار باهظة، إلا أن هذه التجارة تحولت منذ فتح الطرق المائية والسكك الحديدية، في السودان الأوسط نحو خليج غينيا ويستغرق وصول هذه البضائع إلى أوروبا من ثلاثة إلى أربعة أسابيع بينما تستغرق السفرة الواحدة عبر الصحراء مابين خمسة وستة شهور وهي معرضة دائماً للخطر. فمثلاً كانت قيمة صادرات ريش النعام 2,5 مليون مارك في العام 1875 ، ثم قفزت إلى 5,1 مليون مارك في 1890 وانخفضت إلى 284000 مارك في 1905 وإلى 148000 مارك في العام 1909 .

وينطبق ذلك على عاج الفيل الذي انخفض تصديره من 506000 مارك في العام 1890 إلى 47000 في العام 1905 ، وفي 1894 كانت تنطلق من طرابلس

إن الحلفا لايمكن إدراجها بين المحاصيل الزراعية أو تربية الحيوان وإن كانت تنتشر في معظم أنحاء البلاد. وإن المساحات الواسعة من الحلفا تشير إلى أن نوعية التربة لايمكن أن تكون صالحة للزراعة، فالحلفا تمثل الانتقال من البادية ذات العشب إلى الصحراء، على أنه من حسن حظ منطقة طرابلس أن الحلفا صالحة لتصنيع الورق، ولذلك فهي تصدر بكميات كبيرة.

قوافل تحمل بضائع بقيمة 12,15 مليون مارك باتجاه الصحراء، فانخفضت قيمة البضائع المرسلة إلى 1,4 مليون مارك عام 1906 .

ويبدو أن الثروات المعدنية ليست متوفرة بكثرة. فلا يستثمر في الوقت الحالي إلا ملح السبخة وبطريقة بدائية جداً. كما توجد بعض المواضع في الشرق قرب خليج سرت يستخرج منها الكبريت. ويجري الحديث بين الحين والآخر عن الفوسفات إلا أنه ليس هناك ماهو أكيد حولها.[1]

ولذلك يبدو لي من غير المؤكد أن يكون مجدياً لقوة أوربية أن تستعمر هذه البلاد وتبذل في سبيل ذلك الدم والمال. فمنذ ثلاثة أرباع السنة يقاتل الإيطاليون بقوة تقارب 150000 رجل وأسطول كبير ضد بضعة آلاف من الجنود العثمانيين وعدد من الأهالي قلما يزيد عن عشرة آلاف رجل، ولايزال مااحتلوه لايزيد عن بضعة عشرات من الكيلومترات المربعة، ولايستطيعون السيطرة على هذه المنطقة المحتلة إلا بالجهد الجهيد. إن البلد الفقير يدافع عن نفسه بذاته.

الحضارة في منطقة طرابلس:

إذا ماصعدنا في ختام جولتنا إلى مئذنة أو إلى برج الكاتدرائية وحاولنا أن

---

(١) إن القائمة الواردة أدناه تمثل التجارة الخارجية لإيالة طرابلس الغرب خلال السنوات 1902 حتى 1909. إن الاستيراد يتكون في الدرجة الأولى من البضائع القطنية، والدقيق والحبوب والسكر والتبغ والشاي والمنتجات الصناعية الأوروبية والبضائع الاستعمارية، وفي الاستيراد تبرز انجلترا وفرنسا وتركيا في الغالب. وفي التصدير تبرز انجلترا وإيطاليا وفرنسا وتونس وتركيا. وفي دراستي عن الشمال الافريقي كتاب التجارة الدولية، توجد بيانات أكثر تفصيلاً:

تجارة إيالة طرابلس الخارجية (بمليون الماركات)

	1902	1903	1904	1905	1906	1907	1908	1909
الصادرات	6,2	7,8	7,7	7,6	7,1	10,7	3,3	5,1
الواردات	6,4	7,6	7,2	9,0	8,3	8,6	8,9	14,5

() وردت في الأصل الأهالي

نلقي نظرة عامة على المنطقة إجمالاً، فإننا نشاهد تحتنا سجادة بيضاء من المصاطب والجدران في المدينة، ويطوف في شوارعها أنواع من البشر وفي أفنية دورها جمل وحيد في الشمس، أو شجرة خضراء يتعلق بها الشوق نحو الواحة[1](انظر اللوحة السادسة الشكل 3-5). إن الشعاب والضواحي تنسل من المدينة شبيهة بقرني ثور مفرودين عرضانياً حول حوض الميناء، تعقبها بعدئذ المنشية ذات البساتين الطويلة. وهناك في الغرب واحتا قرقارش وجنزور، ومابينهما باتجاه الجنوب تقوم البادية ذات اللون الأشهب، ومنطقة الكثبان الرملية الواسعة التي تحيط بطرابلس، وتسقط البادية التي تليها زرقة الجبال من المنظر المحيط بها.

وتتطور طرابلس الحالية في حيزها الضيق، الذي تعرفنا عليه من خلال هذه الأوراق، ففي العصر القديم كان يعيش هنا الليبيون والبربر وقد وحّد بينهم

---

(١) إن تقديرات عدد سكان مدينة طرابلس قد تم وفقا لمايلي:

١٨٢٠	٢٥٠٠٠ نسمة	(Ritter, Erdkunde, 2ed ed. Vol 1 Berlin 1822,P. 923)
١٨٤٦	١٣٠٠٠- ١٤٠٠٠	(Barth, Wanderugen. Vol.1 Berlin 1849, P. 293)
١٨٦٢	١٥٠٠٠- ١٨٠٠٠ نسمة بينهم ١٤٠٠٠ أوربي	(Mircher, Missian de ghadamse Aeger, 1863. P 318)
١٨٦٩	١٨٠٠٠ نسمة منهم ٤٠٠٠ يهودي و٣٠٠٠ نصراني	(Rohlfs, Von Tripolis nach Aleandrin. vol1, Bremen 1871 P88)
	١٥٠٠٠- ١٨٠٠٠ نسمة	(Maltzan, Reise in die Regenschafen Tunis und Tripolis Vol.3 Leipzig 1870 P. 197)
	٢٠٠٠٠ نسمة	(Nachtigal, Sahara und Sudan. Vol 1 Berlin 1879 P14)
١٨٧٩	٣٦٠٠٠ نسمة	(Rohlfs, Kufra, Leipzig 1881, P.88)
حوالي ١٨٨٥	٣٠٠٠ نسمة	(Reclus, Noun, Geogr. Univ. T. 11 Paris 1886 P, 89)
حوالي ١٨٩٥	٧٠٠٠٠ نسمة	(Cowper, The Hill j of graces, London 1897
	٤٠٠٠٠ نسمة	(grothe, Tripolitanien.Leipzig 1898)
٧/١٩٠٦	٤٦٠٠٠ نسمة	(Banse, das Nordalafrikanische Tripolis 1908. P. 82
١٠/١٩٠٩	٥٠٠٠٠ - ٥٢٠٠٠ نسمة	Bansa

وهذا يعني:

ليبيون النموذج البربري	٢١٠٠٠ - ٢٢٠٠٠	يهود	١٢٠٠٠
عرب	٣٠٠٠	مالطيون	٣٠٠٠
سود	٣٠٠٠	ايطاليون	١٠٠٠
أتراك وكريت	١٠٠٠	يونانيون	٢٠٠
فزانيون	٣٠٠	أوروبيون أخرون	٢٠٠
عسكريون	٦٠٠٠		
مسلمون	٣٥٣٠٠ - ٣٤٠٠٠	يهود وأوروبيون	١٦٤٠٠

اختلاط عميق الجذور، إن أحفادهم يسيطرون على عموم البلاد حالياً، وهـ
ينقسمون من خلال نحلتهم ظاهرياً إلى فلاحين يستغلون الواحة وسكان مدينـة
أرقى يسمون هنا بالطرابلسية. وقد كان تأثير المعمرين الفينيقيين والهيلينيين هـ
من الناحية العرقية أقل من تأثيرهم الحضاري، حيث اقتصر وجودهم على
المناطق الساحلية، بينما تغلغلت السيطرة الرومانية نحو الدواخل.

ومن العوامل الهامة في سياق التطور التاريخي الوجود المبكر للجماعات اليهودية -
ودخول المسيحية المتأخر، سيَّما وأن المسيحية تراجعت أمام الإسلام الذي ترافق مـ
فتح طرابلس في 647 م. وكما هو معروف فإن العروبة مست السكان فكرياً هـ
الرباط التي صبغت به الشرق وقد تأتّى ذلك بسبب طبيعة البلادِ وخصائصها العرقية.

وخلال الألف عام التالية التي اتسمت بمنازلة الشرق للغرب شاركت طرابلس
الغرب وفقاً لمجال سيطرتها بواسطة وسائل الغزو البحري المتاحة لها وعوقبت
على ذلك مراراً، ولذلك قلما نجد فيها أبنية قديمة. لقد جاء الهدوء الظاهري
مع عودة الاحتلال العثماني في 1835 .

إن هذه الخطوط الرئيسية لطبيعة البلاد والتطور الأنتروبولوجي التاريخي قـ
أثرت معاً في صياغة الحضارة المادية والفكرية لطرابلس.

يتحدد الاتجاه الثقافي في الدرجة الأولى بسبب الحواجز الضيقة التي تحف بمنطـ
طرابلس فالرمل العميق يجعل حركة الإنسان ثقيلة ويسبب تعثراً في النمو الجسدي ويحـ
هذا الوضع نتيجة للعيش في ظل هواء البحر والواحة، وحتى الذين يتحركون على ظهـ
مركوبهم لا يمضون بعيداً بل يكتفون بارتياد أنحاء الواحة، بينما تكون الحركة محدو د
تماماً في البادية الخطرة وفي منطقة الكثبان. وبالاضافة إلى ذلك يأتي البحر في الشمال
ولم يجرؤ عليه سوى قليل من الطرابلسيين، وهكذا فإن أرض طرابلس معزولة بحواجـ
عن العالم الخارجي وقد كانت هذه الحواجز في العصور القديمة تعزلها عزلاً تاماً .[1]

لذلك فإن الأفق الفكري الطرابلسي منخفض المستوى لابل متدنٍ. ويتصـ

---

(١) لم يكن المؤلف موفقاً في تفسيره الأوضاع الثقافية فهو يحتاج للالمام الدقيق بذلك معرفة أدق بـ
المجتمع العربي الاسلامي.

بالطموح وقلة السخاء وإذا مافكروا حقاً بالصالح العام، فإن ذلك يأتي بدافع ديني، ثم إن فقر المنطقة يزيد من حدة هذه السجية التعيسة. ويجعلها واضحة تمضي إلى حد الإتيان بغرائب الأمور.

إن عدم معرفة العالم الخارجي وتركيز النظر على الذات، كل ذلك يؤدي إلى تبجج يثير السخرية، وإلى ثقة بالنفس لاتتزعزع بسهولة وحتى في حالة المفاجآت الغير عادية. إن الدهشة الساذجة التي يبديها البدو وفلاحو الدواخل لايمكن إلا أن يزيدوا الطرابلسيين فخراً بمدينتهم التي ليس لها مثيل[١].

إن ضعف معرفتهم بالعالم وبعد موقع المدينة عن خطوط الاتصال الدولية، وانعدام وجود دواخل هامة أو قوة إنتاجية ذاتية، أدى مع الوقت إلى الفقر وسير الحضارة المادية في اتجاه واحد. فالطعام المألوف لديهم هو الخبز مع الزيت والبصل، وقد يستعاض عنه بطعام قوامه مختلف أنواع الحبوب هو الكسكس والبازينا. أما البيض المسلوق فليس غذاءً عادياً بل طعام المرفهين. وقشور البطيخ المرمية التي يأنف حيوان أن يأكلها، تمد في حياة بعض الفقراء. إن كسباً يومياً بما يعادل ماركاً واحداً يكفي لتوفير الطعام ووضع معيشي آمن. والمبلغ الذي يعادل عدة مئات من الماركات يجعل صاحبه رأسمالياً ويمكنه من نيل

---

(١) تقوم آداب السلوك واللياقة هنا على أسس مغايرة لما هي عليه عندنا [في ألمانيا] فالطرابلسي يبول في شارع مكشوف وأمام الناس. كما أن النساء في البيوت يتصرفن بحرية أمام الخدم من الرجال. وفي الأزقة تتبادل البنات فيما بينهن ماسمعنه من طرائف جسيمة وحيوية. أما نساء الأتراك فيتبادلها الأزواج فيما بينهم، حيث يشتري المرء ودهن بالمال. إن جهل النساء واختلاط الرجال الدائم بعضهم ببعض جعلا عدوى اللواط مستشريه، حتى أمكن القول بأنه قل أن تجد بين الشرقيين من يدع فرصته تفوته في هذا المجال، إذ أن كثيرين بينهم يمارسون ذلك، إنهم يأخذون السباب والكلام المقذع من كل باب، كلب، خنزير يهودي... ويصوغون منها تركيبات تحتاج ترجمتها إلى لغتنا جملاً كاملة. وليس من النادر أن يسمع المرء أولاداً صغاراً يصمون آباءهم بهذه الأوصاف والكلمات.

إن هذه الملاحظة التي يبديها المؤلف تثير الاستغراب وتتطلب المزيد من الحذر في التعامل معها وقد أوردناها حفاظاً على الأمانة تجاه النص وتدليلاً على أنه دخل وسط جميع شرائح المجتمع وأن آراءه لاتخلو من المبالغات والإسفاف أحياناً.

أجمل الأمنيات. ويكتفي الحرفي بالأدوات المتواضعة، فمثلاً، لم يكن النجار يعرف قبل دخول الأدوات الأوروبية، سوى أداة واحدة يعالج بها الخشب هي القدومة (انظر الشكل) التي تقوم لديه مقام المسحج، والمبرد، والمطرقة، والبلطة... الخ، ولاتكلفه سوى بضعة قروش.

وتبلغ نفقات السكن والطعام واللباس لأسرة حرفي قرابة غرش ونصف الغرش يومياً (حوالي 30 بفنيغ). ولاتحتوي بيوت معظم الطرابلسيين إلا على الحاجات التي لاغنى عنها في الحياة، بل ويصادف أن تسكن عدة أسرٍ بيتاً واحداً، وتتبادل فيما بينها الأواني التي لايمكن الاستغناء عنها.

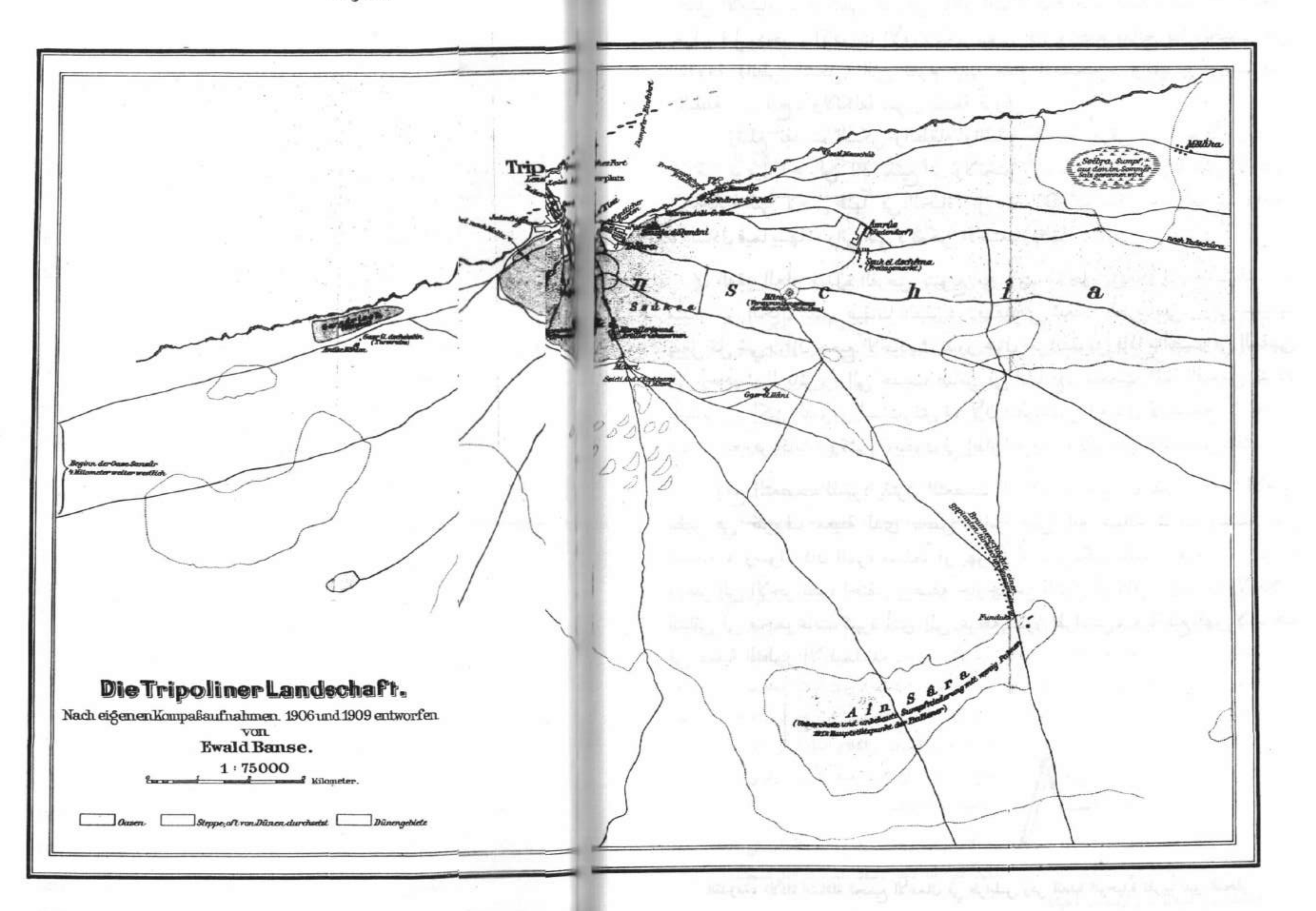
إن الفقر العام وندرة الفرص لتنويع مجالات الدخل يؤديان إلى حب النقود، مثلما هو الحال لدى طبقاتنا الفقيرة، فالفلوس شغف الطرابلسي، وفي سبيلها يفعل كل شيء. إن جميع الأحاديث تدور حول لغز الفلوس فإذا ماأنصت في المقهى إلى أحاديث الزبائن، وإلى حديث الناس في الشارع، سمعت كلمة الفلوس تتردد باستمرار. لكن الفلوس ليست كثيرة، لأن الطرابلسي العادي لايستطيع أن يجمع سوى بضعة فرنكات، وكثيرون يبقون في إطار الغروش ولايمكن انقاذهم من ذلك.

ومع التعصب للنقود يقترن التعصب الديني، ويجب أن يقال إن هذا الأخير يظهر في ظروف معينة لدى بعض الناس على أنه مسألة شرف فيصبح في المقدمة، وسواء كان المرء مسلماً أو يهودياً أو كاثوليكياً مالطياً، فإنه يعمل لدينه وينظر إلى الآخر نظرة احتقار بوصفه خارجاً عن الدين أو كافراً. إن هذا الانغلاق الذاتي في مجموعات كبيرة أدى إلى عرقلة تطور طرابلس، وبالطبع فهو لايساهم في عملية التطور إلا فيما ندر.



القدومة، الأداة الشاملة لجميع الأعمال في طرابلس وهي العدة الوحيدة تقريباً لدى النجار.

الخارطة


Die Tripoliner Landschaft.
Nach eigenen Kompaßaufnahmen 1906 und 1909 entworfen
von
Ewald Banse.
1 : 75000
Kilometer.
Oasen
Steppe, oft von Dünen durchsetzt
Dünengebiete
Trip
Sukra, Sumpf, aus dem im Sommer Salz gewonnen wird.
Ain Sâra
Fundük
Amrus
Suk el dschuma
S c h i a
Sahel
Tadschura
Gasr el Hâni

فهرس الصور

أ ـ الصور والرسوم داخل النص:

ب ـ اللوحات الفوتوغرافية:

ج ـ الخرائط:

الكشاف العام

أ

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- س -

- ش -

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

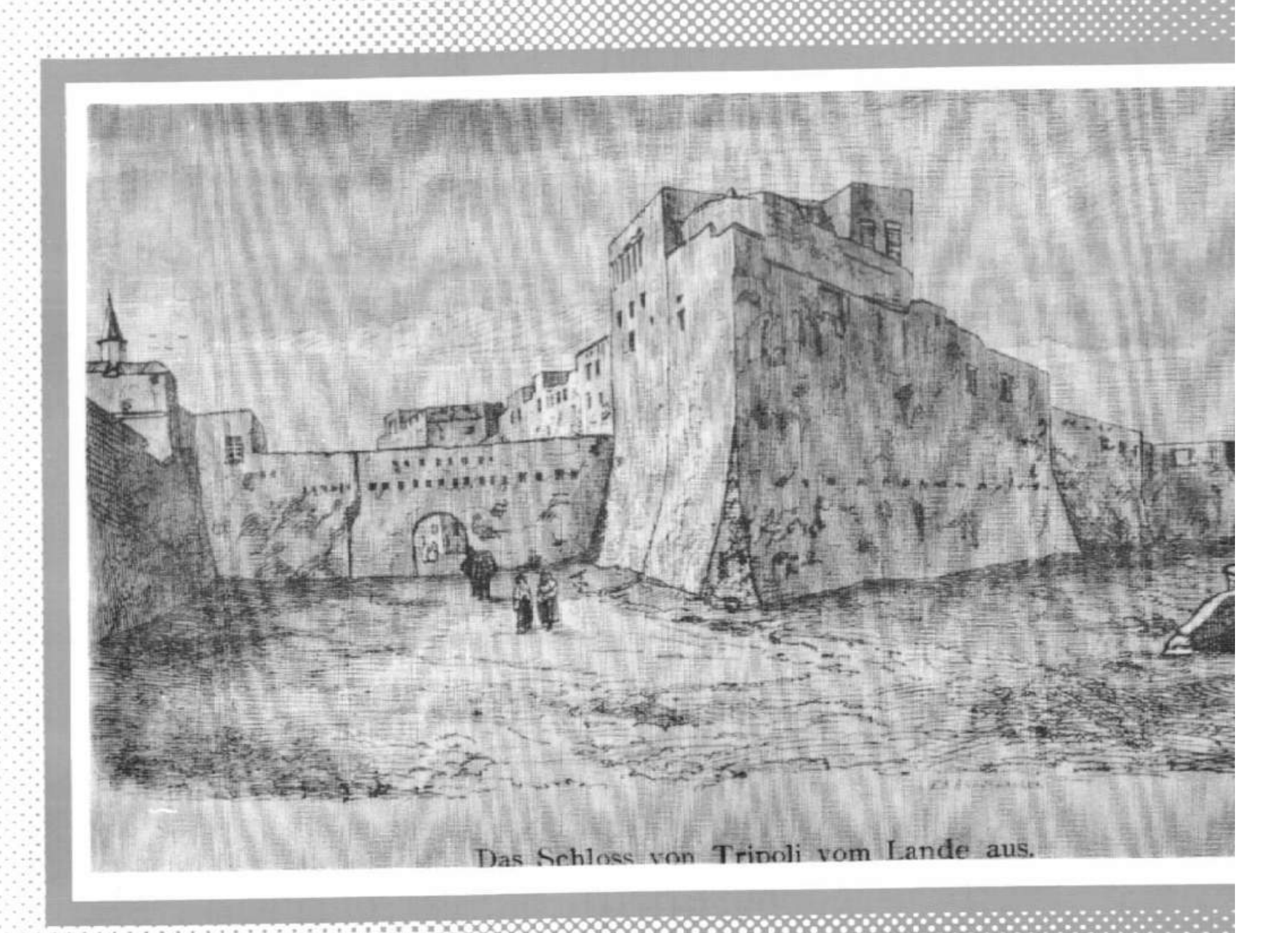
- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -



Das Schloss von Tripoli vom Lande aus.

ـة العلمية للوسائل التعليمية
ـ المسلمية ـ المنطقة الحـرة ـ